

# الولاء والقيادة

في المجتمع الإسلامي الأول

تأليف : روى متحدة

ترجمة : أشرف كيلاني

المجلس  
الأعلى  
للثقافة



المشروع القومي للترجمة

421



المشروع القومي للترجمة

# الولاء والقيادة

## فى المجتمع الإسلامى الأول

تأليف : روى متحدة

ترجمة : أشرف محمد كيلانى



٢٠٠٣



المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٤٢١
- الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي الأول
- روى متحدة
- د . أشرف محمد كيلاني
- الطبعة الأولى ٢٠٠٣

هذه ترجمة لكتاب

**LOYALTY AND LEADERSHIP IN AN  
EARLY ISLAMIC SOCIETY**

المؤلف : ROY MOTTAHEDEH

الناشر : I.B.TAURIS

---

**حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة**

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084

---

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

## تمهيد

يتناول هذا الكتاب السلوكيات و الروابط الاجتماعية التي أعطت شكلا للحياة السياسية في ذلك المجتمع الذي ازدهر في الشرق الأدنى منذ أكثر من ألف عام ، وذلك من خلال الأشكال المختلفة للولاء والالتزام والقيادة .

وقد حاول المؤلف وصف الطرق التي اتبعها أفراد المجتمع لصياغة تعهداتهم والتزاماتهم تجاه بعضهم البعض و الإشارة إلى الكيفية التي يمكن بها لسلوكيات هؤلاء الأفراد أن تطل شكل الحياة السياسية في ذلك المجتمع ككل ، وقد صاغ أولئك الأفراد - بطرق متشابهة تقريبا - هذه التعهدات والالتزامات جيلا بعد جيل ، وهذا التشابه هو الذي يتيح لنا في نهاية الأمر إعطاء وصف عام لسلوكياتهم .

وتقوم الطريقة التي استخدمها المؤلف لتحقيق الفهم الذاتي للمجتمع الذي يتناوله هذا الكتاب على تحليل مادة الحكايات التي تحفل بها تلك الفترة . وتختلف هذه المادة عن مادة الأبحاث والمقالات التي تتناول بناء ذلك المجتمع الذي ظل قائما منذ القرن العاشر والقرون اللاحقة ، وهو الموضوع الذي أحسن تناوله وبشكل رائع " لويز مارلو Louise Marlow " في كتابه " الهرمية والمساواة في الفكر الإسلامي " Hierarchy and Egalitarianism in Islamic Thought . وفي حين أن الحكايات تكون أكثر بساطة بكثير من التحليلات التي قام بها واضعو النظريات الاجتماعية في القرنين العاشر والحادي عشر ، فهي كسائر أشكال الكتابة لا يمكن اعتبارها نزيهة تماما . فالمسؤولون الحكوميون والعلماء ورجال الأدب الذين كان عملهم مصدرا للغالبية العظمى من هذه الحكايات لم يتحرروا من تأثير مناصبهم وشخصياتهم . ورغم ذلك فهذه الحكايات مليئة بالتفاصيل التي يقصد منها جعلهم يبدوون أشخاصا " واقعيين " ومن ثم يمكن تصديقهم ، وعندما نجد تكرارا لمثل هذه التفاصيل يمكن الاعتقاد بأن هذه التفاصيل تعبر عن وجهة نظر بشأن العالم خاصة العالم الاجتماعي الذي يتقاسمه أولئك الذين يروون الحكايات .

وفى بحثها عن الاحتمالات تستحضر الحكايات إحدى وجهات النظر المتعلقة بالعالم الاجتماعى التى من المرجح أن تكون الأقرب لوجهة النظر المشتركة بشأن الواقع الاجتماعى من النماذج الاجتماعية التى قدمها واضعو النظريات الاجتماعية فى القرنين العاشر و الحادى عشر الميلاديين .

وقد تقاربت الأفكار المتعلقة بالعمل الاجتماعى و الطبقات الاجتماعية فى تشكيل مخطط أكبر للعالم الاجتماعى . و أوضح وجود هذا المخطط الأكبر كوجهة نظر مشتركة لمؤلفى الكثير من المصادر أنه كانت لديهم وجهة نظر أيضا حول شرعية النظام الذى اعتقدوا بوجوده فى هذا العالم الاجتماعى . و هكذا فالمجتمع الذى بدا على السطح أنه فوضويا و مفكك العرى بعض الشيء - بالنسبة لبعض أفرادہ على الأقل - كان منظما و يقوم على أساس واضح بشكل معقول .

المؤلف

## الفصل الأول

### الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى الأول

#### مقدمة

يصف هذا الكتاب بعض السلوكيات التى أعطت شكلاً للحياة السياسية للمجتمع الذى ازدهر منذ ألف عام فى الشرق الأدنى، وسوف يتذكر القراء الأمريكيون أن دى توكفيل (De Tocqueville) اعتبر السلوكيات التى عرفها على أنها المحصلة للميول الأخلاقية والفكرية للناس فى المجتمع " أهم عامل مؤثر فى الحفاظ على المؤسسات السياسية الأمريكية "؛ فهى أهم من القوانين أو الظروف الطبيعية، وهذه المحصلة شكل كامل وتام للغاية بحيث يتعذر على أى مراقب لمجتمع معاصر الوصول إليه حتى الأملى دى توكفيل، ومع ذلك لابد أن يبقى الوصول إليه أقل إمكانية بالنسبة لمجتمع باند منذ زمن طويل كالمجتمع موضوع هذا الكتاب، ورغم ذلك فأنا أشعر بالثقة فى أن السلوكيات التى يناقشها هذا الكتاب مهمة حقاً للحياة السياسية لذلك المجتمع الباند، فهى مهمة بما يكفى لأن تكون جزءاً مهماً من المحصلات الكاملة - تقريباً - بصورة أكبر من الصورة التى سوف يقدرها المؤرخون مستقبلاً<sup>(١)</sup>.

وكان اهتمامى الأول بسلوكيات الأفراد وليس الجماعات، وقد حاولت وصف الكيفيات التى شكّل بها الأفراد فى هذا المجتمع تعهداتهم والتزاماتهم تجاه بعضهم البعض، وأن أشير إلى الكيفية التى يمكن بها لسلوكيات هؤلاء الأفراد أن تطل شكل الحياة السياسية فى هذا المجتمع ككل، ولم يكن بالأمر المفاجئ أن يشكّل الأفراد مثل هذه التعهدات والتزامات بطرق متشابهة تقريباً جيلاً بعد جيل، ومع ذلك فلعل هذا التشابه هو ما يمكّننا من إعطاء أوصاف عامة لسلوكياتهم.

وإذا كانت الكيفية التي تم تشكيل التعهدات والالتزامات بها قد بقيت كما هي تقريباً - فإن الروابط التي تم تشكيلها من خلال هذه الالتزامات والتعهدات نادراً ما كانت تدوم لأكثر من جيل ، وقد تبدو استمرارية طريقة تشكيل الالتزامات ، والتعهدات الفردية ، وعدم استمرارية الروابط التي تم تشكيلها من خلال مثل هذه التعهدات والالتزامات أمراً محيراً في البداية ، وكانت بعض جمعيات الحياة الغربية مثل العزبة الإقطاعية والنقابة الحرفية مستقرة وراسخة للغاية حتى أن المؤرخين الاجتماعيين للمجتمعات الغربية ما قبل الحديثة غالباً ما يبدأون بوصف هذه الوحدات ، ومنها ينشئون صورة مركبة للبناء الاجتماعي للمجتمعات التي تواجدت بها ، وقد حذا المؤرخون الاجتماعيون للشرق الأدنى الإسلامي ما قبل الحديث هذا الحذو ، وحاولوا تحديد الوحدات الاجتماعية الأساسية في المجتمعات التي يدرسونها ، وقد حاول هؤلاء المؤرخون تحديد إما "الشبكات" الأولية أو "قوالب البناء" - على حد تعبير أحد المؤرخين الاجتماعيين البارزين - التي تشكلت منها هذه المجتمعات (٢) .

وهناك تشابه بين قليل من الجمعيات الأكثر ثباتاً واستقراراً للحياة المحلية التي تناقشها الفصول ، اللاحقة وبين الوحدات الأساسية للمجتمع الغربي ما قبل الحديث في بعض النواحي ، ومع ذلك فهي تختلف - بشكل مذهل - عن نظيراتها المفترضة في التاريخ الغربي في نواح أخرى ، وقد افترقت معظم جمعيات الشرق الأدنى هذه إلى البناء الداخلي الرسمي ؛ إذ لم يكن مثل هذا البناء مفروضاً من قبل حكومة مركزية ، وكان قادتها يتحدثون بأسمائها وليسوا مدراء لها ، ونادراً ما كان الدخول في مثل هذه الجماعات يميز بأي طقس رسمي أو يمكن تأريخه من أية لحظة معينة ، وكان الرجال ينتمون لمثل هذه الجماعات لكونهم اعتبروا أنفسهم وغيرهم منتمين لطبقات معينة مقبولة مثل "التاجر" أو "العالم" ؛ وبوجه عام فقد كانوا يهرعون لمثل هذه الجماعات فقط عندما يكون هناك ما يهدد الطبقات التي ارتبطوا بها ، حتى الطوائف المجاورة التي كان بعض المؤرخين يأملون أن يجدوا فيها الوحدات الأساسية لهذه المجتمعات نادراً - فقط - ما كانت بؤرة للولاءات السلبيّة ووسيلة للدفاع المحلي . ويستطيع المرء بالكاد القول بأن الرجال شاركوا في المجتمع من خلال عضويتهم في مثل هذه الجماعات .

وإذا كان الرجال فى العصر البويهى - كما سوف نعرض فيما يلى - لم يشاركوا فى المجتمع أولاً من خلال عضويتهم فى قوالب البناء الأساسية والتي كان يمكن لكل واحدة منها أن تحمل ولاءات أعضائها ، فكيف عملت مخاوف الرجال وميولهم معاً لخلق نظام اجتماعى مرن بشكل مذهل فى هذا العصر ، نظام اجتماعى لم يصمد فحسب أمام جهل وعنف غزاته بادئ الأمر ؛ بل نجح أيضاً فى تحويل أولئك الغزاة إلى مشاركين ؟ ولذا فبدون النقابات المهنية ، والكنيسة ، والطبقة العليا من الرتبة الرسمية والطبقة المنغلقة ، والعدد الضخم من الأقسام والجماعات المحددة جيداً - والمعروفة من دراسة الثقافات الأخرى - استطاع هذا المجتمع أن يستنسخ أشكاله من جيل إلى جيل وأن يصدر هذه الأشكال إلى جماعات جديدة من الناس فى الأراضى البعيدة عن الشرق ، ولا يمكن حتى القول بأنه يدين بمرونته لثبات جماعات الأقارب ورسوخها ؛ ولذا فبين الأشخاص المستقرين من هذا المجتمع تبدو القرابة عنصراً لا يمكن التنبؤ به تماماً فى التعاون ولا يعطى النموذج للتعاون بين غير الأقارب .

وفى محاولة لإجابة السؤال السابق يتخذ هذا الكتاب من سلوكيات الأفراد محوراً رئيسياً له ، وحتى إذا كانت هناك جماعات رسمية وثابتة فى هذا المجتمع مقارنة بالعزبة الإقطاعية ، والنقابة التجارية الأوربية فى القرون الوسطى ، لكان هناك جدل شديد لوصف المواقف والعادات الأخلاقية التى تحكم دخول ومشاركة الرجال من الأفراد فى مثل هذه الجماعات ، أما الشبكات الاجتماعية فمرتبطة معاً - فحسب - وقوالب البناء الاجتماعية قائمة بنفسها - فحسب - عن طريق مخاوف وميول الأفراد الذين يشكلونها . وما من مجتمع يمكن أن يأمل فى إكراه جميع الناس طوال الوقت ، وقبل الثورة الصناعية لم يكن من الممكن لأى مجتمع واسع أن يأمل فى إكراه معظم الناس معظم الوقت ، وبين الإكراه وإتاحة الفرصة تكمن الروابط التى تكون مختارة إلى حد ما ، ولفهم هذه الروابط يجب علينا - على أقل تقدير - إعطاء وصف للعالم الأخلاقى الذى فسر الناس خياراتهم من خلاله .

ومن الممكن - بالطبع - المبالغة فى التعبير عن الفروق بين المجتمع موضع الدراسة فى هذا الكتاب والمجتمعات الأخرى ، وعلى سبيل المثال فجزء كبير من الفصل الثانى مخصص لوصف أهمية النعمة أو " الفائدة " فى خلق روابط رسمية للالتزام بين الرجال فى العصر البويهى ، والنعمة ليست بغريبة علينا ، وقد شرح د/ جونسون

١- "بوزويل" فى عام ١٧٦٦م أنه عند التودد للعظماء قائلاً له : "لا بد ألا تعطى ما قيمته شلن من التودد مقابل ما قيمته ست بنسات من النفع ، ولكن إذا استطعت أن تحصل على ما قيمته شلن من النفع مقابل ما قيمته ست بنسات من التودد تكون أحقق إذا لم تتودد إليهم" ، ولكن حتى هذا التحليل لآليات المنفعة يبدو أكثر ملاءمة لبيئة غربية عن بيئة شرق أوسطية ، وذلك أن الروابط أقل رسمية وينظر إليها بمزيد من الصرامة طلباً لتحقيق "ربح" ؛ وعلاوة على ذلك فقليل من الجماعات ذاتية الدوام مقارنة بقوالب البناء للتاريخ الغربى كانت موجودة بالفعل فى المجتمع البويهى .

وفى العصر البويهى كان هناك بالفعل رواد للأخويات الصوفية التى سوف تصبح فيما بعد سمة هامة لمجتمعات الشرق الأدنى ، وكان بعض هذه الأخويات الأولى محدداً بصورة جيدة فى العضوية والبناء ، ومع ذلك ففى العصر البويهى كانت هذه الأخويات ماتزال غير شائعة ، وكانت نظيراتها قليلة فى المجتمع حولها ، وهناك فرق فى التأكيد والأسلوب - فحسب - لكن هذا الفرق واضح للغاية ويشكل جزءاً من افتتان المؤرخين الاجتماعيين بهذا الموضوع .

وكان المجتمع البويهى يتميز برسمية روابط معينة بين الأفراد ، وعدم رسمية الروابط داخل الجماعات التى لا تشكل مركبات للروابط بين الأفراد ، وفيما يلى وصف للعالم الأخلاقى الذى يمكن فيه لمثل هذه الروابط أن توازن وتدعم نظاماً اجتماعياً مرناً ومتجديداً بشكل ذاتى من خلال الولاء والالتزام والقيادة ، ويتناول الفصلان الثانى والثالث أشكال الولاء والالتزام ؛ التى جعلت إيجاد هذا النظام الاجتماعى المرناً أمراً ممكناً فى العالم الأخلاقى كما فهمه رجال العهد البويهى ، ويناقش الفصل الثانى الولاءات المكتسبة وأشكال الالتزام التى اكتسبها الرجال عن طريق الأعمال المدروسة وليس من خلال انتماء أولئك الرجال لفئة من الفئات ، وقد شكلت مثل هذه الولاءات المكتسبة روابط كان يراد لها أن تعمر أكثر مما يعمر الناس الذين اشتركوا فيها . والواقع أن الولاءات المكتسبة فى الغالبية العظمى من الحالات قد زالت بزوال من اكتسبوها . ويناقش الفصل الثالث ولأى الطبقة ؛ تلك الولاءات التى أحس الرجال بأنهم مدينون بها لبعضهم البعض نظراً لمشاركتهم العامة فى الطبقات التى كانت قائمة قبل مولدهم ، وستظل قائمة بعد وفاتهم ، ويتناول هذا الفصل أيضاً تنوعات القيادة ووظائفها فى مثل هذه الطبقات ، ويتناول الفصل الأخير نوعاً مختلفاً للقائد وهو

الملك ، ويشير إلى السبب فى أن الملوك رغم وقوفهم خارج الطبقات التى ناقشناها سابقاً ربما كان وجودهم أمراً ضرورياً للنظام الاجتماعى ككل ، وتحاول بقية هذا الفصل إعطاء فكرة عن الإطار التاريخى الذى يجب من خلاله فهم الأمثلة التى تسوقها الفصول التالية .

وقد أدى النبى محمد ﷺ حجته الأخيرة إلى مكة قبل وفاته بعامين تقريباً فى ٦٣٢/١١م، وفى تلك المناسبة ألقى خطبة مؤثرة غالباً ما يستشهد بها أتباعه قال فى سياقها طبقاً لأحد المصادر : " لقد منح الله العالم حافظين ، كتابه (القرآن) والسنة ( أى القدوة ) سنة نبيه (محمد)". وطبقاً لمصدر آخر قال محمد ﷺ : " لقد منح الله العالم حافظين : كتابه ، وآل نبيه " ، وإذا جمعنا بينهما نجد أن هاتين العبارتين تحويان كافة المكونات الأساسية لوصية محمد ﷺ للحياة السياسية المستقبلية لمجتمعه : القرآن وآل محمد و قدوة محمد ، ومع ذلك فقد ظل الخلط الصحيح لهذه المكونات موضعاً لخلاف محتدم - وأحياناً مرير - بين المسلمين ، وقد عكست الخلافات حول النسبية تنوع المواقف السياسية بين المسلمين ، والتى نشأت فى الثلاثمائة عام بين وفاة محمد ، ونشأة الأسرة البويهية الحاكمة (٣) .

وحتى قبل أن يقود مجتمعاً سياسياً فقد كان واضحاً لمحمد أن الرؤية الأخلاقية للإسلام لها مضامينها السياسية ؛ فقد كان الإسلام ديناً ينظر فيه إلى الحياة العامة على أنها مسئولية جماعية للمجتمع ، وقام القرآن بإعطاء التنظيمات التى يجب على المجتمع أن ينهض بالمسئولية وفقاً لها . وعندما كان محمد على مدى الاثنى عشر عاماً الأخيرة من حياته القائد الفعلى لمجتمع سياسى ، فقد تأكد الجانب السياسى للعقيدة الإسلامية وتطور على نطاق واسع .

وعندما توفى محمد لم يعد هناك قائد ملهم إلهياً للمجتمع الإسلامى ، وسرعان ما تفجرت النزاعات حول اختيار قائد جديد ، وقد شغلت هذه النزاعات معظم المؤرخين (الشرقيين والغربيين) إلى حد أنهم قد أهملوا الظهور التدريجى لإجماع ملحوظ بين المسلمين حول مسألة تفوق من حيث أهميتها الأساسية حتى اختيار خليفة لمحمد : ألا وهو إجماع المسلمين فى المراكز الأصلية للإسلام بالجزيرة العربية على أنه يجب أن يكون للمجتمع الإسلامى قائد واحد ، واتفقوا على أن جماعة المؤمنين يجب ألا تنقسم

إلى جماعات سياسية إسلامية منفصلة (مثل الجماعات السياسية المسيحية واليهودية المنفصلة) وألا تقبل شكلاً ما للقيادة الجماعية ؛ كأن يكون هناك مجلس حاكم ، وفى العقد الذى أعقب وفاة محمد أحبط مسلمو الحجاز الحركات الانفصالية فى الجزيرة العربية تماماً ، وبعدها قبلت الغالبية العظمى من المسلمين فى كل مكان ولقرون تلت ذلك فكرة أنه يجب على الأمة الإسلامية أن تتحد سياسياً خلف قائد واحد ، وكانت هذه الوحدة للأمة ولقيادتها متفقة تماماً مع صفة الوحي الإسلامى ، ويرى المسلمون أن الله قد أوحى فى الإسلام قانوناً أخلاقياً لكافة البشر ، وكانت أداة نقل هذا الوحي رجلاً واحداً (محمد) الذى عاش حياة من الامتثال النموذجى لذلك القانون ، وقد حافظ محمد - بوصفه الأداة الوحيدة لنقل الوحي والقوة الخالصة - على وحدة الأمة تحت قيادته المفردة ، وبعد وفاته كان من الطبيعى تماماً أن يشعر المسلمون بأنه يجب الاقتداء به فى قيادته المفردة .

واتفقت جماعة المسلمين - أيضاً - على منزلة القرآن ، وهو "الحافظ" الأول الذى تركه محمد لأُمَّته . والقرآن فى عقيدة المسلمين هو كلمة الله المعصومة ، وقد تعرض الوحي السابق الذى ورد ذكره فى الكتاب المقدس اليهودى والمسيحى للتحريف ، ولم يرد له أبداً أن يبلغ كمال الإسلام ، والقرآن هو الوحي غير المحرف ، ويخبر الله المؤمنين فى القرآن نفسه قائلاً لهم : **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي** (سورة المائدة آية ٣) . لكن القرآن ناقش القيادة بلغة عامة ، ولم يعط إشارة مباشرة إلى الكيفية التى يجب اتباعها لاختيار قائد جديد على الرغم من أن المفسرين المتأخرين قد وضعوا تفسيرات كثيرة ومتضاربة لمضامين الآيات القرآنية حول هذه المسألة ، وإذا لم يكن اتفاق الأمة الإسلامية على منزلة القرآن قد وضع حلاً للمشكلة الأساسية للخلافة فى القيادة ، فقد كفل الأهمية الرئيسية للقرآن للثقافة الإسلامية . فلا بد أن يتضمن أتم وحى شيئاً ما وثيق الصلة بهذا الشأن لكل موقف إنسانى ، وقد سعى معظم المفكرين الإسلاميين إلى إيجاد علاقة ما بين أفكارهم ، ومحتويات القرآن ، كما أنه من المهم لأغراض هذا الكتاب ملاحظة الصياغة اللغوية التى يمكن أن تقوم على تقليد متبع فى الكتاب المقدس ؛ حيث يقع نص ثابت فى قلب دراسة دينية ، وفى المجتمع الذى يتناوله هذا الكتاب جاءت صياغة اللغة التى عقدت فيها الروابط

الشخصية ؛ ومن ثم تم وصفها متفقة على نحو يتسم بالوعى مع الرغبة العالمية فى إرجاع المسائل الأخلاقية إلى كلمات القرآن .

وكان الحافظ الثانى الذى تركه محمد للأمة الإسلامية سنته النبوية ، وإذا كان هناك اتفاق واسع الانتشار حول أهمية السنة، فقد كان هناك اختلاف واسع الانتشار على نحو مساوٍ حول محتوياتها . وكلمة سنة تعنى الممارسة المعتادة ، وفى سياق خطبة محمد المستشهد بها سابقاً تعنى الممارسة التى أقامتها قدوة محمد ( وإلى حد أقل عن طريق أقرب صحابته إليه والذين يفترض أنهم تأثروا به إلى أقصى درجة ) . وربما كان من الممكن مقارنة القرآن باللوجوس (كلمة الرب) المسيحى فى دوره وكماله الطبيعى فى الماضى ، ولكن القرآن لم يشرع مباشرة لكل الظروف ، والقرآن كتاب وليس شخصاً ، وكان محمد المثال الكامل للمسلم ، وإذا كانت أسوته هادياً ومرشداً لا غنى عنه تقريباً لحياة المسلم واجعل المفاهيم الضمنية للقرآن واضحة جلية .

وعرفت هذه الأسوة للأجيال اللاحقة من خلال الحديث ، وغالباً ما تترجم كلمة حديث فى الإنجليزية على أنها ( تقليد Tradition ) وتفسر على أنها تقرير لقول أو فعل لمحمد . لكن الحديث يعنى ما هو أكثر من هذا ، فهو مجموعة الروايات لما قاله وفعله محمد ، وما تم عمله فى حضوره ولم ينه عنه ، حتى أنه يتضمن بعض أقوال وأفعال صحبه المقربين . والواقع أن الحديث هو كل المادة التاريخية المتاحة لإثبات السنة . ومن قبيل التشابه أيضاً مع المسيحية يرى كثير من المسلمين أن الأناجيل هى شكل للحديث المسيحى عن يسوع (٤) .

ولذا كانت السنة "حافظاً" للأمة إلى حد بعيد جداً ، فقد منحت الأمة الإسلامية وسيلة نشر لتعاليم الإسلام ، واتخذت وحدة كامنة فى هذه التعاليم ، وقد اتخذت هذه الوحدة ليس فقط حاجة النظام الروحى والأخلاقى واسع النطاق إلى درجة ما من التوافق بين أجزائه ، ولكن أيضاً لأن تعظيم السنة كان يعنى أن مثل هذه الانتشارات سوف ترد إلى مصدر تاريخى واحد ، حياة النبى وصحبه المقربين إذا كان ذلك ممكناً بأية حال ، وكانت الأولوية لدراسة القرآن على دراسة الحديث ، لكن من نظر فى أول تفاسير باقية للقرآن يعلم أن الجزء الأكبر من مثل هذه التفاسير كان يتألف من الحديث فى القرنين الإسلاميين : الأول والثانى، وعندما تم الجمع بينهما أتاح دراسة

القرآن والحديث مزيداً من الوحدة لبؤرة الاهتمام للثقافات الإسلامية المستقبلية نظراً لأن فقه اللغة العربية قد تطور إلى حد كبير من منطلق الرغبة في فهم اللغة الصعبة أحياناً والموجزة غالباً للقرآن والحديث . ونتيجة لذلك فأينما كان هناك مسلمون من أهل العلم فقد تعهدوا ما يسمى بـ " العلوم العربية " بالعناية والرعاية باعتبارها جزءاً مكملًا للعلم الدينى .

ولم يكن من الممكن لكم من المادة بهذه الأهمية والضخامة أن يغفله التاريخ ، فقد أظهر الحديث للعيان ما كان يعتقد عامة أنه افتراءات وأكاذيب ، وتطور علم أو "معرفة" الحديث الذى كان يدرس صحة الأحاديث تدريجياً ولكن بإحكام متزايد يوماً على مدى القرون الأربعة الأولى من العهد الإسلامى، وكان الحديث المكون الرئيسى "للعلم" الدينى . وهكذا كان العلماء ذور العلم الدينى أرفع درجة من كافة علماء القرآن والحديث . وقد اشتمل علم الحديث على دراسة واعية لتسلسل أو إسناد الرواة الذين تم تناقل الحديث عن طريقهم من أحد صحابة محمد إلى جيل العالم ، ومن المرجح أن التجمعات لنقل الحديث كانت أكثر المناسبات شيوعاً حيث كان العلماء يجتمعون سوياً فى اجتماعات رسمية، ويبدو أن أهمية دراسة الحديث بين العلوم الدينية قد نقصت فى القرن الخامس الإسلامى فقط ، وكانت الأسانيد فى ذلك الوقت قد أصبحت طويلة على نحو لا يحتمل وكان هناك إجماع متزايد على أن مجموعات الأحاديث المكتوبة موثوق بها ، وعلاوة على ذلك كانت العلوم الدينية الأخرى قد تطورت تماماً بصورة أكبر ؛ وعلى سبيل المثال فقد تم استخلاص المضامين أو المضامين الكاذبة لحديث خاص بالفقه فى كتب الفقه ، ومع ذلك فربما كان هناك تضافر بين كثير من الفقه والحديث فى بدايتهما ، وكان بإمكان العلماء بالكاد - خاصة إذا كانوا يريدون مهنة تتصل بالفقه - دراسة موضوعهم دون جعل كتب الفقه شاغلهم الرئيسى .

وكان "الحافظ" الثالث آل محمد ، ولم يكن أى من الحافظين الآخرين سبباً لكثير من الخلاف مثلما كان هذا ، واعتقد البعض أن محمداً أراد لأسرته أن تخلفه فى قيادة الأمة ، ورأوا فى هذا الحافظ الفهم الصحيح الوحيد للقرآن والسنة ، ذلك أنه كيف يمكن أن يكون هناك اتفاق فى تفسير القرآن والسنة دون القيادة (ربما المعصومة) لأحد أفراد هذه الأسرة ؟ ! ورأى آخرون فى هذا الموقف الشرعى إنكاراً للأساس المنطقى للسنة كاملة . وإذا كانت السنة أسوة محمد كما أخبر عنها أصحابه المقربون وأكدتها الأعمال التالية لهؤلاء الصحب ، فكيف يمكن لأى امرئ أن يزعم أن روايات

وأعمال هؤلاء الصحب يجب ألا يلتفت إليها أساساً إذا لم يؤكدتها التفسير وأسوة القادة من آل محمد ؟ !

وعند وفاة محمد اتجهت نظرية القيادة التي تمحورت حول آل محمد إلى علي ابن عم محمد وصهره علي أنه الخليفة الذي لا خلاف عليه للنبي ؛ فقد كان علي واحداً من الأوائل - ربما كان أول الرجال - قبولاً لرسالة محمد ، وعلاوة على ذلك فقد كان علي صهر محمد من خلال زواجه بفاطمة ، وكان أبا لحفيدي محمد الوحيدين الحسن والحسين اللذين قدر لهما أن يبلغا مبلغ الرجال . ومع ذلك فعند وفاة محمد لم تقبل غالبية المسلمين النظرية التي تمحورت حول آل محمد ، وقال مؤيدو آل محمد إنه لما كان أصحاب محمد الآخرون يريدون القيادة فقد أثر هؤلاء الأصحاب تجاهل دعاوى علي الواضحة ونية محمد الصريحة المعلنة أنه يجب أن يتولى نسل علي أنفسهم القيادة.

وعلى العكس لم تعتقد غالبية المسلمين بأن محمداً قد اختار علياً بوضوح كخليفة له ، أو أن علياً كان اختياراً يفوق الآخرين من أصحاب محمد المقربين بوضوح ، ولم يلح علي في المطالبة بحقوقه ، ولكن بعد مقتل الخليفة الثالث قبله كثير من المسلمين كخليفة جديد ، ومع ذلك فقد كان موت سلف علي إيذاناً ببداية أول حرب أهلية في الإسلام . وتم الزج بـ " علي " في هذه الحرب الأهلية دون أن تكون لديه القدرة على إنهاؤها ، وقتل علي بدوره في ١٤هـ / ٦٦م وزالت الخلافة من فرعه من آل محمد .

واستمر المنحدرون من نسل علي أو العلويون - كما سوف يطلق عليهم فيما بعد- يلعبون دوراً مهماً في العالم الإسلامي ، وحتى أولئك الذين رفضوا حق علي في المطالبة بأن يعين خليفة لمحمد كانوا يجلون العلويين ؛ نظراً للروابط الأسرية التي كانت تميز أسلافهم . والواقع أنه نظراً لأن معظمهم كان ينحدر من نسل الحسن والحسين ولدى علي وفاطمة ، فقد كانوا من خلال أمهما منحدرين مباشرة من نسل محمد نفسه . واعتبر معظم المسلمين أنه واجب ديني إظهار علامات احترامهم العظيم للعلويين ، تلك العلامات التي كانت تشمل أحياناً الهبات المالية ، ولذا فحتى العلويين الذين لم يطالبوا بأي حق خاص في الخلافة كانت لهم أفضلية معينة في طلب السلطة السياسية ، وقد ظل هناك كثير من الملوك العلويين في التاريخ الإسلامي من بينهم الملك الحسن ملك المغرب والملك حسين ملك الأردن . ويقول الحديث النبوي : " كل صلة نسب وقرابة تقطع

يوم البعث إلا صلتى"، وسوف نناقش هذه الصلة ثانية فى الفصل الذى يتناول ولاءات الطبقة (٥) .

وعلى الرغم من أن العلويين كانوا موجودين دائماً فقد كانوا ينظرون إلى شرف نسبهم ليس كبؤرة ممكنة لإجلال المسلمين الآخرين ، ولكن كحق إيجابى فى المطالبة بولائهم السياسى، وكان يطلق على أنصار هؤلاء المطالبين العلويين شيعة على أو "حزب على" ؛ ومن ثم أصبحوا يعرفون للمسلمين بالشيعة ، وكان مذهب الشيعة يقوم فى بادئ الأمر على ادعاء سياسى ، وبالنسبة لأحد فروع الشيعة وهم الزيدية استمر الادعاء السياسى أهم عنصر للعقيدة التى تميزهم عن غير الشيعة ، ويعتقد الزيدية أن أى علوى يطلب قيادة الأمة الإسلامية شخصياً وعسكرياً يتوافر لديه العلم الدينى اللازم للقيادة يمكن أن يكون الخليفة. وكان حكام شمال اليمن من الأئمة من أمثال هؤلاء القادة ، وتقر النظرية الزيدية بأنه يمكن لثنين أو أكثر من العلويين المطالبة بتولى القيادة فى آن واحد، ولكن مع الحفاظ على مبدأ الحكم الموحد بحيث إنه إذا تقاربت أراضى القائدين العلويين الزيديين بما يكفى لأن يتماسا فعلياً فلا بد لأحدهما أن يتنازل - أو يجبر على التنازل - عن القيادة لصالح الآخر .

ويبدو أن هذه الادعاءات السياسية كانت أهم عنصر فى مذهب الشيعة فى أول عصر إسلامى . لكن المطالبة بتولى القيادة الروحية سرعان ما أصبحت ذات أهمية رئيسية لجماعة كبيرة من الشيعة ، وكما ذكرنا من قبل فقد أتاح مثل هذه الادعاءات للشيعة الاحتفاظ برؤية موحدة للحياة الدينية عن طريق جعل قائد علوى واحد المعيار الرسمى الموثوق لتفسير المسائل الشرعية ، والسياسية ، والغيبية ، وكافة المسائل الأخرى. وكان من الطبيعى أيضاً أن تؤكد بعض فروع الشيعة على القيادة الروحية لقاداتهم؛ ذلك أن القيادة السياسية الحقيقية ظلت فى أيدي غير الشيعة فى معظم الأحيان؛ ولذا توصل كثير من الشيعة إلى التمييز بين الخلافة « القيادة السياسية الفعلية » والإمامة « الحق النظرى فى القيادة » . ويقف المسلمون فى صلاتهم اليومية الجماعية خلف إمام يقودهم ويكون النموذج لحركاتهم ، وحيث لا يكون هناك إمام معين رسمياً من قبل الحكومة يفترض لأية جماعة من المسلمين أن تدعى "للأفضل" بينهم كإمام ، وكان القائد عموماً ذو السلطة والنموذج للأمة الإسلامية - من وجهة نظر الشيعة - علوياً ويطلق عليه أيضاً إماماً بهذا المعنى الأكثر خصوصية ، واعتقد الشيعة أيضاً أن الإمام يجب أن يكون خليفة على الرغم من أن الظروف قد تحول بينه وبين

بلوغ هذا المنصب ، وحتى إذا أمضى حياته فى ظلام لا ينقطع فقد كان الإمام ذلك الشخص الذى وهبه الله - لأى عصر - السلطة الحقيقية الوحيدة للحياة الروحية والسياسية فى عصره من وجهة نظر أتباعه .

وبعد بضعة أجيال كان هناك مئات من المنحدرين من نسل على ، ولو أنه كان من الممكن لواحد منهم فقط أن يكون الإمام ( وكان المأمول أن يكون الخليفة ) فأى منهم يجب أن يكون ؟ وكما رأينا فقد كانت إجابة الزيدية واضحة ومحيرة - فالإمام كان أى علوى متعلم وناجح عسكرياً فى المطالبة بالقيادة ؛ لكن الشيعة الآخرين أكدوا بصورة أكبر كثيراً من الزيدية على دور الإمام كمفسر رسمى موثوق ولذا فقد سعوا إلى تفسير وجود هذه السلطة كنتيجة لشيء ما أكثر من مجرد المبادرة الفردية، وأحس معظم الشيعة - بخلاف الزيدية - أن الإمام العلوى يمكن تحديد هويته نظراً لأنه قد ورث منزلته مباشرة و / أو اختير تحديداً من قبل سلفه.

ومع ذلك فأى من هذين المبدئين لا يمكن أن يحدث اتفاقاً بين الشيعة غير الزيدية، وكانت الوراثة أمراً أساسياً للادعاء الكلى للعلويين ، وتسلسل نسب الأئمة المعترف به على أوسع نطاق من قبل الشيعة اليوم هو نسب عادة ما انتقلت فيه الإمامة إلى أكبر الأبناء سناً ، ورغم ذلك لم يكن مبدأ البكورة - كون الابن بكر أبويه - بالقوة الكافية أبداً فى الشرق الأدنى الإسلامى ، وحتى فى تسلسل النسب هذا المعترف به على نطاق واسع فقد انتقلت الإمامة من الحسن (أكبر أبناء على من فاطمة ابنة محمد) إلى الحسين (ثانى أكبر أبناء على من هذه الأم )، وأثبت التعيين المحدد أنه مجرد وسيلة لا يعتد بها لضمان خلافة غير متنازع عليها ، وقد احتفظ معظم المطالبين العلويين بالإمامة من غير الزيدية بمثل هذه الادعاءات سرراً أو كان لديهم على الأقل من الحكمة ما يكفى لحملهم على عدم مناقشتها علانية ؛ ذلك أن هذه الادعاءات كانت تنطوى على تحدٍ للقيادة غير الشيعية القائمة خاصة الخلفاء من غير العلويين ، ولذا لم يتم التعيين المحدد علانية أبداً تقريباً ، وكان من العسير إثبات ادعاء أى معين مفترض ، ونظراً لأن معظم مثل هذه التعيينات يبدو أنه قد تم شفاهة من قبل الإمام المحتضر فى ساعاته الأخيرة ، فقد كانت صحتها موضع شك بشكل حتمى تقريباً بالنسبة لبعض الأتباع الذين لم يكونوا حاضرين .

ولذا ليس بالمدعش أن يختلف الشيعة غالباً بشأن من كان إماماً من العلويين ، كما أنه ليس بالمستغرب أيضاً أنه كثيراً ما يحدث بعد وفاة الإمام الظاهرة أن يعتقد بعض أتباعه إما أنه لم يمت حقاً أو أن خليفته يعيش فى سرية تامة حتى أن أولئك المقربين منه لا يعرفون مكانه ؛ وقد لقي المدعون العلويون هزائم متكررة ومكن الله لخصومهم الاستمرار فى السلطة ، ولذا لم يدهش بعض الشيعة على الإطلاق لسماع أن إمامهم لم يمت لكنه اختفى وسوف يظهر ثانية فى آخر الزمان ؛ كى يصبح بعون الله القائد الفعلى للأمة الإسلامية .

وقد حدث أهم مثال لمثل هذا القطع فى تسلسل نسب الأئمة المرئيين فى عام ٢٦٠ هـ / ٨٧٣م عندما توفى الإمام الحادى عشر على التوالى من نسل على عن طريق الحسين فى العراق ، واعتقد بعض أتباعه أن ابنه الطفل خلفه وهو الإمام الثانى عشر الذى اختفى ليعود فى شخص المهدي ، وأطلق على الشيعة الذين ينتظرون عودة هذا الإمام الثانى عشر "الاثنا عشرية" ، وقد حول الاثنا عشرية ولاهم من إمام مرئى إلى إمام غائب غير مرئى فى مرحلة حاسمة من مراحل التاريخ الإسلامى عندما - وكما سوف نرى - قضت الانقسامات على الوحدة السياسية للأمة الإسلامية إلى الأبد ، وكان الخلفاء - الذين كانوا مايزالون يحكمون قلب الإمبراطورية السابقة - يجرى قتلهم على أيدي حرس قصورهم من الأتراك ، وكان الوقت مناسباً والفرصة مواتية كى ينحى الاثنا عشرية طموحاتهم فى السلطة الدنيوية جانبا ، وعلاوة على ذلك فقد كانت رغبة المسلمين من غير الشيعة فى التسامح مع الاثنى عشرية تفوق رغبتهم فى التسامح مع معظم الجماعات الشيعية الأخرى خاصة إذا لم يكن لدى الاثنى عشرية مرشح حالى للخلافة بشكل مباشر . ويذكر أن غالبية سكان إيران وجنوب العراق فى الوقت الحاضر من الاثنى عشرية .

وبينما كان الشيعة المحرومون من السلطة يضعون مجموعة متنوعة من النظريات السياسية ، كانت الأحداث التاريخية آخذة فى صياغة النظرية السياسية لغير الشيعة . وسوف ينظر المسلمون فى وقت لاحق إلى الوراء ويطلقون على هؤلاء المسلمين الأوائل من غير الشيعة السنة أو أهل السنة كما سوف يطلق على معظم المسلمين من غير الشيعة فى فترة لاحقة ، ومع ذلك فقد كانت هناك جماعتان من المسلمين فى المجتمع المسلم الأول وهما : الشيعة ، والخوارج الذين تشددوا فى اتخاذ مواقف محددة بشأن

تولى الخلافة. وبالنسبة للمسلمين الآخرين جرت الأحداث أسرع من النظرية وكانت نظريتهم إلى حد كبير تفسيراً للأحداث ورد فعل للنظريات السياسية للشيعية والخوارج. ولم يحدث إلا في وقت لاحق فقط أن أصبحت هذه النظرية الأقل تحديداً بشكل جيد أساساً للتحديد الذاتى الطائفى الواعى ، وكان مذهب أهل السنة - وهى الطائفة الإسلامية التى تضم الغالبية العظمى من المسلمين اليوم - الحل التاريخى للمشكلات التى أحدثتها وفاة محمد ، ولم ينشأ شكل هذا الحل التاريخى إلا عندما عاشت الأمة الإسلامية عبر تجربة تاريخية طويلة بشكل كاف .

وفى اليوم الذى توفى فيه محمد وبعد نقاش محتدم انتهى اجتماع حاشد عقد فى المدينة عاصمة محمد إلى اختيار أبى بكر خليفة له ؛ وعلامة على اختيارهم فقد أقسم كل منهم بالبيعة وهو قسم الولاء لأبى بكر ، وكان لأبى بكر مقدار من السلطة بين المسلمين نظراً لصداقته الطويلة جداً والحميمة مع محمد ؛ فقد كان على سبيل المثال حمو محمد وعينه النبى كى يكون إماماً للصلاة مكانه أثناء مرضه. ولا يقل عن ذلك أهمية كون أبى بكر أحد أفراد قبيلة قريش وهى القبيلة التى حكمت مدينة مكة القرية . وكانت مكة أهم مدينة فى المنطقة ؛ ولم تكن قد انضوت تحت لواء الإسلام إلا مؤخراً . وقد مارست القيادة بين قبائل المنطقة على نحو تقليدى ، وعندما سمع أهل مكة فى اليوم التالى بأن أخامكياً لهم من قريش قد اختير خليفة قبلوا الاختيار ، وقد أصبحت هذه الأحداث التاريخية فيما بعد نقاط مرجعية أساسية للنظرية السياسية لأهل السنة.

وفى المدينة تلت ذلك عدة اختيارات أخرى للخليفة بالنقاش و/ أو التهليل ؛ وكان ذلك إجراءً مألوفاً ومعروفاً دأبت على اتباعه القبائل العربية فى الإسلام وأقرته آية وردت فى القرآن تقول (وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ (سورة الشورى آية ٣٦ ، ٣٨) ، ولم تظهر أية سابقة واضحة لمنهج الشورى فى هذه الاختيارات الأولى للخليفة ، وسرعان ما أقحم العالم الإسلامى فى حرب أهلية انتهت بعد مقتل على بانتصار الأمويين ؛ وهم عشيرة من قريش قبيلة محمد ، وأقام الأمويون أول ولاية وراثية ناجحة للخلافة على الرغم من أن حقهم فى هذه الولاية كان مثار خلاف وجدل .

وأخيراً وفى الثلاثينيات من القرن الثانى من التاريخ الإسلامى أوقعت أسرة أخرى من قبيلة قريش - وهم المنحدرون من نسل العباس عم محمد - الهزيمة

بالأمويين وتولوا شرف الخلافة ، ومن عاصمتهم فى بغداد حكموا - وبشكل فعلى - سائر العالم الإسلامى عدا إسبانياً التى وقعت فى يد أحد الأمويين ، وحاول العباسيون كسب تأييد العلماء عن طريق رعايتهم الشاملة للعلم الدينى ، وحتى إذا لم يكونوا قد زعموا العصمة التى نسبت إلى كثير من الزعماء العلويين ، فقد كان العباسيون يأملون فى أن يتم قبولهم كمرشدين روحيين للمجتمع الإسلامى، وعلى الرغم من تأييد الخلفاء المتذبذب للآراء المتضاربة حول استقامة الرأى ، فقد رفضت الغالبية العظمى من المسلمين منح الخلفاء العباسيين أية سلطة خاصة لتنظيم مثل هذه الأمور ، ومع ذلك فقد جعلت رعايتهم للعلم واستخدامهم الذى كان يتسم بالتباهى والتفاخر للرموز الدينية من الخلافة العباسية نفسها رمزاً دينياً ؛ ولذا فكما سوف نرى فقد دافع المسلمون الذين فقدوا كل رغبة فى طاعة العباسيين - رغم ذلك - عن المبدأ القائل بأنه يجب الإبقاء على الخلفاء العباسيين حتى وإن كانوا مجردين من السلطة التنفيذية كرمز للحكومة الشرعية ، ووحدة المسلمين.

وكان فقد العباسيين للسيطرة الفعلية على إمبراطورية امتدت من الأطلسى إلى آسيا الوسطى أمراً مذهلاً حقاً ، والمذهل أكثر تكرار الاتفاق بين العباسيين ومغتصبى أراضى إمبراطوريتهم على تغطية كل خسارة بتوهم احتفاظ الخليفة بالسيادة النظرية الكاملة على الإقليم فى الوقت الذى يمنح فيه السيطرة الفعلية للمغتصب ، وكرمز لهذه السيادة كان الحاكم الفعلى - وغالباً ما كان يطلق عليه أمير أو قائد - يأمر بذكر اسم الخليفة العباسى الحاكم فى صلاة الجمعة وعلى العملة ، وبحلول القرن الرابع هـ/ العاشر م أطلق هؤلاء الحكام - ومنهم البويهيون - على أنفسهم "الملوك" (ومفردها ملك) ؛ وهو لقب كان يستخدم فى فترة ما قبل الإسلام ، ونظراً للتداعيات الوثنية للملكية فقد سعى الخلفاء دوماً لفصل أنفسهم عن هذا اللقب ، وظلت الملكية و الخلافة كائنين منفصلين ، وفى مقابل الاعتراف الذى يقدمه الأمير غالباً (وليس بشكل ثابت) ما كان الخليفة العباسى يرسل إليه وثيقة رسمية يمنح الأمير بموجبها الحق فى حكم أقاليمه وأراضيه ، ومن بين الكثير من المزايا التى يقدمها هذا التبادل للرسميات أنه كان يعترف بالاتفاق المتواصل لمعظم المسلمين على المبادئ التى قد سادت عقب اختيار الخليفة الأول أبى بكر ، والمقصود بذلك هو الاتفاق على ألا يكون هناك ، وأنه لا يمكن أن يكون هناك تعددية للأمم الإسلامية ، فكانت هناك أمة إسلامية واحدة وتحديداً وحدة لجميع المسلمين ، وكان رمز وحدتها قائداً واحداً ، وهو خليفة النبى .

وإذا كان الحاكم الرمز الشخصى لوحدة الأمة الإسلامية ، فإن المبدأ الذى كان يرمز للرغبة فى الوحدة كان الإجماع أو الاتفاق ، وقد أجمع كل من الشيعة وتلك الجماعات التى أطلق عليها فيما بعد أهل السنة على صحة الحديث الشهير القائل : " ما كان لأمتى أن تجتمع على باطل أبداً " ، وقد سبقت نظرية معظم الجماعات الشيعية على نحو ما إلى توقع الحاجات السياسية الأساسية للأمة الإسلامية ، وأعطت وسيلة دقيقة للوفاء بها بشكل كامل : فقد كانت بحاجة إلى قائد علوى يتم اختياره طبقاً لمبدأ محدد ، واعتبرت هذا القائد أصدق المفسرين للإسلام فى عصره ، واعتقد معظم المسلمين من غير الشيعة أن الله قد أراد لقائد الأمة الإسلامية أن يتم اختياره عن طريق نوع ما من العملية التشاورية. وتجاوز الأمر ذلك الحد ولم يتفقوا على الإجراء الذى سوف يتخذ فى هذه العملية التشاورية أو مدى سلطة القائد الذى يتم اختياره هكذا وأمنوا بالرسالة التاريخية للأمة والتى لن تكون " الإجماع على باطل " على المدى الطويل .

وقد أدرك المسلمون الأوائل أن الإنجاز العسكرى للأمة الإسلامية قد قصر قليلاً عن بلوغ الإعجاز ، وبالنسبة للبعض لابد وأن " معجزة " هذه النجاحات كانت دليلاً على أن قيادتهم كانت القيادة الصحيحة المناسبة لتلك الفترة ، وحتى إذا لم يكن مقبولاً كتأكيد لهذه القيادة ، فقد بدا الإنجاز العسكرى للكثير من المسلمين مكسباً قيماً للغاية لا يمكن المخاطرة به فى صراعات ذات عواقب غير مؤكدة من أجل قيادة جديدة ، ولذا فلأسباب عملية ، وللعيش داخل إطار الأمر الدينى بالإجماع فقد قبلوا القيادة التى لم تكن بالضرورة "أفضل" ما يمكن للأمة الإسلامية إفرازه ، وشعروا بأن الوحدة كانت أهم من النقاء والطهارة ، وأنه ما من قائد أو أى فرد آخر يستطيع بمفرده أن يضع القواعد والمعايير للأمة الإسلامية ؛ ذلك أنها كانت امتداداً لمعايير سائر أصحاب محمد المقربين، ولم يكن من الممكن أن يكون واضحاً للمسلمين فى الفترة التى أعقبت وفاة محمد مباشرة كيف يجب على المسلمين التعامل مع التغيرات فى هذه الامتدادات للسنة، ومع ذلك أصبح من الواضح تدريجياً أن الإجماع كان أحد السبل للحكم على مثل هذا التغير ، ولم يكن من الممكن بالطبع لتفسيرات الإسلام التى لم تتح المجال للحكم عليها بالإجماع أن تلقى قبولاً داخل هذا الإطار.

وبوجه عام فقد كان المسلمون الذين تركز تفكيرهم على الإجماع أكثر ميلاً للتضمنين عن الإقصاء ، والإبطاء عن الإسراع ، وظلوا قريبين من روح المقولة الشهيرة للقديس

توماس أكمبس: "العبد فى التفكير و الرب فى التدبير"، وفى مواضع نوقشت على نحو لم يخل من الغموض فى القرآن نجد الناس يعملون ويقترحون الكيفية التى يجب أن يعمل بها غيرهم طبقاً لفهمهم للإسلام : وسوف يقضى حكم الأمة الإسلامية على المدى الطويل بما إذا كانت أعمالهم وأوامرهم نماذج ملائمة للمسلمين مستقبلاً أم لا ، وكان تلقى المبدأ الأخلاقى مشابهاً لتلقى الحديث : فأى امرئ يمكنه التوسع فى معايير الإسلام أو نقل الحديث ، لكن الحكم الجماعى للأمة الإسلامية فحسب يمكنه قبول حديث على أنه صحيح أو الإقرار بأن مبدأ ما من المبادئ يتفق حقاً مع روح الإسلام .

وقد ارتبط هذا الموقف لتركز الفكر على الإجماع من جانب المسلمين مع المصالح السياسية والاقتصادية المشتركة للمسلمين زمنياً طويلاً ، وعلى مدى أكثر من قرنين من الزمان كان المسلمون أقلية فى إمبراطوريتهم الجديدة ، وكان قانونهم وعلمهم الدينى (لاهوتهم) بادئ الأمر بعيدين عن كونهما محكمين بصورة كاملة ، وعلى وجه أكثر تحديداً فقد كان لديهم - كما رأينا - مبادئ عامة للغاية فقط كى ترشدهم فى وضع نظرية دستورية، وبطبيعة الحال ظهرت عدة مواقف شرعية ولاهوتية (متصلة بالعلم الدينى) فى هذه القرون الأولى . وإذا كانت الأحزاب قد نجحت فى إقناع غالبية المسلمين أنه لا بد لهم من اختيار موقف والنضال من أجل فرض هذا الموقف على غيرهم من المسلمين، فمن المحتمل أن تكون الإمبراطورية الإسلامية قد تقلصت وتراجعت إلى الوراء حيث مجاهل الجزيرة العربية التى خرجت منها، وأقرت الأقلية المسلمة ذات الامتيازات بمصالحها المشتركة بما يكفى تماماً لأن تبقى وتزدهر .

وعلاوة على ذلك فالإسلام من وجهة نظر معظم أتباعه دين يعنى باستقامة التطبيق العملى أكثر من استقامة الرأى والمعتقد ؛ فهناك أربعة من خمسة "أركان" للإسلام غالباً ما يتم حصرها على أنها المبادئ الأساسية للدين الإسلامى، وهى أشياء يجب على المرء القيام بها وليس أفكاراً يجب على المرء الإيمان بها، والحفاظ على أمة إسلامية موحدة طالب المسلمون الذين تركّز تفكيرهم على الإجماع بتوحيد الأعمال العامة المطلوبة من المسلمين فى القرآن وتجنب التعارض الصريح مع التعاليم الواضحة للقرآن . وبالنسبة للباقيين فعادة ما كانوا يسمحون بالتغيير ، ولم يسعوا إلى توقع حكم التاريخ مسبقاً .

ومن خلال الحكم الجماعى للأمة الإسلامية - وخاصة العلماء - أصدر التاريخ حكمه ببطء ولكن على نحو يتعذر تغييره ، ولم يكن هناك آنذاك ولم يحدث أبداً منذ ذلك

الخين أن كان هناك إجماع حتى على منهج الإجماع ، فهل كان الإجماع بين أهل المدينة أو بين العلماء أو بين جميع المسلمين ؟ وتوضح نشأة آراء مقبولة على نطاق واسع رغم غموض وقابلية تعريف الإجماع للتغير كيف كان المسلمون عازمين بقوة على الاحتفاظ بدرجة ما من الوحدة ، وغالباً ما كان هذا الإجماع يتحقق بفضل السماح بأن يكون هناك تنوع محدود للمواقف على نحو مقبول بشأن مسائل معينة، وهكذا نشأت المذاهب الفقهية المختلفة التي توصل كل منها إلى قبول الآخر (على مضمض أحياناً) .

وكان العلماء المنشغلون بالإجماع قادرين على الاحتفاظ بالإحساس بأنهم كانوا يعملون داخل إطار تقليد مشترك فقط عن طريق نظرات عجل متواصلة إلى الوراء إلى نهج معين لذلك التقليد الذي كانوا يتوسعون فيه ويطورونه ، ومن ثم كان التعاطف القوى من جانب كل مذهب من المذاهب القابلة للتوسع والتطوير نحو مؤسسيه ، ونحو أصحاب محمد الذين أصبحت ممارساتهم وعاداتهم مرجعاً مشتركاً لهذه المذاهب، وقد زاد هذا التعاطف بشكل فعلى مع تراجع عهد الصحابة في الماضي البعيد وفي الوقت الذي أصبحت فيه دراسة الحديث علمية على نحو أكثر إحكاماً وتوسعاً في محاولاتها لربط كل حديث بأحد الصحابة المعروفين .

ولم يتسن للإجماع أن يخلق مواقف مميزة للمسلمين الذين تركز تفكيرهم على الإجماع إلا بعد تجربة تاريخية جديرة بالاهتمام ، وكان الاتفاق بشأن مجموعة الأحاديث الصحيحة والسنة في أدق معانيها عنصراً أساسياً في نشأة مذهب محدد لأهل السنة ، لكن مثل هذا الاتفاق كان بطيئاً في المجيء ؛ وعلى سبيل المثال فمن بين الكتب الستة للحديث التي من المفترض أنها صحيحة ومعترف بها لدى أهل السنة نجد أن سنن ابن ماجه (المتوفى في ٢٧٣ هـ / ٨٨٧ م) بدأ قبولها على أنها صحيحة في القرن الخامس الهجري فقط ، ويبدو أن مسلمي شمال أفريقيا لم يقبلوا بصحتها أبداً ، ورغم ذلك فقد ظلوا من أهل السنة سواء من وجهة نظرهم الخاصة أو من وجهة نظر مسلمي الشرق الأدنى، وفي تناوله للحديث - كما هو الحال في الكثير جداً من الجوانب الأخرى - فقد ظهر مذهب أهل السنة الأكثر تحديداً والطائفي بشكل واضح لدى الأجيال اللاحقة تدريجياً فقط ، وكان بعيداً عن كونه موسعاً ومتطوراً بشكل كامل في الفترة التي يتناولها هذا الكتاب (٦) .

وتتمثل إشارة أخرى مفترضة لمذهب محدد لأهل السنة في العقيدة القائلة بأنه كانت هناك أربعة مذاهب فقهية فحسب مقبولة لدى أهل السنة ؛ وتقوم هذه العقيدة على الجدل بشأن توقف الحق الفردي في جلب أفكار جديدة إلى الفقه الإسلامى عن طريق تفسير القرآن والحديث وذلك في أواخر القرن الثالث عندما توفى مؤسسو المذاهب الأربعة ، وحفنة من أهم أتباعهم ، وبعبارة فقهاء المسلمين التقليدية فإن "باب" التفسير الفردي قد أغلق، وبينما من الصحيح أن فقهاء المسلمين في أواخر القرن الثالث هـ / التاسع م كانوا مقتنعين بشكل متزايد بأنه لم يعد هناك مجال للتفكير الفردي بشأن الفقه ، فمن الصحيح أيضاً أنهم لم يكونوا متفقين على أى من هذه المذاهب القائمة الصحيح ، ولم يُقدر لهم أن يتفقوا على مدى قرون ، وفي سوريا كان المذهب الفقهي للأوزاعي السائد حتى نهاية القرن الرابع الهجرى وظل قائماً في القرن الخامس ، وما من شك في أن أتباعه اعتبروا أنفسهم مقبولين على نطاق واسع على أنهم من أهل السنة ومع اختفاء مذهبهم لم يكن من الممكن اعتباره ضمن المذاهب الأربعة الصحيحة ، وتأسس مذهب داود بن علي بن خلف (المتوفى عام ٢٧٠هـ) أو مذهب الظاهريين ومذهب الطبري (المتوفى عام ٣١٠هـ) خلال أو بعد وقت قصير من الفترة التي أغلق فيها باب التفسير الفردي ، وقد وجد كلا المذهبين مؤيدين نوى نفوذ في القرن الرابع ، واعتبر أتباع المذهبين أنفسهم وغالباً ما تم قبولهم على أنهم من أهل السنة ، وبحلول القرن السادس كانت هذه المذاهب الفقهية الثلاثة قد اختفت بالفعل ولم يعد لها وجود ، وكما هو الحال بالنسبة لكتب الحديث الستة فإن تعريف الاستقامة السنية الشرعية يعكس مجموعة من الآراء التي نشأت في القرنين الرابع والخامس الهجريين وترسخت في القرن السادس الهجرى .

وفي الوقت الذي أخذ يزداد فيه صرامة حدد مذهب أهل السنة و بآثر رجعى تاريخاً مبكراً في العهد الإسلامى كنهاية الفترة التي كانت فيها أنواع معينة من التأمل الإبداعى مباحة للعلماء المؤهلين ، ويجب ألا نخلط بين الوقت الذي نشأ فيه هذا الرأى والتواريخ التي أختيرت فيما بعد علامة على نهاية عصر كلاسيكى ، وقد اعتقد كثير من المسلمين الذين عاشوا في القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس الهجرى - وهي الفترة التي يتناولها هذا الكتاب- أنهم كانوا يعيشون في فترة لم تنته فيها قائمة المذاهب الفقهية والأحاديث المقبولة ، وبعبارة أخرى فقد كانت فترة كان تعريف مذهب

أهل السنة فيها لا يزال غير ثابت و، كان يميل فيها لأن يكون أكثر شمولاً عما أصبح عليه في الفترات اللاحقة .

ورغم ذلك كان هناك كثير من الأسباب التي أوجبت وجود تحرك دائم نحو تعريف أكثر إحكاماً لما كان وما لم يكن مقبولاً بالنسبة لأهل السنة ، وبمرور الوقت أصبح مذهب أهل السنة صارماً ؛ ويرجع ذلك ببساطة إلى أن الحكم الجماعي للأمة الإسلامية قد أوجد مواقف بشأن عدد كبير من القضايا ، لكن الظروف السياسية للأمة الإسلامية كانت حافزاً أكبر لتحديد الشكل السنّي للإسلام ، وعندما فقد الخلفاء العباسيون سيطرتهم الفعلية على أقاليم واسعة من الإمبراطورية الإسلامية، أصبح من الواضح أنه من غير الممكن للمسلمين الاعتماد على حكومة مركزية للحفاظ على أمة الإيمان بين المسلمين وإمعاناً في خلط الأمور بصورة أكبر كانت معظم النظم الحاكمة الجديدة في القرن الرابع شيعية ، وتأسس معظمها على أيدي رجال من المناطق الخارجية بالشرق الأدنى من البدو أو ساكني الجبال الذين كان اهتمامهم ضئيلاً بالنقاط الدقيقة لدين رعائهم من سكان المدن ، ورأى أهل السنة أنه في وجود حكومات غريبة ومعادية أحياناً يتعين عليهم الاعتماد إلى حد كبير على أنفسهم للحفاظ على إنجازات المسلمين الأوائل الذين تركز تفكيرهم على الإجماع ، ومنع التأمل المنحرف من جذب الأمة وتشثيتها في اتجاهات كثيرة تمزق وحدتها على نحو يتعذر معه الإصلاح ؛ ولذا فقد سعى عدد متزايد من العلماء إلى إيجاد تعريف شامل وواضح لحدود مذهب أهل السنة .

وقد حثهم على بذل هذا الجهد ما كان يقوم به الشيعة الإسماعيليون ، وأهل السنة من الحنابلة من أنشطة، ومقارنة بالإسماعيلية فقد كانت الأشكال الأخرى للمذهب الشيعي معتدلة أيديولوجياً ، وكانت الشيعة الزيدية في معظم جوانبها مشابهة للإسلام السنّي عدا احتفاظها بالإمامة – الخلافة للمنحدرين من نسل علي ، وعن طريق زعمهم أن قائدهم قد اختفى ترك الشيعة الاثنى عشرية المجال المختلط والخطر الكامن في سياسة الخلافة في أواخر القرن الثالث، ورغم ذلك فقد رفض الفرع الإسماعيلي من الشيعة تناسي مطلبهم . وأدت ثورة إسماعيلية ناجحة في تونس إلى منح أحد العلويين الأحياء السيطرة على جزء مهم من العالم الإسلامي وفي عام ٨٥٣ هـ فتح المنحدرون من نسله مصر حيث حكم الفاطميون ، كما عُرِفَت هذه الأسرة العلوية الحاكمة حتى منتصف القرن السادس الهجري .

واتخذ الفاطميون لقب الخليفة ، وطالبوا بمنح السلطة المذهبية للإمام العلوي من قبل معظم أشكال المذهب الشيعي ، ولأول مرة يلقي هذا النوع من المذهب الشيعي تأييد من الحكومة ، وأخذت القواعد والمبادئ الفقهية والأعمال المتصلة بعلم الدين وغيرها من التعبيرات الخاصة بهذا التفسير للإسلام تتدفق من أقلام أنصار الفاطميين في القاهرة، وقام الفاطميون الإسماعيليون بتنظيم الدعاية بعناية أيضاً ، ونجح وكلاؤهم بصورة مذهلة في إنشاء جماعات سرية للإسماعيليين في أنحاء الشرق الأدنى الإسلامي. فقد أرغم التعريف المحكم لهذا الشكل من أشكال المذهب الشيعي ، والتحدى المباشر لاتخاذ قائده لقب خليفة في معارضة صريحه ومعلنة للخلافة العباسية رمز الإسلام الذي تركز فكره على الإجماع ونشاطه التبشيري الناجح ؛ كل هذه الأمور أرغمت غير الشيعة على تحديد موقفهم تجاه الشيعة ؛ وأن يصبحوا بدورهم أكثر طائفية .

وكان الحنابلة على استعداد للرد على هذا التحدي حتى قبل ظهور الفاطميين؛ فالمذهب الحنبلي مذهب فقهي ومتصل بعلم الدين ، وقد أصر الحنابلة على إيجاد حلول للمسائل من خلال الأحاديث متى كان ذلك ممكناً ، وبالمثل فقد أصرروا على وجوب احترام جميع صحابة محمد المقربين، وقد هال الحنابلة اتهام الشيعة لبعض الصحابة في الوقت الذي كانوا يجلون فيه عليا، وهو ما اعتبره الحنابلة روحا وثنية، وفي بغداد مقر الخلافة أصبح المذهب الحنبلي حركة شعبية حقيقية ؛ ويرجع ذلك بصورة جزئية إلى أنه بدا كما لو كان يقدم علاجاً لضعف الخلافة السنية وما صاحب ذلك من تردى أوضاع حاضرة الخلافة، وأحس الحنابلة بأنه يجب على المسلمين القيام بعمل فردي لمكافحة البدع التي دخلت الأمة الإسلامية منذ زمن الصحابة، وكان الحنابلة الأكثر نشاطاً في بغداد في مطلع القرن الرابع بين سائر الجماعات الدينية في القيام بالمظاهرات الشعبية التي أسهمت بشكل كبير في زيادة صرامة الحدود بين الجماعات الدينية؛<sup>(٧)</sup> نظراً لأنها كانت توجه ضد الجماعات الدينية الأخرى ( أتباع الطبري ، والشيعة وهلم جرا )

وقد دفع الخوف من زيادة صرامة الحدود والانزعاج للهيأ الحنبلي الخليفة العباسي نفسه إلى إيجاد تسوية بشأن الروح الشاملة للإسلام الذي تركز فكره على الإجماع، وفي عام ٣٢٣هـ وبسبب " إملائهم شروطاً على الناس " وإحداث قلقاً أصدر الخليفة مرسوماً يعلن فيه أنه إذا استمر الحنابلة في نهجهم ولم يرجعوا عنه فسوف يعمل فيهم النار والسيف، وعلى نحو له مغزاه اتهمهم المرسوم بـ " نسب الكفر والضلال إلى حزب ( شيعة ) آل النبي "، ووضع المرسوم - ضمنياً - الحنابلة على النقيض

مع الغالبية العظمى من المسلمين الذين كانوا يدعون بعضهم البعض كفاراً في الظروف غير العادية فقط ، ومن المرجح أن المفكرين الحنابلة قد رفضوا اتهامهم بأنهم أطلقوا على الشيعة كفاراً ، لكن موقفهم تجاه أى شىء اعتبروه انحرافاً عن الإسلام كان متشدداً إلى حد أنه ربما بدا لضحاياهم كما لو أنهم قد عاملوهم على أنهم كفار (٨) .

ولذا فقد كان المذهبيين : الإسماعيلي ، والحنبلي ، دور واضح في خلق مذهب محدد على نحو أكثر صرامة لأهل السنة في القرون اللاحقة ، لكن مثل هذا التحديد أبطأ في المجيء حتى فتح السلاجقة ممالك البويهيين ، وكانت الفترة التي يتناولها هذا الكتاب قرناً ونصف من الانسياب والتدفق بين رأيين واضحين نسبياً من الآراء السنية التقليدية من وجهة نظر المسلمين اللاحقين حول العلاقة بين الحكومة والمجتمع ، وكما رأينا فقد تفوق الملوك البويعيون على الخلفاء العباسيين الذين طوقت إمبراطوريتهم في وقت من الأوقات العالم الإسلامي بأسره تقريباً والذين ادعوا درجة من السلطة الدينية على كافة المسلمين ، وأعقبت البويهيين الأسرة السلجوقية الحاكمة في أواخر القرن الخامس الهجرى / القرن الحادى عشر الميلادى ، والسادس الهجرى / القرن الثانى عشر الميلادى والتي أعادت حكومتها توحيد غرب آسيا في إمبراطورية مارس عليها السلاجقة - رغم ذلك - سلطة أكثر تراخياً من العباسيين .

وربما تكون الحكومة والمجتمع قد تغيرا سريعاً وعلى نحو له دلالاته في أواخر العهد العباسى ومطلع العهد السلجوقى كما حدث في العهد البويهى ، ورغم ذلك فقد كتب علماء الفقه الإسلامى وخبراء الإدارة في العهدين العباسى والسلجوقى تقارير عن الحكومة في هذين العهدين اللذين يعتبران من المراحل المرجعية التقليدية للكثير من الأجيال اللاحقة في الشرق الأدنى الإسلامى ، ونظراً لأن حكام كلتا الحكومتين كانوا من أهل السنة ، فقد كانت آراء العباسيين والسلاجقة تقليدية بالنسبة لاتباع السنة وكان لها تأثير مهم على النظرية السياسية الشيعية أيضاً ، وقد وقف العهد البويهى بين هاتين المرحلتين المرجعيتين الأصيلتين ، ولم يبلغ أبداً مقام خلفه أو سلفه ؛ ومن ثم فقد كان ينظر إلى ذلك العهد - ومازال ينظر إليه - على أنه فترة انتقالية .

وقد ذكرنا بالفعل التعريف العباسى لعالم الأفكار السياسية والاجتماعية الذى يوجهه الإمام - الخليفة ، وهو مثل أعلى تم تطويره والتوسع فيه بصورة كاملة إلى أقصى درجة في القرن الثالث ، ثم اختفى مع إخفاق الحكومة العباسية في مطلع

القرن الرابع، وبحلول النصف الأخير من القرن الخامس ، وهى الفترة التى غالباً ما يطلق عليها الإحياء السنى ، وهو تعريف جديد كان أخذاً فى الظهور كى يناسب الحكام السلاجقة الجدد لغرب آسيا، وكان يطلق - فى هذا التعريف الجديد - على الحاكم لقب جديد وهو السلطان، وعلى الرغم من أن السلطان كان حامى الإسلام ككيان لاستقامة الرأى والعقيدة ، وككيان إقليمى ، لم يكن بإمكانه أن يزعم أنه يفوض السلطة لمن هم دونه كما زعم الإمام الخليفة؛ وعلى سبيل المثال فالرجال الذين كانوا يعينون من قبل السلطان كقضاة غالباً ما كانوا يعينون كقضاة اسما فقط وليسوا كمفوضين عن السلطان ولكن عن الخليفة العباسى الذى كان من بين أسباب الإبقاء عليه إعاره اسمه لمثل هذه التعيينات من قبل السلطان، وهكذا كان السلطان حكماً وليس مرشداً للمجتمع الذى كان يحكمه من هذه الناحية .

ومن ناحية أخرى فقد كان السلطان حكماً أكثر من كونه مرشداً ، حيث كان أقل قدرة من الخليفة على إصدار مرسوم بشأن تغيير المركز الاجتماعى لأى شخص، أما الحاكم العباسى- بوصفه إماماً خليفة - فكان يمكنه من الناحية النظرية رفع رجال إلى مراتب الشرف وتجريدهم من مراتب الشرف تلك حسب رغبته، وبحلول العهد السلجوقى كان الناس أقل اعتماداً على الاعتراف بمركزهم الاجتماعى من قبل الحاكم ، وهكذا كان الحاكم مقيداً بصورة أكبر فى عدد المرشحين المحتملين لأى مركز اجتماعى بالتعيين، وبالمطبع فهذا الاختلاف يكون نسبياً فقط ، وكانت الامتيازات الموروثة للوضع الاجتماعى والشرف أكثر بكثير فى المجتمع العباسى عنها فى المجتمع الأمريكى اليوم، وكان هناك تحرك اجتماعى أكثر بكثير بين رعايا السلاجقة عما كان مقدراً أن يكون مسموحاً به فى النظام الذى وصفه " Mano مانو " المشرع البراهمى ( نسبة للبراهما أو الذات العليا فى الفلسفة الهندوسية ) ، ومع ذلك كان التحول قابلاً للتمييز فى نواح عدة من نواحي الحياة .

وقد ذكرنا أن المجتمع البويهى كان يتميز برسمية الروابط بين الأفراد وعدم رسمية الروابط داخل الجماعات التى لم تكن مجرد سلاسل لمثل هذه الروابط الفردية. ومن هذه الناحية أيضاً شهد العهد البويهى تحولاً فى الأجواء التى كان يعتقد أن الرسمية أو عدم الرسمية مناسبة فيها، وقد أعطينا بالفعل صورة وصفية موجزة للثلاثمائة سنة الأولى من عمر النظرية السياسية الإسلامية ، وصورة وصفية أكثر

إيجازاً للتطور الفعلى للحكومة المركزية فى نفس الفترة ، وكما رأينا فقد حاولت النظرية أحيانا تبرير التجربة التاريخية ، لكنها أصبحت بفعل ذلك أقل مرونة نظراً لتقل هذه المبررات ، واستمر تطور الممارسات الحكومية الفعلية يسير بخطى أسرع، وكانت هناك صرامة متزايدة فى كثير من الأشكال المباحة دينياً، وفى الحياة الخاصة استمرت هذه الأشكال تستخدم على نطاق واسع لأغراضها الأصلية ، ولكنها كانت تستخدم على نحو متزايد فى الحياة العامة ليس لأغراضها الأصلية ، ولكن للدلالة على الاحترام المتواصل من جانب المستخدم للتطبيق الخاص للأشكال الإسلامية ؛ ولهذا السبب يرجع إظهار المجتمع البويهى رسمية الروابط بين الأفراد وعدم رسمية الروابط داخل الجماعات بشكل جزئى.

وكان انهيار الكثير من المؤسسات الإسلامية العامة فى العهد البويهى بتوجيهها الأسمى واضحاً ولكنه لم يكن من الواضح بشكل مباشر ما سوف تقوم به الأمة الإسلامية فى مواجهة هذا الانهيار، وكانت الخلافة العباسية أهم هذه المؤسسات العامة التى توقفت عن تطبيق توجيهها الأسمى ، فهل كان من الواجب أن تحل محلها خلافة مضادة قائمة كالخلافة الفاطمية حيث كان الخليفة حاكماً مؤثراً وفعالاً ؟ أو أنه كان يجب إمداد أحد العلويين بالدعم العسكرى الكفيل بإيجاد إمامة زيدية فعالة فى الأراضى الإسلامية الرئيسية ؟ أو أنه كان هناك سبيل يمكن عن طريقه للصرامة الظاهرية للقانون أن تكون أقل درجة أو الحفاظ على النص الحرفى للقانون فى الوقت الذى يتم فيه تعديل أحكامه بما يتواءم مع الظروف الجديدة ؟

وقد لاقت هذه الحلول - وأكثر منها بكثير- تأييداً لكن مؤيديها عوملوا بعدم اكتراث من جانب الكثير من الحكام البويهيين الذين سمحوا لمجموعة من النظريات السياسية المختلفة بالتواجد طالما أن أحداً لم يحاول وضع أية نظرية منها موضع التنفيذ ، وهو الأمر الذى كان يمكن أن يشكل تهديداً مباشراً للحكم البويهى، وكما سوف نعرض فيما يلى فقد كان البويهيون من الشيعة - على نحو ما - غامض لكنهم أبقوا على الخلافة العباسية فى بغداد لقيمتها كرمز عام، وربما يكون اتباع مذهب الكلبيين حيال مثل هذه القضايا - وهو ما لم يظهره البويهيون وحدهم بل والكثير من الأسر الإسلامية الحاكمة المعاصرة لهم - قد أفقد هؤلاء الحكام احترام بعض رعاياهم الحريصين على الشكليات من الناحية الأخلاقية، ولكنه أتاح بدوره لهؤلاء الرعايا

نطاقاً من الرعاية لا يضاهيه سوى ما شهدته بضع فترات من تاريخ الشرق الأدنى الإسلامي، ولم يفرض أى بلاط لأى حاكم من هؤلاء الحكام أى معيار واحد للاستقامة الدينية أو حتى الذوق من أجل الرعاية التى تدفقت على علماء الدين والفلاسفة وعلماء الفلك وأهل العلم المكتوب على اختلاف صنوفه الذين كانوا موضعاً للإعجاب فى تلك الفترة ، وليس بالمستغرب أن يفر ابن سينا - الذى سوف يحتد أثره فى الفلسفة والطب طيلة قرون عقب وفاته فى ٤٢٨هـ / ١٠٣٧م - من شرق إيران عندما فتحها محمود الغزنأوى أحد النسل الجديد للحكام السنيين المتشددىن الذين ظهروا فى نهاية تلك الفترة، وكما كان متوقفاً فقد طلب ابن سينا الملجأ فى بلاط البويهيين الأكثر تسامحاً ولدى أسرة حاكمة ذات فكر مشابه فى غرب إيران.

وكان تسامح البلاط البويهى ملائماً تماماً لسعة الأفق التى كانت تميز الكثير من الحياة الفكرية فى تلك الفترة ، وتم القيام بعمل ترجمات عربية عديدة لأعمال الفلاسفة العظام فى فترة سابقة نوعاً ما، وبحلول العصر البويهى كان الفلاسفة الإسلاميون (وبعض الفلاسفة المسيحيين واليهود بالشرق الأدنى من الناطقين بالعربية ) على دراية تامة باستخدامهم الخاص للأسلوب التحليلى والتأملى الذى وجدوه فى هذه الترجمات. ورغم ذلك فقد اتخذت الأعمال التى كتبها الفلاسفة وعلماء الدين المسلمون فى علاقة غير مؤكدة بالمعتقدات الرئيسية لمعظم المسلمين، ولم يكن الفكر التأملى الإسلامى قد كشف بعد عن نقاط الاتفاق تلك التى سوف تضيف صفة مشتركة على تاريخه اللاحق.

وغالباً ما يشار إلى أن هذه الصفة المشتركة جاءت فى بداية القرن الرابع؛ وعلى سبيل المثال فقد كتب أ . ج وينسينك أن الأشعرى عالم الدين الذى توفى فى عام ٣٢٤هـ فى بداية الفترة التى نتناولها تماماً " يتميز بكونه قد تغلب على كراهية العلماء المسلمين الأقدمين للديالكتيك ( الجدلية الهيجلية ) فى بنود الإيمان ، وذلك من خلال استفادته الناجحة منها فى محاربة المعتزلة وزعماء الطوائف الأخرى الذين اشتبه فى هرطقتهم ، وإذا فهو مؤسس السكولاستية ( علم الكلام ) القويمة. " ، ورغم ذلك كان حق الأشعرى فى نيل هذا الامتياز طوال حياته وفى القرن التالى موضع جدل وخلاف محتدم ، وكراهية العلماء المسلمين للديالكتيك لاسبيل للتغلب عليها، وكان الموقف الرائد - وإن لم يكن الغالب أبداً - للأشعرية إنجازاً للمفكرين السلاجقة الأوائل كالجوينى (المتوفى عام ٤٧٨هـ) والغزالي ( المتوفى عام ٥٠٥هـ)، وفى القرن ونصف القرن اللذين تخللوا تلك الفترة نمت الطوائف الأخرى وازدهرت بما فيها المعتزلة ، وكشفت الشروح المنظومة للفكر الإسلامى عن تنوع نادر ما يضاهى فى الفترات اللاحقة (٩) .

وقد تمخضت هذه المناقشة الأوسع نطاقاً ، والأكثر تحريراً ، والأقل توجيهها لعلم الدين والفلسفة عن تعبيرات عن الشك الدينى الذى نادراً ما كان له مثيل فى العصور اللاحقة أيضاً، فها هو أبو حيان التوحيدى الملم بالعديد من الثقافات يحمل أبا سليمان أحد أبرز المفكرين فى عصره على التعبير عن هذا الشك فى حوار يفترض أنه جرى بحضور ابن سعدان وزير ملك العراق البويهى ، وعندما سئل أبو سليمان عن سبب إيمانه بالإسلام عندما زعم أن سائر الجماعات الدينية متساوية فى قدرتها على الدفاع عن مواقفها أجاب قائلاً : " ذلك أن له وقاراً ليس لأى (دين) آخر ؛ أعنى ( أننى أشعر بهذا الوقار لأننى ولدت فيه ونشأت فيه وتغذيت على حلاوته وتعودت على ما يمارسه أتباعه. إننى أشبه برجل دخل فناء خان نهراً يطلب الفىء للحظة فى وقت كانت فيه السماء صافية، وأخذه صاحب الخان إلى غرفة دون أن يسأل عن حالته أو صحته، وبينما هو فى موقفه هذا يجد فجأة سحابة قد تفتقت وانهمر منها مطر غزير، وتسرب الماء إلى الغرفة ، فنظر الساكن إلى الغرفة الأخرى فى الخان ورأى الماء قد تسرب إليها هى الأخرى ورأى الوحل فى فناء البناء ، وفكر فى البقاء حيث كان ، وألا ينتقل إلى غرفة أخرى ، ( ذلك أنه إذا بقى ) فبإمكانه أن ينعم بالراحة وتجنب تلطيخ ساقيه بالوحل الكثيف فى الفناء ، ( وهكذا ) مال إلى أن ينتظر صابراً فى غرفته ويبقى حيث وجد نفسه، فهذا الرجل مثلى عند مولدى ، لم أكن أستطيع التفكير ، ثم قام أبواى بتنشئتى على هذا الدين دون أن تكون لدى خبرة سابقة به ، وبعد ذلك اكتشفت عندما درستة وبحثت فيه عن كثب أن سبله تشبه سبل الأديان الأخرى ، ( ومع ذلك ) اعتبرت بقائى فيه صابراً مسلماً مغرباً أكثر من أن أتخلى عنه ، نظراً لأنه كان بإمكانى تركه والميل إلى ( دين ) آخر ، فقط لو أنه كانت لدى أفضلية الاختيار لذلك ( الدين ) وميل إليه يفوق ( دينى الحالى )، ورغم ذلك لم أجد أى دليل فى صالحه دون أن أجد دليلاً مماثلاً لدين آخر يقابله. " ، ولا غرو أن كان ذلك العصر عصر أبى العلاء المعرى ؛ أعظم شعراء المذهب الشكى الذين عرفهم العرب ، وعصر البيرونى ؛ أنزه مراقب للمجتمعات غير المسلمة عرفه الشرق الأدنى الإسلامى ما قبل المعاصر (١٠).

وقد جعل نشاط الحياة الثقافية وتنوعها فى ذلك القرن ونصف القرن " آدم ميز " أحد أكثر المؤرخين الأوربيين للشرق الأدنى الإسلامى ما قبل المعاصر نقاذ بصيرة

يطلق على تلك الفترة " نهضة الإسلام"، وإذا لم يكن هذا الوصف ملائماً تماماً (لما كان يجرى بعثه من جديد) فما كان لأحد أن ينكر الازدهار العظيم لثقافة عصره ، ذلك الازدهار الذى لم يأت بآبى سينا والبيرونى فحسب ، بل وبالكثير من الرجال الآخرين المعروفين حتى للعلوم الأوربية فى القرون الوسطى، ولم يأت الحكم البويهى بهؤلاء الرجال، ومن غير المحتمل أن معظم الحكام البويهيين كان لديهم أى فهم للأعمال التى قاموا هم أو كبار مسئوليتهم برعايتها، ومع ذلك فقد كان لدى كاتب ذلك العصر فرصة أفضل للرعاية نظراً للتنافس بين الكثير من قصور الحكم الصغيرة التى كانت تقدم الرعاية آنذاك وليس بلاط إمبراطورى واحد، ونظراً لأنه لم يكن من الممكن فرض أى معيار واحد للذوق أو الاستقامة الدينية كضمن للرعاية حتى إذا لم يكن الحاكم ذا أفق واسع ، فالكاتب الذى كان يجد أن آراءه بدأت تحمل الإساءة كان يتعين عليه فقط أن يسافر مسافة مائة ميل أو نحوها كى يجد حاكماً قد تسره آراؤه ، وعلاوة على ذلك فكما رأينا فقد كان عصرنا لم تكن مكانة المرء فيه تتوقف على اعتراف الحكومة المركزية بها كما كان الحال فى العهد العباسى ، أو متوارثة كما سوف يصبح الحال فى العهد السلجوقى ، ولذا فقد كان عصرنا وجد فيه الناس تنوعاً أكبر وأرحب لطرق الاعتراف بمكانتهم ورعايتهم ، وكشف إنجازهم العظيم عن اللفتة التى تابعوا بها هذه الطرق .

وسوف ينكر بعض المؤرخين أن مجتمع جنوب العراق وغرب إيران ازدهر فى القرنين الرابع والخامس مؤكدين بالأدلة أنه كان هزياً ومنهكاً، وسوف يجد هؤلاء المؤرخون تأييداً فى روايات كثير من الكتاب الذين عاشوا فى تلك الفترة واعتبروا أنفسهم يعيشون فى عصر انحطاط ، وعلى مدى مائتى عام أعقبت انهيار الخلافة العباسية ظلت بغداد أهم مركز للفكر الدينى الإسلامى، لكن بغداد تلك كانت قد تجردت من هيبة الحكم الإمبراطورى ومن الأقاليم الشاسعة التى كانت إيراداتها تمد مظاهر الترف فيها وعدد سكانها الضخم بأسباب البقاء والحياة، ولم تكن الإيرادات الإمبراطورية التى ضاعت فحسب ، بل ضاعت معها أيضاً أرباح تجارة النقل من البلدان التى تحد المحيط الهندى إلى عالم البحر الأبيض المتوسط ، حيث بدأت هذه التجارة فى التحول من طريق الخليج الفارسى الذى كان يفيد العراق إلى طريق البحر الأحمر الذى كان يفيد مصر ، وكما أشرنا فى معرض حديثنا من قبل فمن المفهوم ضمناً فى العقيدة الإسلامية بالقُدوة الكاملة ممثلة فى حياة محمد ، والقُدوة العظيمة

ممثلة في حياة صحابته المبدأ القائل بأنه كلما بعد المرء تاريخياً عن زمن محمد كان من المرجح أن يصبح تأثير الأسوة بمحمد عليه أقل وأضعف، وزعم علماء بغداد الذين كانوا يجلسون على مرأى من قصور العباسيين الخربة وأحياء المدينة شبه الخاوية أنهم رأوا الدليل المادي على أن هذه العقيدة كانت صحيحة، وكان لدى أهل العراق من ذوى النفوذ مبررات إقليمية ومبررات تتصل بعلم الدين للاعتقاد بأن اختفاء الحكم الفعلي من قبل إمام - خليفة كان دليلاً آخر على فساد الذمم " الفساد ( المتزايد دوماً وأبداً ) بمضى الزمن؛ فعملوا على تقوية وتعزيز الاتجاه العام لدى علماء الدين الإسلامى لقبول هذه العقيدة.

وإذا كانت الأمة الإسلامية - بصفة عامة - بحاجة إلى أى تأكيد لهذا الفساد ، فيبدو أن النجاحات العسكرية للبيزنطيين المسيحيين ضد المسلمين قد قدمت مثل هذا التأكيد فى أبلغ صورته وأشكاله؛ فقد لزم البيزنطيون الجانب الدفاعى طيلة أجيال لا حصر لها، حتى أنه كان من الصعب على المسلمين إدراك أن الحكومات الإسلامية فى شمال سوريا وشمال العراق لم تكن ندا لخصومها المسيحيين، وكان المسلمون فى هذه المناطق على مدى فترة طويلة من القرن العاشر و مطلع القرن الحادى عشر يخوضون حروباً يائسة لمنع التوغل المتزايد دوماً للجيش البيزنطية ، حتى أنه روى أن أحد هذه الجيوش قد توغل بعيداً حتى بلغ ضواحي فلسطين.

وكثيراً ما علق المؤرخون الغربيون الذين تأثروا بالأهمية الكبيرة للحركة الصليبية بالنسبة للعالم الأوروبى على رد الفعل المخفف نسبياً للمصادر الإسلامية تجاه وصول الحملة الصليبية الأولى إلى فلسطين فى عام ١٠٩٦ م، وعندما نطالع تاريخ المسلمين للقرن السابق يمكن فهم رد الفعل المخفف هذا بسهولة فقد وقعت الهزة العنيفة قبل وصول الصليبيين الأوربيين الغربيين بمائة وثلاثين عاماً . وبالنسبة للبيزنطيين فقد كانت حروبهم ضد المسلمين نوعاً من الحملات الصليبية بالفعل ، واعتقد الصليبيون الغربيون أنهم جاءوا بدعوة صريحة من البيزنطيين الذين ادعوا طويلاً أن لهم حقاً ما خاصاً فى حماية المسيحيين و الأماكن المسيحية المقدسة فى الشرق الأدنى ؛ ولذا لم يكن إيمان المسلمين بمواصلة هذه الحروب مع الحملات الصليبية مختلفاً تماماً - هكذا - عن الفهم المسيحى لهذه الأحداث.

ومن المحتمل أن كثيراً من المسلمين كانوا مدركين للتحول في حظوظ الحرب مع بيزنطة في عام ٣٥١هـ / ٩٦٢م عندما استولى الإمبراطور البيزنطى على حلب مؤقتاً وبعد تسعة أيام من أعمال السلب والنهب فيها ساق عشرة آلاف طفل مسلم في الأسر، وعندما سمع أهل بغداد بما حدث في حلب توجهوا إلى قصر الخليفة حيث وقفوا بأبوابه أثاروا صخباً وجلبة ، مطالبين الخليفة بالكتابة لجميع الأمصار وحشد الجيوش ، وبالطبع لم يستطع الخليفة فعل الكثير عدا مناشدة الملك البويهى الذى كان الحاكم الفعلى للعراق ، وانتشر الذعر والهلع فى أنحاء العالم الإسلامى ، وفى عام ٣٥٢هـ / ٩٦٣م وصل ستمائة من المقاتلين المسلمين المتطوعين من خراسان إلى الموصل التى كانت مهددة بالهجوم البيزنطى أيضاً<sup>(١١)</sup>.

ومن سىء لأسوأ أعاد البيزنطيون فى عام ٤٥٣هـ الاستيلاء على طرسوس بصفة دائمة بعد أن ظلت فى أيدي المسلمين طيلة ثلاثمائة عام ، وحول البيزنطيون المسجد الذى كان بها إلى إسطنبول، وفى العام التالى انطلق ما يقدر بعشرين ألف محارب مسلم متطوع فى الطريق الممتد ١٢٠٠ ميل من خراسان إلى الحدود البيزنطية ، وعلى نحو يرجح أنه غير واقعى حاولوا جلب عدد من الأقبال معهم. وتتضح الجدية التى نظر بها المحاربون المسلمون المتطوعون إلى التقدم البيزنطى فى خطابهم إلى ركن الدولة الحاكم البويهى الذى مروا عبر أراضيه، فقد طلبوا الدخول الكامل من ضريبة الأرض بمملكته ، والتى ذكروا أنه لم تتم جبايتها إلا " لبيت مال المسلمين كى تستخدم إذا ما وقعت كارثة ، وليست هناك كارثة أكبر من أطماع البيزنطيين والأرمن فى بلادنا، وفتحهم لنقاطنا الحدودية المنيعه ، وعدم قدرة المسلمين على مقاومتهم" ، ولم يكن رفض ركن الدولة الاستجابة لطلبهم بالأمر المثير للدهشة<sup>(١٢)</sup>.

واستمر البيزنطيون فى شن غارات ناجحة داخل الأراضى الإسلامية على مدى قرن ، وتلت حملاتهم - الأكثر نجاحاً - أعمال شغب عنيفة فى بغداد ، حيث عبرت الجماهير عن حالة السخط التى عمت المسلمين نظراً لأنه لم يكن يجرى القيام بأى عمل لإعادة التفوق للجيوش الإسلامية بعد أن كانت قد احتفظت به فى القرون السابقة، ولكنه لم تكن هناك أية بادرة تلوح فى الأفق لرد فعل وشيك متفق عليه بين المسلمين، واضطر الحكام المسلمون قرب الحدود إلى الدفاع عن أنفسهم ضد جيرانهم المسيحيين الأقوياء، وحالت الموارد الاقتصادية والعسكرية الهزيلة للحكومات المسلمة الأكثر بعداً

كما كان الحال بالنسبة لملوك العراق وإيران من البويهيين - بينهم وبين تولى حكم أى من هذه الولايات الحدودية ، وكانت جميع حكومات تلك الفترة تغار من بعضها البعض على نحو جعل التعاون العسكرى الفعال فيما بينها ضد البيزنطيين أمرا يصعب تحقيقه .

وكانت هذه النكسات دليلا إيجابيا بالنسبة للكثيرين على الفساد بمضى الزمن ، وزادت من تصميم معظم رجال الدين على الحفاظ على تكامل الإسلام ووحدته الفكرية فى وجه الحكومة المنقسمة التى كانت عاجزة فى مواجهة الأعداء الخارجيين ، ولاتبالى بهم أيضاً، وبعد ذلك - وفى مطلع القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى - بدأ السنى الغيور محمود الغزنأوى حملاته المظفرة من جنوب شرق إيران إلى داخل الهند. وقد بدا نجاح محمود فى توسعة الحدود الشرقية للعالم الإسلامى للسنيين الأكثر موالاة على أنه تأكيد على أن الفساد بمضى الزمن قد يتوقف إلى حد ما إذا ما اختفى الملوك الشيعة كالبويهيين (١٣).

وتحقق الحل الذى كان ينشده أولئك السنيون الأكثر موالاة على صعيدين عن طريق الأتراك السلاجقة السنيين : أولهما قيام السلاجقة بالتخلص ممن بقى من الحكام البويهيين فى منتصف القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وثانيهما قيام المحاربين الأتراك من آسيا الوسطى - والذين شكلوا جيش السلاجقة - بإلحاق الهزيمة بالبيزنطيين فى مانزكرت فى عام ٤٦٣هـ / ١٠٧١م ، وهو النصر الذى وضع البيزنطيين فى موقف الدفاع ، وفتح قلب الأناضول للفتح الإسلامى ، وكما ذكرنا فقد كانت تسوية الصراع على الحدود الأناضولية فصلاً واحداً فقط فى الصراع الطويل بين القوتين المسلمة والمسيحية فى الشرق، وبعد جيل من مانزكرت جاء الأوروبيون الغربيون لمساعدة البيزنطيين ، وبعد هذا الحدث وقعت قوى أوربا الغربية وبيزنطة والقوة الإسلامية فى شرك حرب دارت رحاها فى الشرق ، لكنها كانت سجالا ولم تضع أوزارها إلا مع فتوحات المسلمين لأكرا عام ١٢٩١م ، والقسطنطينية عام ١٤٥٣م .

ولم يقتصر الأمر على الشئون العسكرية التى بدا فيها الضعف على المجتمع البويهى فى القرنين الرابع والخامس ، حيث بدا عليه أيضا التحول من الرخاء النسبى

فى العصر السابق إلى عيش الكفاف، ومرة أخرى يؤدى انحطاط العراق إلى جعل هذا التغير يبدو حاداً على نحو غير ملائم، وكما ذكرنا فقد كان أهل العراق أكثر تأثراً من معظم المناطق بانهيار الإمبراطورية، وتحول طرق التجارة، ومع ذلك كان أهل العراق لا يزالون القادة الفكرين فى العديد من مجالات المعرفة الإسلامية، ولذا فقد احتلت شكواهم من فقر إقليمهم جزءاً كبيراً على نحو غير مناسب من الأدب الذى بقى من ذلك العصر، كما أنهم شعروا أيضاً بالأسى أكثر من غيرهم؛ نظراً لأن فقرهم لم يلق تعويضاً نظير تأييدهم لحكومة مهيبة وجليلة، وكان كثير من أهل العراق يفضل رؤية خليفة عباسى يبذل أموالهم فى عروض للعظمة والأبهة الإمبراطورية عن أن يبذلها ملك بويهى فى حرب لا نهاية لها - وعادة ما كانت غير حاسمة - ضد أقاربه وجيرانه الضعفاء - على حد سواء - .

ومع ذلك لم يكن التغير فى الحياة الاقتصادية للمنطقة بأكملها - بما فيها الأقاليم التى كانت لاتزال مزدهرة بغرب إيران - مجرد إسقاط من جانب علماء العراق، فقد وجدت إمبراطورية الخلافة الإسلامية مناطق منتجة للذهب والفضة لزمن طويل، وهو ما أتاح المجال للاستخدام الواسع لعملة ثنائية المعدن ذات معايير ثابتة للنقاء، ومع ضياع الأقاليم والولايات توقف الاتحاد، واختلت عملة المنطقة وادت الفوضى السياسية فى أواخر العهد العباسى إلى قطع طرق الإمداد؛ الأمر الذى أدى إلى جعل الأسعار تتذبذب بعنف، وعندما بدأ الذهب والفضة فى التذبذب بعنف بالمثل من حيث العروض منهما، وقيمتهم النسبية، ومعيار النقاء الذى كان يتم سكهما إلى عملة وفقاً له؛ اضطرت الحكومات البويهية إلى إيجاد طريقة لشراء الخدمات التى لم تكن لتضر بالحكومة مالياً أو تدفع بائع مثل هذه الخدمات إلى الفرار خوفاً من الخسارة المبالغ فيها .

وتمثل الحل الذى توصلوا إليه فى الاستخدام الواسع للإقطاع (الجمع: إقطاعات)، وهو تسوية مالية يتم بموجبها تخصيص مصادر الدخل الحكومى لموظفين أو متقاعدين حكوميين بعينهم، ونظراً لأن الجزء الأكبر من مصادر الدخل الحكومى كان من الضرائب على الزراعة؛ فقد شكلت مخصصات الدخل من الخراج أو ضريبة الأرض الفئة الكبرى من الإقطاعات، ورغم ذلك كان يمكن تخصيص أى مصدر حكومى للدخل بشكل فعلى كإقطاع - حتى حقوق الماء أو حقوق الاستخدام - ومن خلال هذه

المخصصات تحررت الحكومة من عبء توقع التذبذبات فى العملة، وعادة ما كانت هذه المخصصات لفترة قصيرة تقدر بعام واحد حفاظاً على درجة ما من السيطرة الحكومية عليها، وقد سبق البويهيون أى نظام حاكم آخر فى الشرق الأدنى فى استخدامهم الواسع للإقطاعات ؛ ويرجع ذلك بشكل جزئى أنهم كانوا يعيشون فى منطقة تأثرت بالأزمة المالية التى حدثت فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى بصورة شديدة للغاية، وربما تكون أصول هذا النظام قد نشأت فى أثناء هذه الأزمة المالية لكنه كان مناسباً تماماً لأسلوب الحكم اللامركزى ما بعد العباسى ، وطموحات نظم الحكم العسكرية ، حتى أنه استمر قائماً فى الشرق الأدنى فى أشكال عديدة ومختلفة على مدى قرابة ألف عام عقب تولى البويهيين زمام الحكم، وكانت نظم الحكم التى أسسها قادة عسكريون سعيده بالطبع بوضع الجند فى موضع المسئولية المباشرة عن دخل الدولة بصورة أكبر .

وقد كشفت الحياة الاقتصادية فى المجال غير الحكومى فى هذه الفترة عن نمط مختلف - إلى حد ما - للرسمية وغير الرسمية عن النمط الذى تناولناه سابقاً، وكانت التعهدات الرسمية غير المحددة نادرة ، وبوجه عام لم يكن هناك موظفون فى المؤسسات التجارية ، ولم يكن لدى ملاك الأراضى عبيد ، ورغم ذلك كان التعهد الرسمى طويل الأجل شائعاً ، فإذا تعاقدت مؤسسة تجارية مع حمال أو سمسار للقيام بوظيفة محددة كان من المرجح أن تستخدم تلك المؤسسة ذلك الباب أو السمسار متى دعت الحاجة إلى ذلك دون النظر إلى مصدر أرخص تكلفة للخدمات فى أغلب الأحيان. ومن المرجح أن الروابط الأكثر استمرارية للتبعية كان من شأنها أن تتطلب ترتيباً هرمياً ثابتاً للأفراد والجماعات ، ولكنه كان هناك نظام مختلف للغاية للترتيب الهرمى كما سوف نعرض فى الفصلين التاليين، وكانت هذه الأشكال غير الرسمية - ولكن طويلة الأجل - للتبعية تزداد قوة أحياناً عن طريق التكبل بأغلال الدين ؛ فلم يكن المزارع مديناً لمالك الأرض وتاجر التجزئة لتاجر الجملة فحسب ، بل إن الرجل العادى حصل على الكثير من مشترياته بالدين أيضاً ولم يسدد ديونه إلا بشكل دورى .

وإذا كان القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى ومطلع القرن الخامس الهجرى - الحادى عشر الميلادى يمثلان واحدة من أعظم الفترات الإبداعية فى التاريخ الفكرى للشرق الأدنى ، فما من أناس يبدون كمرشحين أقل أرجحية لأن يكونوا على

رأس هذا الازدهار الفكرى من الديلميين الذين انحدرت من نسلهم الأسرة البويهية الحاكمة وجيوشها الأصلية ، وكانت ديلم إقليمًا للجبال الوعرة التى تحيط بالساحل الجنوبى لبحر كاسبى، وقد فتحت الجيوش الإسلامية بعد حوالى قرن من بقية إيران ، وسرعان ما أفلت من قبضة حكومة الخلافة ، وأظهر رعاياه العداء للحكم المركزى العباسى بأن أصبحوا من الشيعة، وفى البداية وعندما فتحوا المناطق وراء وطنهم الجبلى خشى المسلمون من غير الشيعة من أنه إذا فتح الديلميون المناطق الواقعة فى قلب أراضى الخلافة فسوف يستبدلون بالخليفة العباسى آخر علويًا .

وبعد كثير من التحولات السريعة للأقدار بين قادة هؤلاء الديلميين ظهر عليهم ثلاثة إخوة كقادة لهم، وكانوا جنوداً أشداء ، وأبناء صياد سمك يدعى بويه، والفرس سُمّت أسرتهم الحاكمة باسمه فيما بعد ، وبعد أن قام الأخوان الأكبر سناً بفتح معظم أراضى إيران الغربية فى العشرينات والثلاثينات من القرن الرابع الهجرى، قام الأخ الأصغر سناً بفتح العراق وفرض سلطانه على الخليفة العباسى نفسه فى عام ٣٣٤هـ / ٩٤٥ م .

وأبقى البويهيون على الخلافة العباسية، حيث كان لديهم كافة المبررات لذلك؛ فقد كانت غالبية رعاياهم من غير الشيعة، وكانوا يجلون الخلافة العباسية كمؤسسة ( فى الوقت الذى لم يأبها فيه لمن يتولى الخلافة من العباسيين)، وإكراماً لهم كان الخليفة العباسى يمنح البويهيين ألقاباً مثل معز الدولة " معز الأسرة ( العباسية ) الحاكمة " وشهادات تفوض البويهيين أن يحكموا باسم العباسيين ، وعلى أية حال فقد كان البويهيون شيعة نوى قالب بالغ الغموض، حيث إنهم لم يشعروا بأى التزام محدد بتسليم الخلافة لأحد العلويين ، كما أنهم أدركوا أيضاً أنهم إن فعلوا ذلك فسوف يوجدون شخصاً ما ، لن يستطيعوا معاملته بمذهب الكلبيين ( السلوك البشرى الذى تهيمن عليه المصلحة الذاتية فقط )، والذى كان يحكم معاملتهم للخلفاء العباسيين الذين عمد البويهيون الأولون إلى عزلهم متى شاعوا .

واحتفظ الإخوة الثلاثة البويهيون بثلاثة قصور للحكم : واحد فى بغداد، وآخر فى الرى ( قرب طهران حديثاً ) ، وثالث فى شيراز فى جنوب غرب إيران، وعلى مدى أربعين عاماً كان هناك تعاون وتآزر بين حكام الممالك البويهية المستقلة ، ثم حدث بعد

ذلك أن انهيار نظام هذه الأسرة . أما بقية تاريخ الأسرة البويهية الحاكمة فهو قصة محزنة للنزاعات المتكررة بين الممالك البويهية المختلفة، وزاد من ضعف البويهيين الانقسام الداخلى فى جيوشهم، ذلك أنه كما فعل العباسيون من قبلهم ،عمد البويهيون إلى شراء العبيد من الأتراك ورفعهم إلى مراتب صفوة الفرسان فى جيوشهم ، وقد أتاح الشعور المتبادل بالبغضاء بين الجنود الديلميين و الجنود من العبيد الأتراك للبويهيين ضرب هذه العناصر ببعضها البعض، ورغم ذلك لم ينجح أى تمرد فى أى من جيوشهم - أبداً - فى إحلال فرد ينتمى لأسرة أخرى محل أحد البويهيين بصفة دائمة. وأخيراً ظهرت قوى خارجية قادرة على الإطاحة بالبويهيين وأن تحل محلهم، فقد وضع محمود الغزنأوى (نسبة إلى غزنة ) ذلك السنى المخلص وفتح شمال الهند للإسلام - نهاية للمملكة البويهية فى الرى فى عام ٤٢٠ هـ / ١٠٢٢ م . وفتح السلاجقة المملكتين البويهيتين فى العراق وفارس فى الأربعينات من القرن الخامس الهجرى / الخمسينات من القرن الحادى عشر الميلادى<sup>(١٤)</sup> .

وقد أدى الضعف النسبى للبويهيين ومحاولاتهم البديلة مؤقتا لإثبات شرعية حكمهم باستخدام الشهادات التى كان يمنحها لهم الخلفاء العباسيون ، وما كانوا يزعمونه من أنهم ينحدرون من نسل ملوك إيران قبل الإسلام ، أدى كل هذا فى نهاية الأمر إلى حرمان تلك الفترة مما تستحقه من اهتمام ، وقد شجع الضعف البالغ ، والصفة البديلة مؤقتا للحكم على التجريب فى الإدارة، وظلت الحكومات تحاكي بعضاً من ثمار هذا التجريب كالإقطاع على مدى قرون أعقبت تلك الفترة، وقد تناولنا أيضاً الكيفية التى شجعت بها لامركزية الحكم الحياة الفكرية، لكن الأهم من ذلك كله وجهة نظر المؤرخ الاجتماعى أن ضعف الحكومة قد عاد بالمجتمع إلى الوراء كى يعيش على موارده الخاصة، وأثبت المجتمع قدرته على توليد أنماط تتجدد ذاتياً للولاء والقيادة، بينما يقبل ويتوقع بوراً مختلفاً تلعبه الحكومة ، وأنماط الولاء والقيادة . هذه هى موضوع الفصول التالية من الكتاب .



## الفصل الثانى

### الولاءات المكتسبة

لقد أوجدت التعهدات والالتزامات المكتسبة بترو و أناة الولاءات الإيجابية ؛ والتي يمكن التنبؤ بها والتي شكلت المجتمع فى الشرق الأدنى فى القرنين العاشر والحادى عشر ، ولم تكن مثل هذه الولاءات "إيجابية " ؛ نظراً لأنها كانت طيبة أو من الممكن التنبؤ بها لأن الناس دائماً ما كانوا يكرسون حياتهم للوفاء بها ، وكانت الولاءات المكتسبة إيجابية، حيث إنها استخدمت كأساس للتعاون حتى عندما لم يكن هناك ما يهدد المصلحة الذاتية للجماعة ، وكان من الممكن التنبؤ بها ؛ لأنه بفضل طبيعتها الرسمية نوعاً ما عرف من قبلوها بشكل تفصيلى كبير التعهدات التى كان يعتقد أن مثل هذه الولاءات تنطوى عليها، وتتجلى هذه الولاءات فى أفضل صورها أوقات الشدة عندما كان الناس يحاولون جعل مطالبهم من بعضهم البعض نافذة المفعول ؛ عن طريق الإشارة الصريحة المعلنة إلى شرعية مثل هذه الولاءات وصحتها، وقد جاءت مثل هذه اللحظة عندما وقع تمرد فى جيش الخلافة فى عام ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م ، وفى رسالة كتبها الخليفة المقتدر إلى قواته فى تلك الظروف نجد لدينا مثلاً مذهلاً وواضحاً على نحو فريد للاستحضار الصريح للتنوعات الأساسية لمثل هذه الولاءات و التعهدات . وفى مواجهة العزل قدم الخليفة لقواته بياناً عن الدوافع الهامة التى يرى أنها ينبغى أن تدفعهم إلى تأييد حكمه، وفى الجزء الأول من الرسالة يحاول الخليفة استرضاء الجند وتهديئة ثأرتهم ثم يقول : " إن معظم نعمكم ( المفرد نعمة ) منى، ولكنه لن يكون دأبى أن ألومكم بما قد مننت به وما اعتبرتته فى ذلك الوقت - وما زلت أعتبره - ضئيلاً مقارنة بفضائلكم ومناقبكم ، وبدلاً من ذلك فحرى بى أن أجزل لكم العطاء ... (و) أننى لأتوق إلى ان أصل بكم إلى منتهى ما تطمحون إليه ... وأطالبكم بيمين الولاء ( البيعة ) الذى أكدتموه المرة تلو المرة ، فمن حلف يمين الولاء لى فقد حلف يمين الولاء لله ، ولذا فمن

لم يرع ذلك اليمين لم يرع العهد مع الله (عهد الله) ، كما أطالبكم أيضا بأن تؤدوا شكر النعم و المنن التى تتمتعون بها، تلك النعم و العطايا التى أُنحِكم إياها وآمل أن تقرّوا بها وتعتبروها ملزمة لكم" (١) .

وعلى الرغم من أن الجند كان لديهم مظالم شديدة ضد الخليفة المقتدر فقد أخفق التمرد ؛ ويرجع ذلك بصورة كبيرة إلى أن المؤنس كبير القادة ؛ والذي وجهت إليه الرسالة قد خيب آمال المتمردين الذين كانوا يتوقعون تأييده الصريح، وليس هناك أى مبرر للاعتقاد بأن الرسالة قد غيرت فكره، ومع ذلك فقد كانت الحجج المستخدمة فى الرسالة صفة مميزة لكافة مناقشات الولاء فى تلك الفترة ، ولدينا كافة المبررات للاعتقاد بأن المقتدر كتب تلك الرسالة إيماناً منه بأنه إذا كانت هناك حجج يمكن أن تغير فكر المؤنس وقواته فسوف تكون حجماً من النوع الذى أوردناه سابقاً .

وهكذا فاليمين والنعمه المشار إليهما فى الرسالة هما أساسا الولاء ، ويناقش الجزء الأول من هذا الفصل الولاءات المرتبطة باليمين بصفة عامة وعلاقاتها بالعهد بين المرء و الله، والذي يشكل إحدى المقومات الأساسية للعقيدة الإسلامية، ويلى ذلك وصف للعديد من الفئات المحددة لليمين مثل الأيمان بين الخلفاء والأمراء. ويتناول الجزء التالى من هذا الفصل النذر، وهو أقرب ما يكون إلى اليمين ، والنذر تكون "شخصية" حيث إنها يمين بين شخص و الله. ونظراً لأن آخرين يمكن أن يكونوا المستفيدين من النذر ؛ فهي كثيراً ما تستخدم للتعبير عن تعهد رسمى للآخرين .

ويتناول الجزء الثانى من هذا الفصل النعمة كما يطلق عليها فى الرسالة المشار إليها سابقاً وفى سياقات أخرى كثيرة . و الروابط الرسمية التى أوجدها عطاء النعمة وقبولها هى موضوع دائم ومتواصل فيما كُتب عن تلك الفترة ، والرعاية خاصة تلك التى يُطلق عليها استعناء ، وهو نتاج لفكرة التبادل الرسمى للمنفعة، ويمكن ملاحظة توسع مُحير بصورة أكبر للروابط الرسمية لتبادل المنفعة فى ولاء الأشخاص الذين نشأوا معاً، ويختتم هذا الفصل بمناقشة للصفة العامة للولاءات المكتسبة ، والتمييز بينها وبين الولاءات التى تقوم على الطبقة و التى سوف يتناولها الفصل القادم .

## الأيمان :

تعد الأيمان ؛ الوسيلة المعلنة والرسمية التي يتعهد بها أحد الأشخاص لشخص آخر ليس فقط في رسالة الخليفة ولكن في الغالبية العظمى من مناقشات الولاء السياسى، وكانت هناك وسائل رسمية أخرى على نحو مساو وكثير من الوسائل الأقل رسمية و الأقل صراحة، ومع ذلك فنظراً لأن الأيمان هي الأكثر قبولاً من بين هذه الوسائل جميعها ؛ فمن الملائم أن تبدأ هذه المناقشة للولاءات المكتسبة بالأيمان . و الأيمان وسيلة للتعهد أيضاً تظهر جلياً في المناقشات الرسمية للمذاهب الأخلاقية المدونة في تلك الفترة ، وقد اعتبر الناس الأيمان نماذج أصيلة للأشكال الأخرى للتعهد إلى حد ما . ويرجع قيامهم بذلك بصورة جزئية - كما سوف أحاول إيضاحه في الأجزاء التالية من هذا الفصل- إلى أن الأيمان كانت نموذجاً لكافة وسائل التعهد هذه .

وكانت البيعة المشار إليها في الرسالة يمين ولاء يؤدي باسم الله بين الخليفة وأى مسلم، وبطبيعة الحال فقد سعى الخليفة المقتدر في رسالة إلى حمل المتمردين على إدراك أن الحنث يمثل هذا اليمين كان بمثابة حنث باليمين أمام الله ، ورغم ذلك فبالنسبة لرجال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى فإشارة المقتدر إلى العهود - وحتى روابط العرقان بالجميل- كانت ذات نقطة مرجعية أقل وضوحاً لكنها هامة بصورة شديدة في علاقات الميثاق القائمة بين المرء والله ، وفي القرآن تشكل سلسلة كاملة من العهود بين الإنسان وخالقه بداية بعهد آدم الأول النموذج الأصيل والضمان المطلق لكافة التعهدات المقدسة ذات الأهمية بين شخص وآخر. وقد تناول القرآن بشكل مباشر المسائل الدينية الدائمة المتعلقة بأصل مسئولية الإنسان أمام الله . وتجدر الإشارة هنا إلى أن الدليل على مسئولية الإنسان عهد مقدس بين الإنسان و الله تم قطعه في أول الزمان كما ورد في القرآن ، ويتم تصوير الإنسان بطريقة ما على أنه يتحمل المسئولية الأخلاقية الكاملة نظراً لهذا العهد فحسب، وقد جىء بالناس كافة في الآية : **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ** ( سورة الأعراف الآيات ١٧٢-١٧٣ ) . وطبقاً لهذه الآيات فلا عذر لإنسان أن يزعم أنه " غافل " ( سواء كان هذا يعنى كما يعتقد بعض المفسرين أن الناس يدعون أنهم قد نسوا ، أو كما يعتقد آخرون أن الناس يدعون أنهم

لم يأتيهم أبداً نبأ هذا العهد ) ، كما أنه ليس بعذر أن يولد المرء لأبوين تحولاً عن الله ، وإذا فإنهما قد يتحملان المسؤولية عن حماقة أبنائهما، وكان جميع البشر القادمين حاضرين على نحو ما فى هذا العهد الأول ، وكانوا " شاهدين عليه " على نحو فردى، وبذلك فقد دخلوا فى اتفاق مع الله يجعلهم مسئولين أمامه، وقد ذكر بعض المفكرين المسلمين أن الله يمكن أن يعتبر الناس مسئولين حتى لو لم يكن هناك أى اتفاق ، وأن هذا الاتفاق كان مجرد تأكيد مسئولية متأصلة فى موقف الإنسان . وتحقيقاً لأغراضنا ؛ فمن المهم - فقط - ملاحظة أن التعاليم الإسلامية اعتبرت هذا العهد الأول المقدس بين الإنسان والله حجة قوية للمسئولية الأخلاقية الأساسية لكل إنسان. وقد نبعت قوة هذه الحجة - ونشأت عن - ما أولته التعاليم الإسلامية فى قرونها الأولى من احترام وتعظيم للإيمان والعهد والمواثيق وفى عهد البويهيين كانت الإيمان الرسمية أبرز ما يميز كافة المناقشات حول الواجبات والالتزامات التى يمكن تنفيذها دون إكراه ، ومما لا شك فيه أن الإيمان قد حملت جزءاً صغيراً نسبياً فقط من ثقل ذلك الشعور بالالتزام والولاء الذى أدى إلى ترابط المجتمع ، ونظراً لأن الإيمان كانت بيانات رسمية للالتزام ، فهى توضح بعض الفروض المسبقة التى تكمن وراء الأشكال الأخرى للالتزام الاجتماعى . ونظراً لأن الإيمان كانت مقبولة عالمياً ؛ فقد تم تعديل الأشكال الأخرى للالتزام الاجتماعى بما يتواءم مع نمط الإيمان إلى حد ما .

ولم تعطى التعاليم الإسلامية مثل هذا الوضع المحورى للإيمان على أساس مقطع واحد فى القرآن وإنما قامت بذلك ؛ نظراً لأن نظام الإيمان كان ملائماً تماماً لمجتمع الشرق الأدنى المعاصر، ونظراً لأن القرآن والأسوة بمحمد قدما الكثير من السوابق التى حظيت فيها الإيمان بهذه الأهمية الرئيسية على وجه الدقة ، وفى الفقرات التالية نناقش بضعة مقاطع قرآنية ونحاول توضيح أهميتها الرئيسية للروئية الأخلاقية التى يصفها القرآن للبشر .

وكما رأينا من قبل فمن وجهة النظر القرآنية فقد قبل الإنسان المسئولية الأخلاقية فى شكل يمين وميثاق أولى مع الله ، وقبل وصف هذا الميثاق بثلاث آيات يذكر القرآن نوعاً من اليمين مقيداً بصورة أكبر ظل نقطة مرجعية تقليدية - عهد الله مع بنى إسرائيل؛ فقد اعتقد بنو إسرائيل قديماً أن كل شئ سوف يغفر لهم ، ومع ذلك يقول القرآن أَلَمْ يُوَخِّذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ( سورة الأعراف آية ١٦٩ )

ومن بين الأسباب وراء ذكر هذا العهد قبل الميثاق الأولى بوضع آيات أن الكلمة المستخدمة هنا للعهد هي ميثاق وهي تعني أيضاً تأكيد الاتفاق الميثاقى بين الإنسان والله والذي يأتى به كل مؤمن : الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (سورة البقرة آية ٢٧) قارن الآية ٢٥ من سورة الرعد : وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ، ويمكن اعتبار العهد الأكثر تقييداً بين الله وبنى إسرائيل وتمديد أى اتفاق ملزم لليمين على أنها تأكيدات أو إقرارات لليمين الأساسى ؛ الذى قبل الناس بموجبه المسؤولية الأخلاقية ، وكما قال الخليفة المقتدر للمتمردين : " إن كل من حلف يمين الولاء لى فقد حلف يمين الولاء لله ؛ ولذا فإن كل من ينقض ذلك اليمين ينقض الميثاق مع الله ( عهد الله ) " .

وقد ورد ذكر مدى كون المعتدين هم " الخاسرون " فى كثير من المقاطع القرآنية ، وعلى سبيل المثال يقول القرآن فى أحد هذه المقاطع بلى من أوفى بعهده ، وأتقى فإن الله يحب المتقين ، الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَكَلِمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ( آل عمران ٧٦ - ٧٧ ) ، ويؤكد القرآن - على نحو متكرر - شدة العقاب الذى سوف يناله أمثال هؤلاء الحائثين بأيمانهم .

وفى مقطع قرآنى آخر ترتبط قداسة الأيمان وأهمية العرفان بالجميل لمن يحسن إلى المرء معاً على نفس النحو الوارد فى رسالة الخليفة وذلك إلى حد بعيد ، ويبدو أن هذا المقطع يشير إلى كل مما يسمى بـ " دستور المدينة " وهو الاتفاق الملزم لليمين الذى كان أساساً لسلطة محمد عندما انتقل إلى المدينة وأقام بؤلة - و إلى الميثاق الأولى بين الإنسان والله : وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ( سورة المائدة الآية ٧ ) .

ولذا فالله " ربنا " هو الذى ندين لقانونه الأخلاقى بالطاعة و الامتثال من خلال ميثاق أولى ، ويلقى هذا الميثاق بظلاله على أية أيمان لاحقة نحلفها ، ونحن لا نستطيع مثلاً أن نقسم على ارتكاب خطيئة بأى معنى صحيح . وعلاوة على ذلك فنحن لا نستطيع القيام بذلك ؛ لأن الله طرف فى كافة الأيمان الصحيحة ، وأحياناً يعترف بأن

القسم بـ "محمد" أو "بالقرآن" صحيح ، ولكن ذلك يرجع فقط إلى أن القسم عن طريق الشكل المادى لوى الله يعترف بكل من ربوبية الله ، والميثاق الأسمى للامتثال للقانون الأخلاقى ؛ الذى يأتى به الوعى الإسلامى فى أتم صورته، والله شاهد إيجابى نشط وليس مجرد شاهد سلبى ليمين صحيح ، وذلك أننا عندما نقسم بالله فنحن نستحضر فى واقع الأمر لعنة الله إذا لم نف بما يقتضيه القسم، ويبدو أن هذا الفكر قد تم قبوله من قبل الغالبية العظمى من المسلمين ؛ فى عهد البويهيين وفى القرون قبل وبعد عهد البويهيين مباشرة ، ويوضح الاستخدام واسع الانتشار تماماً للقسم فى تلك الفترة لإيجاد أو تأكيد التعهدات و الالتزام أنه كان نهجا للتفكير تأثر به الناس تأثراً عميقاً للغاية (٢) .

وتتجلى جدية الأيمان فى أبلغ صورها عن طريق الصدمة و الفزع الذى يتناول به المؤرخون الإسلاميون فى القرون الوسطى تلك الحوادث و المناسبات التى حدث فيها الناس بأيمانهم صراحة ، ويعرف كل عصر أنذالا وقحين ممن تجاهلوا بوقاحة وأحيانا بنجاح مبادئهم الأخلاقية الرئيسية . ومع ذلك ينبئنا رد الفعل تجاه أمثال أولئك الأشخاص بشيء عن القوة التى طالب بها أناس آخرون لدعم هذه المبادئ ، وسوف تعرض عشرون صفحة من أى تاريخ ( للبويهيين أو أوروبا العصور الوسطى أو أى شعب أو عصر ) عدداً مختلفاً من الأفعال التى قد تسمى إلى الضمير الحساس، ومع ذلك يمكن للقليل من الأفعال التى ورد ذكرها فى الروايات التاريخية للفترة التى نتناولها أن تشير الإساءة الأخلاقية لدى مؤرخى الشرق الأدنى مثلما يمكن لأفعال الحنث باليمين أن تفعل .

وخير مثال على دراما مثل هذا الفعل بالنسبة للمعاصرين ما روى عن قبض توزون على الخليفة فى عام ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م قبل وقت قصير من احتلال البويهيين بغداد ، وكان توزون الأكثر نجاحاً من بين عدة قادة ظلوا يسيطرون على شئون الخليفة على مدى عشر سنوات قبل استيلاء البويهيين على بغداد وهو نفس ما فعله البويهيون فى وقت لاحق من السيطرة على شئون الخليفة إلى حد بعيد ، وكان الخليفة الذى يعمل توزون تحت إمرته يدعى المتقى، وحدث أن نقض المتقى اتفاقاته مع توزون بأن فر من قبضة توزون المسيطرة فى بغداد وراح يخطب ود الأسر الحاكمة المستقلة التى كانت تحكم الممالك المجاورة علانية وهى الحمدانيون فى الموصل والإخشيدون فى مصر؛

وبذلك أبدى الخليفة رغبته فى الانفصال عن توزون ومخاصمته بغير رجعة واستبداله بعامل جديد للقصر أو أمير الأمراء ، ومع ذلك فعندما حصل الوسطاء من توزون على أغلظ الأيمان بحسن السلوك و المعاملة تجاه المتقى بشهادة الشهود أمام القضاة ، وكتاب العدل ، وكبار أعضاء الأسرتين العلوية و العباسية ، ورجال الدين الذين صدقوا جميعا على ذلك عاد المتقى أدراجه صوب بغداد ، وفى الطريق جدد مبعوث توزون الأيمان للخليفة ؛ وفى الثامن و العشرون من صفر لعام ٣٣٢هـ التقى توزون بالمتقى شمال بغداد ، حيث قبل توزون الأرض أمام المتقى ثم قبل يده وقدمه؛ وبعد ذلك قبض عليه وأذهب بصره، وكما يخبرنا تاريخ القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ليسكاويه فقد " ارتجت الدنيا" (٣).

وتصف رواية أكثر تفضيلاً فى تاريخ القرن الحادى عشر الهجرى الخطورة البالغة لفعل الحنث باليمين هذا بالنسبة للمعاصرين، وذلك على نحو أكثر حيوية ، وقد تستند هذه الرواية للقبض على المتقى إلى رواية أحد خدم القصر زمن توزون ؛ وعلى أية حال فهى تعكس نوع المشاعر التى يمكن للحنث باليمين أن يثيرها، وطبقاً لهذه الرواية فعندما اقترح شخص ما لأول مرة على توزون القبض على المتقى قال له : " كيف يمكن لى أن أفعل ذلك بعد أن عقد اتفاقاً معنا وشهد جميع الناس فى القصر على طاعتي ، وهذا الأمر معلوم تماماً فى الأقاليم الأخرى ؟ " وقال المستشار لتوزون " سيدى إن هؤلاء العباسيون أناس قليلوا الوفاء"، وبعد ذلك - وطبقاً لهذه الرواية - تبادل توزون والمستكفى (الخليفة القادم) الذى رشحه توزون كى يحل محل المتقى أيمان الولاء و الطاعة سرّاً قبل القبض على المتقى، ومن الواضح أن توزون كان ما يزال يؤمن بفائدة الأيمان حتى وإن كان على وشك نقض يمين علانية .

وتنضى الرواية التاريخية فتقول : " عندما أذهب توزون بصر المتقى وخانه على هذا النحو وحنث بأيمانه له ونقض العهد التى قطعها أمام الله لتأييده وطاعته ؛ فقد أزعج ( هذا العمل ) الناس بمختلف طبقاتهم بشدة ، ورأوا أنه حدث جلل، وعلم كل من آمن وصدق بوعدده ووعيده بأن الله - القوى المجيد - سوف يعذبه فى الآخرة " ، وبعد ذلك تستشهد الرواية التاريخية بمصدر من الواضح أنه كان معاصراً لـ " توزون " : " عندما خان توزون المتقى وأذهب بصره ندم ندماً شديداً على ما فعل، وجلس على أحد الصناديق (فى خيمته) وطلب خمراً كى يحتسيه وعندما جاعه بالخمير أصيب بسكته،

وسقط من فوق الصندوق على الأرض بعد أن حل عليه البلاء ، وظل على هذا الحال طيلة ما بقى من حياته ، (أى) منذ أن فعل فعلته بحق المتقى حتى وفاته ، وقد ذهب بصره قبل وفاته، وهذا هو صنيع الله مع أمثال هؤلاء . " وذكر ابن الجوزى - عالم الدين فى تاريخه اللاحق - أن توزون توفى عام ٤٣٣هـ " حيث لم يكد يمر عام على فعلته القبيحة وتجاهله للإيمان التى كان قد حلفها " (٤).

وتتأكد جدية الإيمان من خلال جهود أناس آخرين لتجنب الإيمان التى علموا أنهم قد يضطرون للتبرؤ منها، وأراد قليل من الناس المخاطرة بالإتيان بعمل شائن - وربما وخز الضمير - كما يفعل من يحتثون بإيمانهم مثل توزون، وعندما كان شرف الدولة البويهى يتقدم نحو العراق فى عام ٣٧٥ هـ لإطلاق سراح شقيقه من أمه وأبيه من بين يدى أخيه غير الشقيق سمس الدولة سقطت المدن فى يدى شرف الدولة دون قتال، وسرعان ما كان سمس الدولة على استعداد لتلبية جميع مطالب شرف الدولة وأقسم على ذلك أمام الوسطاء ، وعادوا إلى الجيش المتقدم ووجدوا أن نقص المقاومة قد جعل شرف الدولة يغير فكره: فقد قرر الاستيلاء على بغداد وكذلك إطلاق سراح شقيقه وهكذا " لم يقسم لأخيه ( غير الشقيق ) ، وبالمثل يفترض أن الفاتح العظيم لشمال الهند محمود الغزنأوى ( المتوفى عام ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م ) قد طلب من ابنه مسعود أن يقسم على أنه لن يقاتل شقيقه محمد بعد موت والدهما محمود ، وقال له مسعود: " سوف أفعل ذلك بمجرد أن يقسم سيدنا محمود أنتى لست ابنه " ، وسأله محمود قائلاً له : " كيف يكون ذلك ؟ " ، وأجابه مسعود قائلاً : " لأننى لو كنت ابنه لكان لى الحق فى المطالبة بخراسان والثروة ( التى تم تخصيصها لمحمد ) ، ويعد جدال طويل قال له محمود: أقسم لى أنك لن تتزوج من الديلميين أبدا " ، ووافق مسعود على هذا (القسم الأقل تقييدا له) (٥) .

وهكذا كان نظام الإيمان مقبولا عالميا وأساسيا للغاية لكثير من أشكال العمل السياسى بحيث لا يمكن لأى قائد أن يقدم على تجاهله طويلا ، وكأن الحاكم البويهى بهاء الدولة ( المتوفى عام ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ) - الذى عرف عنه أنه حنث بيمينه مرات عديدة - رجلاً بلا أخلاق ، ولكن على نحو عملى بعض الشئ، ولذا فليس بالمثير للدهشة أن نراه فى الحكاية التالية ينحنى أمام الآمال العامة للمجتمع ويتظاهر بأنه يتعامل مع الإيمان التى فرضها الآخرون عليه بجدية كبيرة، فقد حدث أن هرب

أبو على ابن إسماعيل - الوزير الموهوب لبهاء الدولة الذي أخزاه ذلك الملك - من السجن في عام ٣٩٢هـ / ١٠٠٢م ، وبعد مرور مدة قصيرة عليه وهو طليق أراد العودة إلى المدينة العاصمة شيراز في أمان ؛ ولذا أرسل رسولا إلى بهاء الدولة يطلب منه منحه ضمانا أمان مصدق عليها من أبي أحمد الموسوي أحد كبار العلويين ؛ ووافق بهاء الدولة على الرغم من أنه طلب ألا تكون الوثيقة " شاملة " ، ومع ذلك فقد أتاح الرسول يمين كتابي طويل ، وعلى الفور لاحظ بهاء الدولة أن المقصود كان جعل ذلك اليمين شاملا ، وبدأ يقرأه بصوت عال ثم توقف في منتصفه كي يسأل سؤالا ، وهنا قبل الرسول الأرض أمام الملك وطلب منه مستعظفا ومتوسلا أن يعيد القراءة من البداية على نحو متصل ودون توقف حتى ينتهي من قراءة اليمين كاملا ، ورغم أن الغضب تملك بهاء الدولة إلا أنه أعاد قراءة الوثيقة ثانية دون توقف؛ وفي نهاية الوثيقة كتب: " لقد حلفت هذا اليمين واتعهد بمراعاة شروطه " (٦).

وتوضح هذه القصة الجديدة التي أخذ بها الناس في تلك الفترة حتى يمين حاكم فاسق نسبيا كبهاء الدولة ، ومما لاشك فيه أن رسول أبي على علم أن الملك كان غادرا ومع ذلك فقد خاطر بإغضاب الملك للتأكد من أن اليمين كان سليما فنياً عند قراءته دون توقف ، كما أنه كان يعلم أيضا بالجديّة التي سوف يأخذ بها أبو أحمد الموسوي اليمين وأن بهاء الدولة قد يجد نفسه مقيدا وغير قادر على الخيانة ؛ نظرا لخشيته من الحرج مستقبلا أمام هذا الزعيم الموقر لأسرة على ، وكانت الأهمية البالغة للأيمان على وجه الدقة بالنسبة لمثل هؤلاء الرجال ذوي الهيبة هي ما أتاح لليمين أن يظل شكلا رئيسيا للعمل السياسي برغم وجود ملوك غير شرفاء كبهاء الدولة .

وعندما عاد محمد بن عمر - وهو أحد المنحدرين من نسل على الأغنياء ذوي المكانة السياسية الرفيعة ولكنه كان أقل وقارا - من " الأهوار " في جنوب العراق في عام ٣٣٨هـ حيث كان قد طلب الملجأ خلال فترة من فقدان الحظوة فقد ضمن الأمان لنفسه عن طريق الحصول على يمين بخط يد بهاء الدولة ، حيث كتب حاكم الأهوار مهذب الدولة في نهاية الوثيقة إن " النوايا الحسنة تجاه الشريف ( محمد بن عمر ) مرهونة بالنوايا الحسنة تجاهي والخيانة له ، فإذا حدث أي انحراف عن العهد المأخوذة هنا فلا عهد لبهاء الدولة في عنقي أو بيعتي " ، حتى الرجال الذين لم يخشوا الله كأن لديهم ما يبرر خشيتهم من شهادة كهذه (٧).

## البيعة أو يمين الولاء :

إذا كان بعض الناس قد حلفوا على أنفسهم مسبقاً أو تجنبوا الأيمان أو خشوا الأيمان المقيدة بأيمان مخيفة فقط فإن معظم الرجال يبدون على أنهم قد أظهروا احترامهم الواضح للأيمان بتعظيمها، والبيعة هي أحد أشكال الأيمان التي أوردنا لها وصفاً مختصراً وهي يمين الولاء الذي أشار إليه الخليفة المقتدر في رسالته إلى جيشه. وكانت البيعة تستخدم لحلف يمين الولاء للملوك وكذلك الخلفاء ، وكانت يميناً معروفاً باكتمال نصوصه وعواقبه ؛ ولذا فنحن نقرأ أحياناً عن يمين شخصى تم حلفه " مع أيمان البيعة " (٨) ، ومع ذلك كانت البيعة بمعناها المألوف يمين الولاء ، ولم يكن هناك خلط بينها وبين الأيمان الأخرى، وعلى سبيل المثال فالضباط الذين قتلوا الخليفة المقتدر اختاروا القاهرة كى يكون خليفته القادم ؛ وعندما استوثقوا منه بالأيمان والعهد أقسموا يمين الولاء والمبايعة له " - وهذه شهادة بليغة على أنه لم تكن هناك وسيلة أفضل للاستوثاق من الناس من اليمين الرسمية (٩).

وبحكم التقليد والعرف أصبحت البيعة مميزة عن مجرد عهد خاص. فمئذ أن تمت البيعة لأول خليفة عند وفاة محمد ( ﷺ ) كانت البيعة عرضاً تطوعياً للولاء للحاكم. وقد جعلت النظرية التي ظهرت فى وقت لاحق - ذعاناً للممارسة اللاحقة شبه العالمية - من البيعة للخليفة اعترافاً عاماً وشعبياً بالحكم القائم بصورة أكبر وهو نوع من " الإجلال والتقدير " ، وكانت هناك مزاعم بأن السبيل إلى تحاشي الانقطاع الخطير لتسلسل الخلفاء هو قيام بضعة أشخاص بالمبايعة مباشرة لولى العهد وذلك حول فراش الخليفة المتوفى. ولذا كانت بقية المجتمع الإسلامى تحلف يمين البيعة كيمين ذى قبول عام لخلافة ولى العهد هذا ، ومع ذلك فقد كان من الصعب إثبات أن مثل هذا التبرير يمكن أن يشمل حلف أيمان البيعة للأمرأ ؛ الذين غالباً ما كانوا يدينون بحكمهم لفتح البلدان وأوجدوا حالة سيئة من الاضطراب والفوضى تماماً مثلما يحدث فترة خلو العرش ، وذلك بسبب طموحاتهم العسكرية، ولذلك ففي المرة الأولى التى يقوم فيها أى شخص يحلف مثل هذا اليمين لحاكم أو مدعٍ فإن بيعته للأمير عادة ما كانت تعد شيئاً يفوق الإجلال والاحترام لخلافة قائمة (١٠).

وظل تلقى البيعة علامة على ادعاء المرء أحقيته فى السلطة العسكرية وليس مجرد الحكم " المفوض " ، وكان ذلك بالطبع فى إطار النظام الذى فوض الخلفاء بموجبه

الأمراء فى تولى مثل هذه السلطة، وفى الفترة التى منح فيها الخليفة السلطة المستقلة لأمير الأمراء فى عاصمته بغداد حاول الوزير ابن شيرزاد أثناء فترة قصيرة لخلو السلطة عقب وفاة توزون فى عام ٣٢٤هـ / ٩٣٥م أن ينصب نفسه نداءً للأمير، وكان بالفعل رئيساً للإدارة المدنية، لكنه أذاع ما ادعاه لنفسه، وحاول تنفيذه عن طريق أخذ البيعة لنفسه من الجيش بأكمله فى بغداد، وقد ظل "وزيراً" قبل هذه الحادثة، لكن لقب وزير لم يكن ينبئ بصورة فعلية عن أى ادعاء للأحقية فى التبعية العسكرية المستقلة؛ ومن الواضح أن أخذ المرء البيعة لنفسه كان يؤكد مثل هذا الادعاء، ومما لا شك فيه أن الأسر الحاكمة شبه المستقلة فى العهد العباسى قد نقلت بالفعل البيعة من العالم السياسى للخلافة إلى عالم الملكية، وعلى سبيل المثال فقد أخذ السامانيون البيعة ليس لأنفسهم فحسب وإنما لولاء عهدهم أيضاً مثلما فعل الخلفاء.

وسار البويهيون على هذا النهج واعتبروا البيعة وسيلة فعالة لضمان ولاء مؤيديهم الناشطين، وعندما توفى عضد الدولة أخفى خدمه نبأ وفاته وأخبروا ابنه شرف الدولة بأنه قد تم تعيينه ولياً للعهد فى الوقت الذى كان سيصبح فيه أخوه نائباً لحاكم فارس، وبعد ذلك تمت كتابة رسائل بهذا المضمون باسم الخليفة عضد الدولة إلى جميع الأمصار ومع كل رسالة كانت هناك نسخة من يمين البيعة الذى سوف يحلفه القادة والضباط ورجالهم، ولم يعلن الخدم وشرف الدولة نبأ وفاة عضد الدولة إلا بعد اتخاذ مثل هذه الترتيبات<sup>(١١)</sup>.

وقد أخذت الأسر الحاكمة الجديدة البيعة فى بعض الظروف من بلد، وكان القيام بذلك يعنى بالطبع أخذ البيعة من قادة البلد وجنودها المتطوعين نظراً لأنه لم تكن هناك أية مجالس بلدية يمكن أن تحلف اليمين نيابة عن أعضائها، ومع ذلك فقد كانت البيعة تؤخذ بوجه عام من الأولياء الذين كانوا يستخدمون فى واقع الأمر كممثلين للأسرة الحاكمة: كبار المسؤولين وقبل كل شئ الجند، وكانت البيعة تحمل فى طياتها تعهداً حقيقياً، ولم يكن الجند يعطون البيعة إلا بعد طول أناة وروية، وربما كان الضباط يشيرون إلى ماعقدوا عليه النية من نبذ الولاء والسعى وراء سلطة عسكرية مستقلة عن طريق أخذ البيعة لأنفسهم على نحو مفاجئ كما فعل مرداويه عندما أغرى الجيش بالتحول عن موالاة أصفر، ومع ذلك فإذا كان أحد القادة يعتزم الدخول فى خدمة حكومة ملكية جديدة - كما كان يحدث فى أغلب الأحيان - كان يأخذ البيعة علانية من

جنده لإلزامهم بسياسته الجديدة على نحو فردي، وهكذا فقد قرر ابن محتاج عندما كان في المنفى في أحد الأقاليم الخاضعة للبويهيين عام ٣٣٤ هـ أن يؤيد رفيقه المنفى المدعى الساماني إبراهيم فأخذ البيعة لإبراهيم من رفاقه من الجند في المنفى على الرغم من أن إبراهيم لم يكن قد انضم إليه بعد .

ونظراً لأن البيعة كانت تحمل التزاماً حقيقياً لم يكن الجند يرغبون في منحها رخيصة، وعادة ما كان الجيش يطلب من الخليفة زمن العباسيين " الدفع المعتاد نظير يمين الولاء" أو " رسم البيعة " نظير اليمين الرسمي ، وكان الجند يأخذون نفس الرسم نظير حلفهم يمين الولاء الأول لأي ملك بويهى، وكان الجند يرفضون أحياناً تعهداً مؤقتاً أو غير رسمي إذا لم يحصلوا على مبلغ يرضيهم من المال نظير ذلك، وعلى سبيل المثال فعندما توفي جلال الدولة في عام ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م كان ابنه الملك العزيز في مدينة واسط المجاورة ، لكنه لم يستطع إرضاء حامية بغداد فيما يتعلق بما سوف يدفعه لها مقابل بيعتها ، ولذلك لم يستطع احتلال بغداد أو توطيد مركزه أمام أبي كالحجار أحد البويهيين الأكثر ثراء ؛ والذي قدم له الجند ولاءهم في نهاية الامر (١٢).

ولذا فليس بالمستغرب أن كانت الأيمان جزءاً ضرورياً من المؤامرات السياسية. وبالطبع كانت الأيمان أساسية لأية مؤامرة نظراً لأن إقرارات اليمين كانت الوسيلة الوحيدة لضمان الولاء عندما كانت كافة الإقرارات الأخرى تخص الحكومة القائمة، لكن الأيمان كانت أيضاً الوسيلة الرئيسية للتعبير عن الولاء السياسى وكان من الطبيعي أنه يجب على الرجال حلف اليمين لقائدهم القادم والذي سوف يجدد مع البيعة العامة عندما تتجج المؤامرة ، وفي مؤامرة نموذجية من هذا النوع تأمر عبد العزيز بن يوسف الذي كان مبغضاً لوزارته المشتركة مع ابن بارمويه لسمسم الدولة في عام ٣٧٥ هـ مع أحد كبار قادة الجيش على تولية أبي منصور ( بهاء الدولة فيما بعد ) حكم العراق كنائب لأخيه شرف الدولة بدلاً من سمسم الدولة وتنفيذاً للمؤامرة حصل كبير القادة على " موثيق الأيمان " من جنده لتأييد سياستها وأخفقت هذه المؤامرة عندما هزم القائد وأتباعه. وفي مؤامرة أكثر نجاحاً أعد الوزير ابن عباد أثناء مرض مؤيد الدولة العدة لتولية فخر الدولة واتخذ الترتيبات اللازمة برغم التعليمات المناقضة لذلك في وصية مؤيد الدولة وشهادته، وفي تلك الأثناء أرسل الوزير بعضاً من رجاله الثقات للحصول على يمين الوفاء بالعهد الذي ينظم الخلافة الجديدة من فخر الدولة (١٣).

وحتى عندما لم يكن يتم اختيار الحاكم سرّاً ويجتمع الجند علانية - كما تقول المصادر في أغلب الأحيان - وذلك " لاختيار أمير " فقد كان هذا الاختيار يتأكد أغلب الظن في كل حالة بواسطة شكل ما لليمين، ونقرأ على سبيل المثال أنه عندما حدث في منتصف القرن العاشر الهجري أن وجد جند أحد الجيوش السامانية المحلية في غزنة أنفسهم دون قائد اجتمعوا وقارنوا بين اختياراتهم ، واختلفوا بادئ الأمر، وفي النهاية اتفقوا على تولية أمرهم لـ " سابوكتاكين " وحلفوا يمين الولاء، وكان هذا العمل فاتحة لعهد الأسرة الغزنافية الحاكمة والتي سوف يدوم حكمها على مدى قرنين من الزمان<sup>(١٤)</sup>.

### اليمين بين الخلفاء والأمراء :

من بين الأيمان بين الرجال الذين كانوا يتولون سلطة ما قائمة بالفعل لم يكن هناك ما هو أفضل توثيقاً من السلسلة المعقدة للأيمان التي ربطت بين الأمير البويهى والخليفة العباسى معاً، وكانت العلاقات بين معز الدولة أول أمير بويهى لبغداد والعباسيين مشوبة بالشك والريبة بادئ الأمر، وعندما وصل معز الدولة إلى بغداد أخذ البيعة للمستكفى في وجود الخليفة وحلف له بأغلظ الأيمان ، وحلف الخليفة في المقابل لعلى بن بويه ( أكبر البويهيين سنّاً ) وأخويه وتم التصديق على وثيقة تحوى أيمانهم. وقد يبدو غريباً أن معز الدولة لم ينله الخزي والعار اللذان لحقا باسم توزون ؛ نظراً لأنه قام بخلع المستكفى بعد مرور بضعة أشهر، ولكنه كان معلوماً على نطاق واسع أن معز الدولة اعتقد بأن المستكفى كان يتآمر ضد الحكم البويهى ولذا شعر بالتحلل من يمينه، وعلاوة على ذلك فقد وصل المستكفى إلى سدة الخلافة عن طريق الاشتراك في جريمة توزون ضد المتقى مبرهنناً بذلك على أنه هو نفسه - شأنه شأن غيره من العباسيين - « رجل لا يؤمن جانبه ». وعلى أية حال فقد كان الغدر الناجح بأحد الخلفاء يحمل دوماً في طياته العفو حيث كان الخليفة القادم ملزماً دوماً بمباركة هذا العمل الذى أتى به إلى العرش علانية ، ورغم ذلك فقد قرر معز الدولة الذى كان لا يزال متشككاً مبدئياً فى أى عباسى فى عام ٣٥٥هـ أن يستوثق أكثر من مرشح المطيع لله . فقام بحبس الخليفة وجعله يحلف بعظيم الأيمان ألا يفصل نفسه عن الأمير البويهى ، أو ينحاز إلى أعدائه ، أو أن يضم مقاصد شريرة وعند ذلك فقط أطلق سراح المطيع لله، ومهما كان ما فعله بالمستكفى فمن الواضح أن معز الدولة كان ما يزال يؤمن بقيمة الأيمان<sup>(١٥)</sup>.

ومنذ ذلك الوقت فصاعداً أخذ الخلفاء والأمراء البويهيون يتبادلون بشكل منتظم أغلظ أيمان الإخلاص وحسن النوايا عند تبوء المناصب وعند منح رخص تقليد المناصب. كما تبادلوا أيضاً مثل هذه الأيمان عند التعرض لتهديدات ، عندما كان الخليفة والأمير يشعران بأنهما ملزمان بطمأننة كل منهما الآخر كما حدث عندما اكتشف مشرف الدولة أن الخليفة قد خامره الشك - دون سبب - فى أن الأمير البويهى يعتزم خلعها فى عام ٤١٥هـ / ١٠٢٤م ، ونجد أن أكثر الأيمان تنميكا وإثارة للاشمئزاز التى تبودل حلفها بين خليفة وأمير كانت فى عهد الخليفة مشرف الدولة جلال الدولة الذى طالت معاناته ( ٤١٦هـ / ٤٣٥م ). وكان الخليفة قد استعاد فى ذلك الوقت مقدارا معيناً من السلطة ومع ذلك لم يستطع الخليفة أو الأمير العيش دون مساندة الآخر. وكما حدث فى أغلب الأحيان فى العهد البويهى عندما كانت هناك تبعية وشك بين الأنداد المتقاربين فقد استخدمت مجموعة معقدة من الأيمان لإعطاء شكل للأنواع الملزمة من الالتزام وجعلها قابلة للتنفيذ، وقد أقر الخليفة القادر بثقل هذه الالتزامات ، ومن المحتمل أنه أقر أيضاً بأنه على الرغم من أن الخليفة قد أصبح فى مثل قوة ونفوذ الأمير البويهى ؛ الذى كان يحكم فى بغداد جنباً إلى جنب معه ، فقد كان من السابق لأوانه تماماً أن يحاول الخليفة ممارسة سلطة عسكرية مستقلة فى تحد للممالك البويهية المجاورة .

وعندما توجه الجنود الأتراك إلى قصر الخلافة فى بغداد فى عام ٤١٨هـ / ١٠٢٧م وقدموا ولائهم للخليفة بشكل مباشر ، لكن الخليفة لم يقبل بذلك وكان رده : " أنتم أبناء دولتنا ... (و) قد عقدتم عقداً مع أبى كاليجار ، وإن يكون من الملائم الحل منه .برضاً. والبويهيون لهم عهد فى رقابنا وليس لنا أن نتجاهلها. " ، ومن المحتمل أن الخليفة قد رفض عرضهم لأسباب حقيقية تتعلق بالضمير ، وكذلك لأنه كان كارهاً لأن يصبح جزءاً من اللعبة السياسية التى كانت خسارته فيها أكثر من مكسبه. ومع ذلك فقد عمل فى هدوء على تقوية مركزه بتذكير الجند أنهم قد يكونوا يوماً ما مخلصين ومكرسين أنفسهم لمصالح الخليفة فحسب مثل الجيش العباسى الأول من أبناء الدولة الأصليين وعن طريق عرضه الكتابه نيابة عنهم إلى أبى كاليجار وهو ما أعاد تأكيد الانطباع عن أن الخليفة وسيط أمين فى عالم من الرجال عديمى الضمائر<sup>(١٦)</sup>.

وبعد تردد أبي كاليجار على نحو متكرر وصل جلال الدولة أخيراً إلى بغداد حيث حاول بشكل متواصل ولم ينجح تماماً أبدأً في إيقاظ الولاء بشكل فعال لدى نفس هذه الجماعة من الجنود الأتراك ، وقد تحول الجند إلى الخليفة أكثر من مرة ؛ ولهذا السبب وغيره من الأسباب ففي تلك الفترات التي كانت له فيها اليد العليا قام جلال الدولة بجعل الخليفة يحلف بعبارات مفصلة وشاملة للإخلاص ، وفي عام ٣٢٤هـ / ١٣٠١م تبادل جلال الدولة والخليفة القائم الأيمان ، ونحن محظوظون بحق أن توافر لدينا النص لمعظم ما ورد في يمين الخليفة : فقد أقسم القائم بأمر الله أمير المؤمنين قائلاً " أقسم بالله وبحق رسوله محمد أن أستمّر في إخلاص النية والصفاء لركن الدين جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة أبو نصر ، ملتزماً بشروط التأييد والإخلاص دون التقصير في أي أمر يمكن أن يكون نافعاً لمنصبه ويحفظ له منزلته ، وسوف أكون يقظاً حذراً كما يرغب لحمايته في شخصه وكل ما يرتبط بذلك . وسوف أقوم بذلك تجاه وزير الوزراء أبو القاسم ( بن مأكوله ) وحاشيته ، وسوف أقوم بذلك للإبقاء عليه في رتبته ، عهد الله تجاهه فرض على ، وكذا ميثاقه ، وكل ما افترضه من موثيق لملائكته المقربين وأنبيائه الذين بعثهم رسلاً والله شاهداً ... " وهنا كما هو الحال في العديد من الحالات الأخرى يستمد اليمين بعضاً من قوته عن طريق التصريح بشكل مباشر بأنه كان جزء من النظام العالمي للموثيق والعهد بين الله والناس والملائكة والذي حافظ على النظام الأخلاقي للعالم (١٧).

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن عدد المشتركين المذكورة أسماؤهم في الأيمان كان في تزايد جنباً إلى جنب مع سلسلة الأشخاص المرتبطين بالأيمان وذلك في العالم الفوضوي للعراق البويهى المتأخر، لكن جلال الدولة وجد أنه بقدر حاجته إلى مثل هذه الأيمان فإن تبعاتها يمكن أن تجرده من تلك السلطة الضئيلة التي قد تخلق عنها. وعندما ألقى جلال الدولة القبض على وزيره عميد الدولة في عام ٤٢٠هـ رفض الخليفة والجنود الأتراك الصفح عن هذا العمل على أساس الأيمان التي حلقوها هم أنفسهم والتي حلفها جلال الدولة للوزير ؛ ولذا فقد أعيد الوزير إلى منصبه، وكان الخليفة وفيًا لأيمانه التي حلفها للملك الرحيم آخر الملوك البويهيين وأرسل مندوبه إلى طوغرل بيغ قبل دخوله بغداد لحمل الفاتح السلجوقي على أن يحلف للخليفة والرحيم، ولم يكن

ال خليفة بحاجة إلى إشراك البويهيين الذين كانت مواردهم لمقاومة السلاجقة مثيرة للسخرية ؛ ، ولم يكن لدى طوغرل الذى أراد أن يظهر نفسه على أنه المناصر والمؤيد لمصلحة الخليفة ضد البويهيين أى مبرر للإعجاب بوفاء الخليفة وإخلاصه لذلك الحلف القديم، وعلى أية حال فقد احترم طوغرل شأنه شأن غيره من القادة الغز الأوائل مركز الخليفة ومكانته لكن احترامه للأيمان كان ضئيلاً ، فبعد دخوله بغداد ألقى القبض على الرحيم دون أن يشعر بوخز الضمير على ما يبدو (١٨).

### الأيمان بين الأمير والمسئولين :

ولم تكن هذه المناشدات الواسعة التى ظهرت فى نهاية العهد البويهى سوى ذروة الممارسة القائمة منذ زمن طويل ، والتى تأكد أعضاء الإدارة وفقاً لها من ولاء بعضهم البعض وتجنبوا آثار التنافس المفرط ، وأحياناً كان الأمراء والوزراء يتبادلون النذور عندما يكون الوزراء أقوى وأقوى نفوذ على غير العادة كما فعل جلال الدولة ، وكما أسلفنا فقد تبادل فخر الدولة الأيمان مع وزيره عندما أتى به ابن عباد إلى العرش . ولم يكن لدى عز الدولة الذى حكم فى مطلع العهد البويهى مبرراً مماثلاً لأن يصبح مديناً بالفضل لوزيره بشكل رسمى، ومع ذلك فنظراً لعدم كفايته كان عز الدولة مجبراً على أن يتبادل الأيمان مع العديد من المسئولين التابعين له ؛ نظراً لأنهم كانوا يخشون ما يمكن أن يفعله ورغم ذلك أقروا بمدى اعتمادهم عليه فى المقابل ، وفى عام ٣٦٠هـ طلب وزيره الشيرازى يمينا وحصل على يمين غموس مع كل أيمان البيعة التى حلفت أمام ضباط الجيش والقضاة والقادة على أن عز الدولة لن يعود ثانية أبداً إلى تعيين منافس معين للوزير فى أية وظيفة إذا لم يتم الكشف عن هوية هذا الموظف فى غضون شهر، وفى عام ٣٦٢هـ حلف عز الدولة وقائد قواته يمينا مؤكدة على أن يكونا أصدقاء، وبعد أن أعيد عز الدولة إلى السلطة تبادل وزيره ابن باقية الذى كان الأرجح عقلا من بين الاثنين أيمان حسن النوايا مع الملك فى عام ٣٦٤هـ (١٩).

وعلى الرغم من أننا نسمع المزيد عن الأيمان التى شملت الملك نفسه فلدينا دليل على أن الأيمان كانت سمة رئيسية للحياة فى المستويات الأخرى للإدارة ، وكان المسئولون الذين يتنازعون مع بعضهم البعض يعلنون صدق تصالحهم عن طريق تبادل

الأيمان، وغالباً ما كان يتم تبادل مثل هذه الأيمان لإطلاق سراح أحد القادة أو مسئول آخر قد يضر ضغينة ضد الإدارة التي أُلقت به في السجن ، أما الأيمان بين المسؤولين الذين لم تكن بينهم نزاعات والذين كانوا يريدون رغم ذلك الاعتماد على مساعدة بعضهم البعض لاجتياز التقلبات المستقبلية للحياة العامة فمن المرجح أنها كانت شائعة بالرغم من أن التصديق عليها كان أقل إلى حد بعيد في أغلب الأحيان . ونحن نعلم أنه عندما كان المسئولان الحسن بن هارون و المهلبى من بين أقوى المرشحين لخلافة السيمارى كوزير فى عام ٣٣٩هـ فقد تبادلوا حلف الأيمان على أن يساعد كل منهما الآخر دون النظر إلى من منهما قد يحصل على الوظيفة. وحسب علمنا فقد التزما بهذه الأيمان. ولابد للأيمان المشابهة من أن تكون قد أدت إلى تماسك وترابط الأجزاء المركزية الداخلية لطوائف المسئولين ذات السطوة والنفوذ منذ زمن العباسيين وطوال العهد البويهى وما بعده ، ولم يكن لدى المسئولين أى مبرر للكشف عن مثل هذه الاتفاقات ولكن كان لديهم كافة المبررات لإخفائها عن الملك الذى كان يفضل أن يتسنى له الرفع أو الحط من شأن أحد المسئولين دون أن يعترض سبيله الحلفاء السريون لذلك المسئول ؛ ولذا فليس بالمستغرب ألا يكون هناك أى ذكر تقريبا لهذه الأيمان فى المصادر (٢٠).

وربما تكون الطوائف قد نمت وازدهرت أيضاً فى الجيش بفضل الأيمان السرية. ونحن نعرف أن الجند غالباً ما كان يتم إشراكهم فى المراسم العامة التى كان يحلف فيها عدد كبير جداً من الضباط ( وربما الجند من كافة الرتب ) على الصداقة بين بعضهم البعض، وقد حدثت واحدة من مثل هذه المناشدات فى نهاية العهد العباسى عندما خشى الفوج الساجى فى عام ٣٣٢ هـ من قيام الخليفة بالقبض على قائدهم ؛ والتقى ضباطهم مع قادة الفوج الحجارى الذى كان حليفاً محتملاً للخليفة وتحالف ضباط الفوجين على العمل المشترك ، " وبعدها أخذ الضباط اليمين من بقية الفوجين على العمل المشترك أيضاً. "، ويمكن افتراض أن المناشدات الشاملة الأخرى بين الجند قد أتت نفس الأنماط ؛ وكانت ماتزال أيمان بين أفراد بشكل أساسى لكنها كانت تؤخذ بين عدد كبير من الأفراد لضمان أنه يمكن لهم الاعتماد على مساعدة بعضهم

البعض، وقد أوضح عز الدولة الطبيعة الشخصية لهذه الأيمان الشاملة عندما استخدمها لإنهاء الأعمال العدائية بين جنوده الترك والديلميين فى عام ٣٦٠ هـ ، وقام بالترتيب لتكوين الأحلاف بين الطرفين عن طريق الزواج بين الطرفين وجعل الجند من كلا الطرفين فى كلا الحلفين يخلفون يمين الولاء لضباط الطرف الآخر ، وبالمثل فعندما نشب القتال بين الأتراك والديلميين فى عام ٣٧٩ هـ وانضم بهاء الدولة إلى الأتراك لكونهم الجانب الأقوى أدرك كلا الطرفين أن خسائهم تفوق مكاسبهم من جرأ هذا القتال ؛ واتفقا على عقد الصلح والسلام " وحلف كل منهما الأيمان للآخر. "، وكما لاحظنا فمثل هذه الأيمان يمكن حلفها أثناء فترة خلو العرش ويمكن - كما فى حالة الغزنائيين - أن تصبح أول اتفاق رسمى قد تنشأ عنه أسرة حاكمة جديدة (٢١).

وامتدت الأيمان عبر الترتيب الهرمى للحكومة واستخدمت فى بعض الحالات لضمان إذعان القادة المحليين، وعندما سار جند عضد الدولة من جيريفت فى كيرمان إلى الخليج الفارسى مروا عبر مناطق لم تكد ترى جيشاً من المسلمين من قبل وقدم أهل المنطقة التى تم فتحها فروض الطاعة والخضوع ، ووافقوا على اعتناق الإسلام وحلفوا الأيمان على ذلك، ورغم ذلك لم يمض وقت طويل على ذلك حتى أعلن البلاوس (البالوشى) بتلك المنطقة وهم أشجع القبائل المحلية "وأشدها كفرا" عصيانهم وشق عصا الطاعة ونقضوا العهود التى كانوا قد قطعوها على أنفسهم، وعندما فعلوا ذلك أصبح عضد الدولة مقتنعا بأنه ليست هناك أية وسيلة لإصلاحهم، وفى تلك المرحلة تولى عضد الدولة بنفسه القضاء على البالوشيين على نحو نظامى أكبر ، وقام بنقل الباقين منهم على قيد الحياة إلى منطقة جديدة .

وقد أخذ السكان المتكاملون بصورة أفضل داخل النظام السياسى فى تلك الفترة أيمانهم بمزيد من الجدية، وبذلك أظهروا أنفسهم على أنهم أكثر "تحضرا" من الوثنيين الكفرة كالبالوشيين ، وعندما قام هبة الله - وهو أحد الأمراء الحمدانيين - بقتل مسئول مهم من مسئولى عمه سيف الدولة فر إلى مدينة حاران فى بلاد ما بين النهرين ، وأخبر أهل المدينة كذباً بأن سيف الدولة قد توفى ، وطلب منهم أن يحلفوا له

على أنهم سوف يقاتلوا معه ضد أولئك الذين قد يقاتلونه ، وعقد الصلح والسلام مع من سالمه ، وحلفوا له على القيام بذلك مع التحفظ في يمينهم أنهم لن يقاتلوا سيف الدولة ، نظرا لأنهم لم يصدقوا قصة الأمير كاملة ، ورغم شكوكهم فقد التزموا بيمينهم رغم ما كان ينطوي عليه من مخاطرة جسيمة وأغلقوا أبواب المدينة في وجه أحد مسئولي سيف الدولة، وعندما أدرك هبة الله فيما بعد أنهم سرعان ما سوف يسمعون بأن عمه سيف الدولة مازال حيا فر هاربا وترك أهل المدينة كي يواجهوا مصيرهم حيث دفعوا ثمناً باهظاً نظير كرمهم ووفائهم بيمينهم (٢٢).

### أيمان المعاهدة :

لقد شكلت أيمان المعاهدة صنفاً آخر من اليمين الرسمي الذي لعب دوراً بارزاً للغاية في الأسلوب السياسي في تلك الفترة، فإذا كائن هناك حاكمين لم يحلف كل منهما الأيمان للآخر، فهذا يعنى أنه لم تكن هناك أية معاهدة بين المملكتين وإنما "حالة لأحرب" فحسب ، وبالطبع كان حكام تلك الفترة مقيدون إلى حد ما بأقاليمهم من خلال أيمانهم بالولاء للخليفة الذي أعطاهم العهود لهذه الأقاليم ، ولم يكن من المفترض لأولئك الحكام الهجوم على جار لديه عهد صحيح على حد سواء ، وبينما كان العباسيون ما يزالون يمارسون بعضاً من السلطة العسكرية فقد استخدمت تلك الحجة من قبل حكام شبه مستقلين في نزاعاتهم، وفي تلك الفترة أيضاً لم يكن الخليفة العباسي يترفع عن منح العهود الخاصة بنفس الإقليم لحاكمين في آن واحد ؛ وبعد أن فقد العباسيون السلطة العسكرية أدرك الجميع أن مثل تلك العهود كانت ببساطة إقرارات بحقيقة الفتح ( أو لنوايا أمير بغداد البويهى).

وكانت أيمان المعاهدة بين الأنداد أحياناً وفي أحيان أخرى كانت تنطوي على السيادة ، وكانت تتم الشهادة عليها علانية بشكل شبه دائم من قبل أصحاب المقام الرفيع مثل الخليفة والقضاة وكتاب العدل والشهود ووجهاء القوم، وبهذه الطريقة كان كلا طرفي المعاهدة يحصلان على تأكيد كامل أن جارهم البعيد قد حلف بالفعل على الاتفاق .

وعلاوة على ذلك فقد أضاف إدراك كلا الطرفين للخزى والعار المرتبطين بالفضح العلنى كحانت باليمين قوة كبيرة إلى يمين المعاهدة .

وتتضح أهمية الشهادة العلنية لأيمان المعاهدة من خلال التعليمات التى أصدرها الداهية أبدا عضد الدولة للقضاة الثلاثة الذين أرسلهم كمبعوثين إلى السامانيين فى عام ١٧٣هـ ، حيث أخبرهم بأنهم إذا نجحوا فى عقد الصلح والسلام مع القائد السامانى فى نيسابور فعليهم بالتوجه إلى العاصمة السامانية بخارى وأن يعقدوا اتفاقاً بمحضر من القضاة ، وكتاب العدل الشهود ، وكبار رجال الحاشية ، والمسئولين والغازين (المقاتلون المتطوعون ضد الحكومات غير المسلمة ) وعظماء الإقليم ؛ كى يشهدوا على أن الحاكم السامانى قد وافق بالفعل على عقد الصلح والسلام ، وعندما تم إعداد مثل هذه الاتفاقات تم استخراج نسختين منها - على ما يبدو - اختتمت كل واحدة منهما بيمين من أحد الحاكمين مشروط بأخذ يمين مماثل من قبل الحاكم الآخر (٢٣) .

وكانت جميع الأيمان المذكورة سابقا بين أشخاص حقيقيين ، وعلاوة على ذلك فقد كانت بين أشخاص حقيقيين موجودين فى هذا العالم ( وكان الله شاهداً عليهم دون ريب ) ، فلم يكن يتم حلف أى من هذه الأيمان بين شخصين - مثلاً - نيابة عن المنحدرين من نسليهما ، ولم يكن أى منها بين رجل وشخص اعتبارى كالبدية أو العشيرة أو المدرسة ، وعندما توقع الناس لإحدى المدن أن تخضع عن طريق وجهاء القوم فيها لم يكن ذلك ؛ لأن أولئك الوجهاء يمكنهم أن يلزموا أتباعهم بأيمانهم على نحو شرعى ولكن لأن أولئك الوجهاء يمكنهم الاستغناء عن تعاون أتباعهم الملزمين تجاههم بولاءات أخرى ، ولم تكن الأيمان التى أخذها وجهاء القوم أيمان لـ " لدولة " ، فلم يكن هناك مثل هذا الشخص الاعتبارى الذى يمكن للمرء أن يتبادل معه الأيمان . حتى الجيل الأول من البشر وهم أبناء آدم لم يكن بمقدورهم فى اليمين الأول الذى كان مثلاً وضماناً ألقى بظلاله على جميع الأيمان اللاحقة أن يحلفوا نيابة عن جميع المنحدرين من نسلهم للإقرار بسيادة الله وسلطانه الأبدى ، وكان لازماً أن يولد سائر البشر مستقبلاً على هيئة ذرية حتى يتسنى لهم أن يحلفوا الأيمان على نحو فردى .

## النذر

النذر بطبيعته وثيق الصلة باليمين ، وكما لاحظنا فقد كانت الأيمان الطريقة الوحيدة تقريباً التي قبل بها المسلمون فى تلك الفترة - وبشكل رسمى - تعهدات والتزامات جديدة تجاه بعضهم البعض ، وفى نظر القانون كانت معظم التعهدات الرسمية قد عُقدت مؤخراً بواسطة كل فرد ، ولم تنتقل إليه بفضل الإرث أو مكانة ما اكتسبها ذلك الفرد عن غير قصد ، وكان للنذر وظيفة تتصل بذلك ؛ فالنذر يتبع أسلوب اليمين عدا كونه من جانب واحد حيث يحلفه شخص واحد لله بدلاً من حلفه بين شخصين يكون الله شاهداً عليهما ، ولدينا دليل وافر على أهمية الأيمان للعمل السياسى ، لكن هناك دليل أقل نوعاً ما بالنسبة للنذر ، وهذا ليس مدعاة للدهشة ؛ نظراً لأن النذر بطبيعته يكون أكثر خصوصية .

ويوضح ما لدينا من دليل أن النذر لابد أنه كان طريقة شائعة للغاية لتقرير وإعلان تعهد ، وربما كان أكثر أهمية من اليمين الرسمية ، ومما لا ريب فيه أن النذر " الخاص " حيث التعهد بالعمل بطريقة معينة لا يؤثر بشكل مهم على أى شخص عدا الناذر مازال يشكل جزءاً أساسياً من الحياة الروحية للكثير جداً من الناس فى الشرق الأدنى ، ومثل هذه النذور " الخاصة " لا يمكن أن تؤثر بشكل مباشر على الحياة الاجتماعية والسياسية ، وبالتالي فهى ليست وثيقة الصلة بشكل مباشر بهذا الكتاب . ورغم ذلك فنحن نستطيع قياس مدى الجدية التى ينظر بها الناس إلى النذور العامة ذات الجزاء الإضافى ممثلاً فى جلب الخزى إذا لم يتم الوفاء بها وذلك من خلال الجدية التى ينظر بها الناس إلى النذور التى يكون الله وحده شاهداً عليها ، ويكون الشعور بالذنب الجزاء الأوحى لعدم الوفاء بها .

وهناك أمثلة كثيرة لهذا النوع من النذر " الخاص " ؛ ونجد هذه الأمثلة فى قصة رواها الوزير السابق الخصيبى ، ونظراً لأن الخصيبى يصور نفسه على هذا النحو السيء فقد تكون القصة حقيقية تماماً؛ فعندما أصبح ابن مقله وزيراً فى عام ٣٢٢ هـ قام بنفى الخصيبى وسليمان بن الحسن إلى عمان ؛ وفى الطريق وعندما كاد أن يفرق وسط عاصفة ندم الخصيبى على خطاياهم ونذر الله ألا ينتقم من أولئك الذين أنوه عدا ابن مقله ، وقال : " إذا أنا أمكنتنى الله منه ( يقصد ابن مقله ) فسوف أجعله يدفع ثمن هذه الليلة وما حدث لى فيها ، " وقال له سليمان : " أفى ظروف كهذه عندما تواجه الموت

وجهاً لوجه تتحدث بهذه الطريقة ؟ ! " ورد عليه الخصيبى قائلاً : " ما كنت لأخدع ربي " وأنقذ الله الخصيبى - ووفاءً بنذره - يبيو أنه لم ينتقم من أعدائه عندما عاد إلى منصبه الرفيع ثانية ، لكن الخصيبى جنب نفسه بدهاء إشباع رغبته فى النيل من ابن مقله حيث سلمه قرير العين لمعذبه (٢٤) .

وكان النذر " العام " مفيداً ليس فقط كأداة روحية فحسب ولكن كوسيلة سياسية أيضاً ، فقد كان أقدم طريقة يمكن للمرء أن يؤكد بها من جانب واحد لشخص آخر أنه جاد فيما يقول ويتعهد به ، وشأنه شأن اليمين ، ولكنه أكثر شيوعاً من اليمين على الأرجح ويزداد قوة عن طريق عرض التخلي عن أشياء هامة حيويًا للحالف إذا لم يف بالنذر ، وعندما أراد أبو عبد الله البريوى فى عام ٣٢٨ هـ من رسوله إلى باجكام أمير الأمراء العودة إلى بغداد وأن يؤكد لـ " باجكام " أنه لم يكن لديه أى مبرر للشك فى البريويين الذين كانوا يسيطرون على البصرة ، قال أبو عبد الله للرسول : " أعطنى يدك " فمدتها ( يقول الرسول ) فوضعها على أذنه وقال : " خذنى إلى تجار العبيد وبغنى ( إذا خذلتك ) ، ولكن اهتم بهذا الأمر لأجل فحسب ولا تسأل كيف " ، وكان الرسول يعلم أن طموحات أبى عبد الله التى لا حدود لها قد جعلت منه ينبوعاً للأكاذيب ؛ ومع ذلك فقد تأثر بجدية نذر أبو عبد الله أن يباع كعبد ( وفى أذنه خاتم علامة العبودية ) إذا لم يكن صادقاً فى هذا الطلب ، وقبل الرسول يد أبو عبد الله ووافق .

وكانت هذه النذور جادة لدرجة أن الناس غالباً ما كانوا يقومون بأعداد أشكالا مفصلة ومتقنة للعمل الرمزي بحيث يمكن لناذر النذر أن ينقذ نذره نصاً إن لم يكن روحاً . وعلى سبيل المثال فعندما تنازل الحاكم الحسناويهي الكردي بدر لابنه هلال عن منطقة حقيرة الشأن للغاية بحيث لا تليق بمنزلة هلال نذر هلال أن يفتح المنطقة المجاورة شهرزور الأكثر أهمية والتي كان يحكمها صديق مقرب ومطيع لبدر ، وكتب بدر لـ " هلال " يأمره بأن يدع شهرزور وشأنها لكن هلال أجابه قائلاً " لقد أقسمت ألا أكف عن هذا الأمر وألا أعود حتى أدخل مدينته " وعند ذلك قال له بدر " اذهب إلى مدينته فى بعض رجالك وسوف أمره أن يفتح لك أبواب المدينة فتبرأ من يمينك ، وحدث أن رفض هلال حسم الأمر عن طريق هذا التحال الرمزي من نذره وبدلاً من ذلك قام بفتح شهرزور حوالى عام ٤٠١ هـ (٢٥) .

وعادة ما يتم تناول النذور والأيمان معا فى أعمال الشريعة الإسلامية ، ومع ذلك فغالبا ما يتم تناول الأمان أو ضمانة السلوك المأمون فى الفصول التى تتناول أخلاقيات الحرب . والأيمان قريب الصلة بالنذر بشكل أساسى نظراً لأنه قسم من جانب واحد أمام الله على الالتزام بمسلك ما مستقبلاً ، وعلى ذلك فغالبا ما يكون هناك تداخل بين الأمان واليمين والنذر فى الممارسة الفعلية ، وكما ذكرنا سابقا فعندما طلب أبو على إسماعيل فى عام ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م الأمان من بهاء الدولة كتب عليه الملك بعد أن انتهى من قراءته كاملاً " لقد حلفت هذا اليمين وأتعهد بالوفاء به " ، وغالبا ما كان المسئولون العسكريون المتمررون ، والمسئولون الذين لحق بهم الخزي والعار ، وحتى الملوك التابعون يطلبون عهود الأمان ويتلقونها ، وعادة ما كانوا يعملون ويتصرفون كما لو كان بإمكانهم الوثوق بهذه الضمانات بصورة كاملة ، ومن بين جميع الأيمان والنذور التى يتم حلفها رسميا كانت مثل هذه الضمانات الأكثر إغراء على عدم الوفاء بها نظرا لما كانت تؤكد عليه وبقوة أسباب تتعلق بمصلحة الدولة من ضرورة نزع سلاح المتمررد بأية وسيلة حتى وإن كان ذلك عن طريق الحنث باليمين ، وعندما عرض المنصور ثانى الخلفاء العباسيين الأمان على العلوى محمد النفس الزكية الذى أشعل ثورة ضعيفة عسكريا ( وإن كانت تنذر بالخطر من الناحية الأخلاقية ) فى الحجاز فى عام ٥٤١ هـ رد عليه محمد قائلاً : " أى من عهود أمانكم تعرض علينا ( يقصد العلويين ) ، أهو ذلك الذى عرضته على ابن هبيرة أم عمك عبد الله بن على أم أبو مسلم ؟ " وكان كل من هؤلاء الرجال ذوى الشأن قد تلقى عهد أمان من المنصور أو من أخيه وكان جزاء كل منهم ، وقد علا شأن العباسيين على المدى القصير من خلال سوء نواياهم وعدم وفائهم بعهودهم (٢٦) .

وكانت للنذور وظيفة سياسية أساسية أكثر من مجرد الدلالة على جدية الحالف أو نيته لضمان أمان شخص ما ، ولكن لفهم هذه الوظيفة لابد أن نصف الأهمية الكبيرة للنية فى الأخلاقيات الإسلامية المعاصرة ، فالأيمان وعهود الأمان والنذور المتعلقة بمسلك مستقبلى تجاه الآخرين غالبا ما كانت تتضمن إعلاناً عن حسن النية ، وكانت النية أحد الجسور التى تربط بين الولاءات الملزمة لليمين والولاءات الأخرى فى المجتمع البويهى ، وهناك حديث مشهور يقرر أن " الأعمال بالنيات " ؛ أى أن الله سوف يحاسب المرء على أعماله وفقا لنية المرء فحسب وليس وفقا لما فعله المرء فى الواقع .

ويشكل هذا المفهوم للنية محوراً رئيسياً تدور حوله كافة المناقشات الإسلامية للمبادئ والقيم الأخلاقية في تلك الفترة وفي معظم الفترات الأخرى ؛ فعندما قال أبو الفضل ابن العميد وزير ركن الدولة أن ركن الدولة قد هزم الغازين الخراسانيين في عام ٣٥٥هـ بسبب حسن نيته ، وصلوات ودعاء الرعية نيابة عنه ، وعناية الله تعالى بالناس كان الوزير يتحدث عن كل من حسن " النية " المعلنة في بعض نذور الملك ، والنية المتضمنة في كثير من أعماله المتشابهة ، للعناية والاهتمام بأمر رعيته ، وكان يفهم أن هذه " النية الحسنة " تكون سبباً في جعل الله يؤيد حكمه ، وكان يفترض أنه إذا كانت عاقبة نية الملك الحسنة تأييد الله والعرفان بالجميل من قبل رعيته فإن هذه النية الحسنة سوف تلهم رعيته أن يصلوا ويبتهلوا إلى الله نيابة عن الملك (٢٧)

### السيادة والنذر

يمكن القول بأن كلاً من الحاكم وأسرته الحاكمة قد اعتقدوا بأنهم يتولون مناصبهم من خلال عهد خاص يشبه النذر الذي عقده الحاكم والأسرة الحاكمة مع الله ولم يرق هذا العهد إلى مستوى " عقد اجتماعي " بالطبع ؛ نظراً لأن الرعية لم تكن طرفاً في هذا العهد ، ورغم ذلك كانت الرعية مستفيدة من العهد ، ولذا كان من مصلحة الأسرة الحاكمة تشجيع الرعية على الاعتقاد بأن العهد ما يزال ساري المفعول وما يزال يعمل لصالح المستفيدين منه ، وتقدم لنا القصة التالية مثالاً مذهباً لهذا النوع من العهد حيث طلب إلى أبي الفضل ابن العميد نفسه أن يفسر النجاح غير المتوقع لركن الدولة عندما تعرض لضغط شديد من قبل الجيش الساماني قرب إصفهان في عام ٣٤٠هـ ، فقد أخبر ركن الدولة الذي كان يعاني نقصاً في المؤن وعدد الرجال وزيره بأنه يريد الفرار ، ورد عليه ابن العميد قائلاً له : " منذ أسبوع كنت موضع احترام الملوك في أنحاء العالم الإسلامي وها أنت الآن لاتحكم سوى معسكر صغير ، فما من ملجأ ، وتابع ابن العميد قائلاً : " إلا إلى الله تعالى فأخلص نيتك له واعقد عزمك سرا بينك وبينه ، فهو أعلم بصدقها وجديتها واعقد العزم من الآن فصاعداً أن تعمل لصالح الأمة المسلمة وسائر البشر ، وعاهده على أداء الأعمال الصالحة والإحسان إلى أولئك الذين قد تتولى أمرهم ، فقد نفذت جميع الحيل البشرية ، " وعند ذلك ابتسم ( كما يروي ابن العميد ) وقال لي : " لقد لجأت إلى تلك الحيل قبل أن تتكلم

يا أبا الفضل ( ابن العميد ) ، وقد عازمت صدق النية وأخذت على نفسى العهود التى تناسب حال كهذا " . وفى وقت لاحق من تلك الليلة استدعى ركن الدولة ابن العميد وقال له إنه كان يحلم عندما " رأيتنى على صهوة جوادى فيروز وقد فر عدونا وكنت تركب جوادك بجانبى وتذكرنى بنعمة الله فى هذا الأمر وكيف تحقق النصر الذى لم نكن نتوقعه . وكنا نتحدث عن هذا وما شابهه من أمور حتى نفدت عينى عبر غبار الموكب إلى الأرض ، ورأيت وميض خاتم على الأرض حيث سقط من صاحبه فى التراب ، فقلت لغلامى أتنى بذلك الخاتم . فانحنى ورفعته إلى وتبين أنه خاتم من الفيروزاج ( الفيروز ) فأخذته ووضعته فى إصبعى السبابة وتبركت به " . ولما كان فيروز يعنى النصر وفيروزاج يعنى المنتصر فى الفارسية فقد اعتبر ركن الدولة ظهورهما فى حلمه فالأحسن ، وفى فجر اليوم التالى وجد الملك وأتباعه أن الجيش السامانى قد انسحب من مواقعه وترك معسكره بعد أن عجز عن تحمل الجوع وثبات الديلميين ، وعندما دخل معسكرهم على صهوة جواديهما وجد ركن الدولة - حسب رواية ابن العميد - خاتما من الفيروز (فيروزاج) (٢٨) .

وربما يكون الوزير قد قال بالفعل فى الليلة التى سبق ذلك النصر غير المتوقع " خير لنا أن نموت على العرش من أن نموت فى أسطبل " أو " إن السامانيين أكثر يأسا منا ، غداً عندما يكونوا قد فروا دعونا نعلن أن النصر من عند الله " ، كما أنه من الممكن أن يكون الوزير قد قال الكلمات التى ذكرها ، وبالنسبة لنا فكل ما يهم هو أن ابن العميد رأى أن الأمر يستحق رواية قصة توضح أن الله قد أنقذ حكم ركن الدولة ؛ نظراً لأن الحاكم قد عقد " النية " الصحيحة " بالنسبة لملك ونظراً لأن الملك قد أخذ على نفسه العهود المناسبة وكما رأينا ، فقد أخبر ابن العميد الناس أيضاً بأن ركن الدولة قد هزم الغازيين الخراسانيين بسبب حسن النية وصلوات ودعاء رعاياه نيابة عنه وعناية الله بالناس . ومن الواضح أن الوزير كان يحاول أن يقيم لمستخدمه صورة تتفق مع الأسلوب الاجتماعى والمصلحة الذاتية لرعاياه - صورة ملك مثبته ومؤيد فى حكمه بعهد مع الله .

ونظراً للفهم الجيد لمثل هذه النذور والتأييد أو الجزاء الذى منحه الله لهم فنحن نعلم على وجه الدقة بأمر كثير من الحكام والأسر الحاكمة التى كان يعلن عن أنها تحكم فى ظل النعمة الإلهية أن مثل تلك العهود قد منحت لهم ، وقد أخبر الخليفة

الراضى (الذى حكم من ٣٢٢ هـ - ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ - ٩٤٤ م) رجال حاشيته أنه عندما كان جنود الخليفة السابق القاهر الذى كان يريد أن يلحق به أذى كثيرا يفتشون المنزل الذى كان يختبئ فيه " عاهدت الله أنه إذا أنقذنى من يد القاهر فسوف أمتنع عن ارتكاب الكثير من المعاصى ، وأن أمنح العفو العام عن أولئك الذين لجأوا إلى المخابئ إذا وليت الخلافة ، وأن أتنازل عن ممتلكات من لحق بهم الخزي والعار ، وأن أجزل العطاء لنصرة الطالبين ( عشيرة على ) ، ولم أكد أنتهى من نذرى حتى غادر الأشخاص ( الذين كانوا يبحثون عنى ) (٢٩) "

وأوفى الراضى بنذره عندما اعتلى العرش ، و عندما قال أبو العباس فى خطبته الافتتاحية للأسرة العباسية الحاكمة فى عام ٩٤١ هـ " لكم ذمة الله ورسوله والعباس أن نحكم فيكم بما أنزل الله وأن نعاملكم بسنة رسول الله " فقد كان يعلن العهد الأصلى الذى سوف تزعم أسرته الحاكمة أنها تحكم بموجبه حيث إن ذمة الله كـ " عهد الله " أحد الأشكال الأساسية لإعلان عهد مع الله (٣٠) .

ومن المهم أن ندرك كيف أن الأعمال العامة كانت تصور على أنها وفاء بالنذور فى أحيان كثيرة ؛ ولذا فقد ساعدت على تأكيد أن العلاقة التعاقدية الأساسية بين الحاكم والله سارية المفعول وتقوم بعملها حسب إرادة الله لمنفعة رعية مثل هذا الحاكم ، وكان الوزير العظيم على بن عيسى مثلاً يُحتذى به فى أواخر العهد العباسى ؛ لما جرت عليه عادة الإدارة الأخلاقية وما دأبت عليه من رعاية تتسم بالتدقيق ، ورغم كبر سنه فعندما قام معز الدولة البويهى بفتح العراق حضر إليه على يقدم إليه احتراماته وقال للملك الشاب : " إن من أهم الأمور التى تستحق اهتمام الأمير والأولوية فى اعتباره إصلاح هذه الصدوع ( فى قنوات الرى بوسط العراق ) وهى أصل الخراب والدمار للسواد . وقال له معز الدولة : " نذرت لله فى حضور من حضر ألا أعطى الأولوية لأى أمر آخر على هذا الأمر حتى وإن أنفقت فى سبيله كل ما أملك " .

وعلمت رعيته أن معز الدولة كان صادقاً فى نذره وبعثت جهوده للوفاء بنذره نوعاً من الولاء غير العسكرى الذى ساعد نظام الحكم البويهى على توطيد دعائم حكمه ، وعندما دخل معز الدولة بغداد مرة أخرى بعد أن هزم القائد الديلمى الثائر روزباهان فى عام ٣٤٥ هـ / ٩٥٧ م " احتشد الناس على الجانبين ودعوا له ولعنوا روزباهان ، وذلك أن أفراد الأمة كانوا محبين حقاً لأيام معز الدولة لما قام به لإصلاح الصدع فى

نهر الرافيل ونهر بادوريا حيث خرج بنفسه لإصلاح هذا الصدع، وحمل بنفسه التراب في قلب عباءته كي يضرب بذلك مثلاً لجيشه بأكمله ... عندما قام بإصلاح الصدوع . وأصبحت بغداد مزدهرة وكان الخبز الفاخر يباع بعشرين رطلاً من الدرهم ، ومن ثم كانت الأمة محبة لأيام حكمه ومحبة له " ، ومما لا شك فيه أنه بالنظر إلى مثل هذه الفوائد والمنافع كانوا سيحبونه دون أي نذر ؛ ومع ذلك تجدر الإشارة إلى أننا نجد هنا - كما نجد في كثير جداً من المواضع الأخرى - أنه في اللحظة الهامة المناسبة في نظام حكمه يشير الحاكم إلى نواياه تجاه رعيته من خلال صياغة عهد مع الله علانية، وهكذا فقد لقن على بن عيسى كـ " شيخ جليل" ينتمي لنظام الحكم السابق الملك الشاب درساً سياسياً وأخلاقياً أيضاً (٣١)

و " حلم السيادة " كشكل للأساس الاتفاقى للحكم شبيه على نحو وثيق بالنذر . ومثل هذه الأحلام موضوع مشترك في أدب الشرق الأدنى ، لكن العهد بين الحاكم والله الذى تنطوى عليه هذه الأحلام لم يحظ إلا باهتمام ضئيل ، وليس بالمثلير للدهشة أن يستخدم الحلم للتعبير عن عهد السيادة ؛ نظراً لأن الأحلام كانت تُعد بشكل عام نذراً تنبئاً بأحداث سياسية ، وعلى سبيل المثال فقد أخبر الملك البويهى عضد الدولة رجال حاشيته أنه عندما كانت أمه حاملاً به رأت على رضى الله عنه فى الحلم وطلبت من على أن يدعو الله من أجلها ، وبشرها على بأنها سوف تنجب ولداً تنبأ بمستقبله المشرق بتفصيل دقيق يثير الشك ، كما تنبأ على أيضاً بمستقبل أحفاده المنحدرين من نسل عضد الدولة ، ولم تكلف رواية مثل هذه القصة التى قد تحمل جوهر الحقيقة الملك العظيم شيئاً . والواقع أن هناك قصة مشابهة - على ما يبدو - رواها أول ثلاثة حكام بويهيين عن حلم لأبيهم بويه ، ومما لا شك فيه أن هذه القصص أكدت أن إنجازات البويهيين كانت مقدرة إلهياً وأنهم كانوا رجال القدر .

ويوجد حلم السيادة بشكله الكامل فى تاريخ الطاهريين وهم الأسرة الحاكمة التى حكمت خراسان من ٢٠٥ هـ / ٢٨٠ م إلى ٢٥٩ هـ / ٨٧٢ م ، وفى أحد الأحلام تلقى طاهر مؤسس الأسرة الحاكمة وعدا بالعظمة الدنيوية إذا قام بحماية المنحدرين من نسل النبى . وعندما قتل حفيد طاهر يحيى بن عمر العلوى عام ٢٥٠ هـ أخبر النبى محمد الحفيد فى حلم " أنكم قد نكثتم " وبالطبع كان ذلك الحفيد آخر ملك من نسله . وربما تكون القصة مختلفة من قبل المنحدرين من نسل على لكن أياً من سماتها لا يبدو

غير محتملاً بالنسبة لمستمعيها . وهناك قصة أخرى رويت عن طريق مرجع موثوق بصورة أكبر تتعلق بحلم الخليفة القادم القادر عندما كان لاجئاً في الأهوار ؛ فقد زعم أنه قد حلم بأن على ساعده في عبور كتلة من الماء ثم أخبره بأن السيادة تأتيه وأمره بأن يحسن معاملة العلويين وأشياهم ، وحسب رواية القادر ( الذي حكم من ١٨٣هـ / ١٩٩م - ٢٢٤هـ / ٢٠١م ) فقد ولى الخلافة بعد هذه الحادثة مباشرة تقريباً ، ومن المرجح أن أسر حاكمة أخرى وحكاماً آخرين قد استخدموا مثل هذه الأحلام للتعبير عن العهد الإلهي الذي منحهم الحكم ، أو أنهم هكذا أرادوا لرعاياهم أن يعتقدوا ، ولسوء الحظ فنادرًا فقط ما نسمع سرداً كاملاً للظروف إن كانت هناك أية ظروف ربط الله بينها وبين وعود السيادة التي جاءت بها مثل هذه الأحلام (٣٢)

وتشترك جميع هذه النذور والوعود التي تشبه النذور في خصائص عامة معينة ؛ فهي جميعاً كالإيمان عبارة عن موثيق بين شخصين وبين الله وإنسان ، وبينما يكون الله الشاهد الإلهي على اليمين فهو أحد الطرفين الرئيسيين في نذر النذر وقبوله ، ولأن الله ليس بحاجة إلى المنافع التي يمكن للبشر تبادلها عن طريق الإيمان ؛ فإن الغاية الأساسية من النذور هي شكل ما للسلوك من جانب الطرف البشري للنذر . وقد ينذر الطرف البشري نذراً بينه وبين نفسه فحسب ، لكن النذور غالباً ما تتضمن قراراً بالعمل و التصرف بطريقة معينة تجاه جماعات معينة من الناس ، أو تجاه كل شخص في المستقبل ؛ فقد ينذر المرء مثلاً أن يعامل رعيته بعدالة وكرم أو ما شابه ذلك ، وتحتوي الإيمان بين شخصين أحياناً على مثل هذه العبارات المتعلقة بالأطراف الأخرى لكن معاملة الأطراف الثالثة عادة ما تكون عارضة بالنسبة للغرض الأساسي لليمين .

وفي حالة النذور غالباً ما تكون معاملة الطرف الثالث الغرض الأساسي للنذر وذلك أن الله مالك العالم ويوم الدين يمكن أن يُقال بالكاد إنه بحاجة إلى التعهد بالمعاملة الطيبة من جانب أولئك الذين يعقدون نذراً معه ؛ ولذا فالنذور أشبه ما تكون بالتعهدات الرسمية غير المحددة تجاه جماعات من الناس وإن كان هؤلاء الناس لم يقابلهم المرء بعد أو أولئك الذين لم يولدوا بعد . وفي غياب الأشخاص الاعتباريين أو القضائيين كالشركات والبلدية الذين يمكن للمرء في القانون المعاصر التعهد بالتزامات معينة تجاههم كان النذر في الشرق الأدنى البويعي أقرب ما يكون إلى التعهد بالتزام شخصي ورسمي تجاه جماعة، وما زال هناك تباين كبير جداً بين النذر

وفهمنا المعاصر لمثل هذا الالتزام الشخصي والرسمى ، ولم تكن هناك أية جماعة تقريبا في العهد البويهى يمكن إلزامها شرعاً بأيمان أو نذور زعمائها ؛ نظراً لأن الأهلية - الحق الشرعى فى التعاقد - ظلت فردية ، وكان النذر شكلاً للعقد من جانب واحد بين الله وشخص واحد ، ويذكر أن المجتمعات الغربية على دراية ليس فقط بتعهدات الأفراد تجاه الجماعات ولكن أيضاً بتعهدات الجماعات تجاه الفرد وتعهدات الجماعات تجاه بعضها البعض ، ولا يمكن للنذر أن يستوعب هذه الطبقات الأخرى ، والواقع أن جميع التعهدات بهذه التنويعات فى بيئة الشرق الأدنى فى القرنين الرابع هـ / العاشر م والخامس هـ / الحادى عشر م كانت غير رعية بشكل فعلى .

### شكر النعمة

لقد رأينا كيف نشأ شكل ما للولاء لدى الرعية عندما كان هناك اعتقاد بأن الحاكم يقوم بأعمال صالحة وفاءً بنذره ، ونتيجة لذلك أخذت الرعية تدعو للحاكم وعرضت التعاون فيما تقوم به الحكومة من أعمال ، ومع ذلك فحتى عندما كان الملك أو الخليفة يقوم بأعمال صالحة لمنفعة رعيته خارج إطار النذر كانت هذه الأعمال الصالحة يُنظر إليها على أنها تحمل نوعاً ما من الإلزام وكان هذا هو الإلزام الذى أشار إليه المقتدر عندما قال فى رسالته إلى جنده المتمردين : " إن لى الحق فى أن أطلبكم بالشكر نظير النعم والعطايا ، وما تتمتعون به من نعم وعطايا منى وأرجو أن تقروا به وتعتبرونه ملزماً لكم " (٣٢) . ومن الواضح أن الروابط التى أوجدتها " النعمة " لم يكن متفق عليها بالطريقة الرسمية التى كان الناس يتبعونها عند حلف الأيمان ، ورغم ذلك يمكن لهذه الأيمان أن تكون رسمية وغالباً ما كانت تُعد ملزمة .

ونعود فنكرر أن العلاقة الأخلاقية التى أوجدتها النعمة قد تم تصويرها مسبقاً عن طريق العلاقة بين الإنسان والله كما فهمها المسلمون حسب وصفها فى القرآن ، وفى القرآن تمتد النعم التى منحها الله للبشر والتى يتكرر حثهم على " أداء شكرها " من مقومات الحياة وجمال الخلق إلى نعمة الوحي والقرآن نفسه إجمالاً ، فهذه النعم لا تحصى : وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا (سورة النحل آية ١٨) ومع ذلك فالله يعتبر البشر مسئولين عن قبول أو رفض أية نعمة معينة ، وعندما يتحدث عن علامات صدق الوحي يقول القرآن : وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (سورة البقرة آية ٢١١) .

ويؤكد القرآن بشكل متكرر على أن المؤمن " شاكر " لهذه النعم التي لا تحصى ، وأن شكر النعمة هو إحدى الخصائص الروحية الأساسية التي تصاحب الإيمان الحق ويجب أن يكون الإنسان مثل إبراهيم الذي كان " نموذجاً " **" شَاكِرًا لِلنَّعْمَةِ "** ( سورة النحل آية ١٢١ ) ومقابل شكر النعمة بما يتضمنه من تقدير وإقرار بربوبية الله وكرمه بقلب مجيب يكون كفر النعمة بما يتضمنه من رفض ومقاومة وإنكار ؛ ولذا كان من الطبيعي أن يُطلق على غير المؤمن في القرآن وفي الشريعة الإسلامية بوجه عام " الكافر " ، وعندما يتحدث عن قدامى بنى إسرائيل يقول القرآن **" وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ "** ( سورة إبراهيم آية ٧ ) .

ولذا فليس بالمستغرب أنه عندما تلقت الرعاية أي نوع من العطاء السخي من حاكمها حق له أن يصف الولاء والالتزام اللذين تم إيجادهما بأنهما شكر النعمة . وبالنسبة لأولئك المرتبطين بالنظام الحاكم بشكل مباشر كانت النعم واضحة للغاية حتى أن الحاكم اعتبر نعمته على أنها تربطهم بالتزام واضح للغاية بحد ذاته ، وعلى ذلك فقد طلب الطموحون نعمة مفتوحة إذا أرادوا أن يتم ربطهم بالنظام الحاكم ، وقد عبر أبو حيان التوحيدي - الحاقق ردىء الطبع والذي أمضى فترة طويلة من حياته متنقلاً من بلاط إلى بلاط على أمل أن يلقي النعم على النحو المفرط الذي كان يشعر بأنه يستحقه - عن هذه الفكرة بصورة بليغة للغاية عندما قال : **" إن إقصاء الحاكم ( الرئيس ) لأحد الطامحين ككفر التابع بالنعمة " (٣٤) .**

وكان هناك إقرار بالالتزامات والتعهدات التي تفرضها النعمة بشكل معلن وصريح للغاية حتى أننا نجد الحكام والرعية منهمكين بشكل مستمر في تقدير مسئوليتهم القانونية المتبادلة ، وقال عضد الدولة إنه إذا تم دفع الرواتب للجند قبل استحقاقها فعلياً بيوم واحد فإن " الفضل يثقل كاهلهم لصالحنا " ولكن إذا تأخر دفع الرواتب للجند فسوف يشكون لصراف الرواتب و " يضع شكر النعمة الناشئ عن المنّة " واختتم عضد الدولة قائلاً : إن الحكومة تخسر بذلك أكثر بكثير مما يمكن أن تريح من التأخير ، وتخبرنا رسالة كتبت لتهنئة أبو تغلب الحمداني على انتصاره على أشقائه في عام ٣٦٠ هـ / ٩٧١ م عن أن حملته قد عادت بـ " شكر الرعاية ودعواتها .. (لأن) الله قد علم ظنون أصدقائه وأهل طاعته بشأنه وأكدت ... فروض خدمه وعبيد نعمة " .

وإذا كان ولاء الرعية يوصف من خلال النعمة الجماعية التي تتلقاها الرعية فإن ولاء موظفي الحكومة المباشر بصورة أكبر إلى حد بعيد للحاكم غالباً ما يوصف من خلال النعم الخاصة التي يتمتع بها هؤلاء الموظفون ، وعندما كان علي بن عيسى يستجوب الوزير السابق الخصيبي في عام ٣١٥ هـ - في نهاية العهد العباسي - حول إدارته للموارد المالية الحكومية أوضح على أنه يجادل أو يشكك في حق المسؤولين في أن يصبحوا أثرياء بواسطة الرواتب القانونية المخصصة لهم ، وقال " كيف نتحداك في هذا الشأن " ونحن ككتاب أمير المؤمنين نكتسب قوتنا من نعمه وإحسانه فحسب ونملك ضياعاً كسبناها في خدمته وخدمة سلفه ؟" (٣٥) .

وقد وجد الالتزام الذي فرضته نعمة الله أقرب نظير له في نعمة الملك لرعيته ، لكن الالتزام القائم بين الأنداد المتقاربين وحتى الالتزامات من قبل من هم أعلى منزلة تجاه من هم أدنى منزلة غالباً ما توصف أيضاً على أنها من قبيل النعمة . وقد سمح ناصر الدولة الحمداني لأبنائه بمهاجمة بغداد في عام ٣٤٦ هـ في الوقت الذي واجه فيه البويهيون تحدياً تمثل في تمرد أحد ضباطهم وهو روزباهان وبعد أن ألحقت قواته الهزيمة بكل من المهاجمين الحمدانيين و المتمرد روزباهان كتب الملك البويهي معز الدولة إلى ناصر الدولة يذكره بأن ناصر الدولة كان يجب أن يكبح جماح أبنائه وأنه مدين لجاره البويهي بمعاملة أفضل ، وبعد كل هذا أعاد معز الدولة ناصر الدولة إلى عرشه عندما ثار تاكين الشيرزادي ضد الحمدانيين وقال معز الدولة :ـ (ناصر الدولة) " حسبت أنك (أي ناصر الدولة) سوف تقر بحق هذه النعمة و من ثم فسوف تدفعك نفسك للمجازاة " ، وأضاف معز الدولة قائلاً : إنه بدلاً من ذلك كان جزاؤه الغدر . واعترف ناصر الدولة في رده بأن معز الدولة كان محقاً في لومه وتأنيبه وأن ولديه قد فعلا فعلتهما بمبادرتهما الخاصة دون الرجوع إليه (٣٦) .

وفي أحد الحوارات اللافتة للنظر نسمع المستفيد المحتمل من مؤامرة سياسية يخبر كبير مؤيديه بأن النعمة المتوقعة سوف تلزمه - أي المستفيد - كالزام اليمين الذي يتم حلفه للمؤيد، وأثناء المرض الأخير للخليفة المكتفى (المتوفى عام ٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م ) نظر الوزير العباس في المرشحين المحتملين لتولي الخلافة في الأسرة العباسية ؛ ولهذا الغرض تقابل سرا مع محمد ابن الخليفة السابق المعتمد وقال له الوزير : " ما هو جزائي إذا سلمتك هذا الحكم ؟ " وقال له محمد ابن المعتمد : " سوف تنال ما تستحق

من المكافأة والتقدير والحرمة " وقال له العباس : " أريدك أن تقسم لى أنك لن تتخلى عنى فى أى من الموقفين : وإذا كنت ترغب فى خدماتى فسوف أخلص لك النصيح والمشورة وأبذل قصارى جهدى امتثالاً لرغباتك وجمع المال لك كما فعلت للآخرين ، وإذا قربت منك غيرى فلتكرم معاملتى وتحفظ لى حقى وألا تضع يدا على ثروتى أو أحد ممن أعول " وقال له محمد ابن المعتمد الذى كان يتمتع بالعقل الراجح والمبادئ السامية : " إذا لم تسلمنى هذه السلطة فلن تكون لدى الوسيلة لمكافأتك بإنصاف وكما يليق بك ، (وبخلاف ذلك ) كيف يمكن لى أن ( أقصر فى القيام بذلك ) فى الوقت الذى كنت فيه أنت السبب و الوسيلة ( لوصولى ) لئلهما ( أى مثل هذه السلطة ) ؟ " وطلب منه العباس ثانية أن يحلف وقال له " إذا لم أف بما ترغب دون يمين فلن أفى به بيمين . " وقال القاضى محمد الذى يرجح أنه كان الشخص الوحيد الحاضر للعباس " فلتقنع بهذا الشئ العظيم منه ، فهو أفضل من اليمين ، " والمعنى الضمنى هنا أنه بالنسبة لرجل جدير بالاحترام حقاً فالإقرار بالنعمة رباط مقدس كرىاط اليمين ، فإذا توسعنا فى المعنى للاحظنا بالطبع أن اليمين يبدو طريقة مأمونة بصورة أكبر لضمان مسلك معين مستقبلاً ، ولم تشأ الأقدار أن يصبح محمد ابن المعتمد خليفة فى يوم من الأيام (٣٧) .

وبطبيعة الحال فقد كان نقيض هذا التطابق الواضح والصريح بين الولاء وشكر النعمة الرىبط بين كفران النعمة وعدم الولاء ، وكما دل التشبيه القرأنى ضمناً فقد كان كفران النعمة مستحقاً للتوبيخ من الناحية الأخلاقية بين إنسان وآخر وكذلك بين الإنسان والله ، وكان الناس قلقون ومنزعجون حقاً إزاء اعتقادهم بأنه قد ينظر إليهم على أنهم "كافرون بالنعمة " ، وعندما كان ياقوت وهو أحد قادة جيوش الخلافة فى جنوب العراق فى العشرينات من القرن الرابع الهجرى قد تردد فى قتال جيش معاد؛ نظراً لأنه كما قال " سوف يظن الناس أننى كفرت بنعمة مولائى ؛ ومن ثم فسوف يلعننى الناس " وفى نهاية الأمر دفع ياقوت حياته ثمناً لتردده ، ومن المؤكد أن ياقوت لم يخش ما سوف يظنه معاصروه فيه فحسب لكنه خشى أيضاً ما سوف يلحق باسمه من خزى وعار بعد موته ، وعندما عرضت رأس أبى الهيجاء ابن حمدان - الجد الأعلى للحمدانيين- المقطوعة فى أنحاء بغداد فى عام ٣١٧ هـ ( عقب إخفاق الثورة لمصلحة الخليفة القاهر ) كان يصاحبها مناد يصيح قائلاً : " هذا جزاء من يتمرد ضد مولاه

ويكفر نعمه " ، ومع ذلك لم يكن رأى معاصري المرء والعار والخزى بعد الممات العقوبات الوحيدة لكفران النعمة ، فقد قيل إن الله سوف يختم مصير أسرة حاكمة نظير كفرها بالنعمة . وعندما لقي آخر حكام خراسان السمجريين شبه المستقلين الهزيمة فى عام ٣٨٥ هـ / ٩٩٠ م كانت تلك نهاية لشأن بيت سمجور جزاء لكفرهم بالنعمة وكفرهم إحسان مولاهم " (٣٨) .

ونظرا لأن المرء أقر بالرابط عن طريق قبول النعمة فقد كان بإمكانه أن ينبذ الروابط وبخاصة ولاءه عن طريق الزعم بأن الطرف الآخر لم يمنحه أية نعمة ، وقد توسع الناس فى هذه الحجة لتشمل العلاقات مع الله ، وبرغم التجديف الرهيب على الله المتصل بإنكار نعمة الله فهناك مؤلفان على الأقل فى القرن الرابع هـ / العاشر م يسألان عن السبب فى أن يكون الإنسان مدين لله بأى شئ إذا لم يحصل منه على أى شئ فى المقابل تقريبا . وكتب مؤلف كان يعيش فى بخارى فى مطلع القرن العاشر يقول " باعتبارى فقير فأنا لا أصلى لله ، فله يصلى أصحاب القوة و النفوذ والثروة ..... وبالطبع فإن نوح ( الحاكم السامانى ) يصلى لأن الشرق ينحنى أمام قوته وسلطانه ولكن لماذا يجب على أنا أن أصلى ؟ أين قوتى و نفوذى و بيتى وجوادى واجامى وحزامى الرقيق ؟ ... إننى إن صليت ويمينى لا تملك بوصة من الأرض فسوف أكون منافقا ، أجل ، إذا أوجد الله لى سعة من العيش فعند ذلك لن أتوقف عن الصلاة ما برقت السموات لكن صلاة من هو فى حال بائس خداع " (٣٩) .

إذا فقد كانت النعمة كاليمين وسيلة لإقامة روابط جديدة هامة فى المجتمع ، وظلت معنية كاليمين بالروابط بين الأفراد إلى حد بعيد ، وحسبما يقول المسئول والمؤرخ البويهى ميسكاويه فالوزير يجب أن يحترس ويحاذر خشية أن ينسب الجند ما يتلقونه من نعم إليه " وليس إلى مولاهم وولى نعمهم ( الحقيقى ) " ، ذلك أن الملك يمتعض ويستاء من توجيههم الشكر على النعمة لأى شخص سواه ، وليس هناك شكر مجرد للنعمة موجه للدولة يمكن تصوره .

وتشبه بعض أشكال النعمة كالأشغال العامة النذر من حيث كونها معاملات بين شخص واحد و طبقة من الناس محددة بصورة مجردة ، لكنه يفترض أن يكون أولئك الناس شاكرين للنعمة على نحو فردى وأن " يدعوا الله " للمانح بدلا من أن يكونوا شاكرين للنعمة على أى نحو مشترك ، وكانوا أشبه بأولئك الذين استفادوا من النذر فى نواح عدة .

ومع ذلك فقد اختلفت النعمة عن اليمين والنذر في أن الإحسان وشكر النعمة كانا تعهدين أقل قابلية للتحديد وتعهدين يمكن التراجع عنهما ، وعلى العكس فقد كان اليمين أو النذر تعهداً واضحاً يمكن التراجع عنه في الظروف غير العادية فقط ، وقد جاء التشبيه التجاري ملائماً للمقايضة المستمرة للنعمة ، وشكر النعمة في الوقت الذي كانت فيه ملائمة لـ " لبيع " النهائي وغير القابل للإلغاء و الذي جرى في أصل مجرى العمل المتوقف على يمين أو نذر ، وإذا فقد استخدم هذا التشبيه بصورة متكررة وتتسم بالوعي الذاتي ، لكنه كان تشبيهاً ملائماً لتبادل أنماط التجارة القائمة منذ زمن طويل حيث لم يرد البائع أو الزبون - من أجل حساب المنفعة - " تصفية " نهائية للحسابات بينهما نظراً لأن مثل هذه التصفية من شأنها قطع روابط الولاء التي قد أوجدها التبادل .

وكان الحسن بن علي بن زيد المنجم الذي استخدم لزمن طويل كجانب للضرائب لواسط تحت حكم معز الدولة البويهى قد اعتاد أن يلقي المدح و الثناء على إقامة أوقاف دينية في منطقته ، وإصلاح نظام الرى المحلى ، وإعطاء الصدقات لمستحقيها من المحتاجين .

وقال المنجم سرا إنه فعل هذه الأشياء لله لكنه أضاف قائلاً إنه إذا كان قد فعلها طلباً للمظاهر فهذا أمر طيب أيضاً ولم لا يحفظ السكان المحليون المظاهر ( رياء ) عن طريق ادعاء رياءى زائف مماثل بأنهم يؤمنون بالدوافع النبيلة للمحسن ؟ ثم راح يشكو بعد ذلك قائلاً : إن المرء إذا كان جواداً هذه الأيام فإنهم يقولون عنه إنه متاجر بجوده ويعتبرونه بخيلاً ، وباستطاعتنا أن نسقط من حسابنا الزعم الوارد في هذه الحكاية بأن الناس كانوا أكثر ورعاً وتقوى في فترة سبقت ولاية المنجم ،وقد أراد المنجم استمرار تبادل شكر النعمة والنعمة لاعتقاده بأن الناس يجب أن يستمروا في مدحه والثناء عليه في وجهه وكان يأمل فقط أن يمارسوا رياءً مشابهاً من وراء ظهره (٤٠) .

### السماحة الملكية وروابط النعمة

لقد استغرق إقامة رابطة ولاء تقوم على مقايضة غير محددة في النعم والإقرار بالفضل وشكر النعمة زمناً خاصاً عندما كان العديد من ولاة النعم يتنافسون

طلبا لولاء نفس المنتفعين ، وفهم المراقبون المعاصرون بوضوح أن البويهيين - ومنافسيهم - كانوا يصارعون لإقامة هذه الروابط مع قواتهم ، وكان رسوخ سلطانهم وتماسكه انعكاساً مباشراً لنجاحهم فى القيام بذلك ، وتوضح سلسلة الأحداث التى جعلت البويهيين يسيطرون نفوذهم وسلطانهم على أبناء بلدهم من الديلميين نجاحهم التدريجى فى إقامة هذه الروابط ، وعندما قام الديلميون الشيعة بغزو السهل الإيرانى دخلوا مناطق كانت غالبية السكان فيها تعترف بشكل أو بآخر بحق العباسيين فى الخلافة و هو الحق الذى لم يؤمن به معظم الديلميين أبداً ، وحتى " الملوك " التقليديين الذين مارسوا سلطة هزيلة و محلية نسبياً عليهم ذات يوم تم تنحيتهم جانباً ، وبدأ أنه لا يوجد هناك أى مصدر تقليدى للسلطة قادر على كبح جماحهم ، وبداية وقبل أن يتبنوا أراء سكان غرب إيران و العراق الآخرين أثبت التزام النعمة أنه أفضل وسيلة لإقناع الديلميين بالالتزام بأى ولاء ثابت.

وأقر الحكام فى مطلع القرن الرابع هـ / العاشر الميلادى الذين قبلوا المرتزقة الديلميين فى جيوشهم بالضرورة الملحة لإيجاد مثل هذه الروابط حتى وإن كانت أساساً هشاً للغاية للولاء فى بادئ الأمر ، ولإرهاب الخليفة وابتزاز الأموال منه أرسل إليه أبوعبد الله البريوى رسالة عندما احتل بغداد فى عام ٣٢٩ هـ / ٩٤١ م يخبره فيها بأن الجنود المرتزقة من الديلميين فى جيش البريويين لا يعترفون بالبيعة ( للعباسيين ) وأنه لا ممان لك فى رقابهم ، ولم يكن الديلميين فى تلك الفترة مقيدين بشكل كبير بروابط قصيرة الأجل للنعمة .

وكانوا على استعداد للفرار من قائد لآخر طلبا للعطايا المالية الضخمة و الفورية ولم يكن البريوى الزعيم السياسى الأوحى الذى كان يخشاهم ؛ فقد واجه القادة الديلميون أنفسهم نفس المشكلة ؛ فعندما ثار مرداويه على سبيل المثال ضد القائد الديلمى قاطع الطريق أصفر بن شراويه قرر الأخير التخلّى عن الصراع رغم مكانته العظيمة بين الديلميين وذلك أنه اكتشف أنه لم يكن لديه من المال ما يكفى لإغراء جنده على العودة إليه .

وكان المورد الوحيد المفتوح والمتاح لأولئك الجند المرتزقة الجود الذى لا حدود له واعتراف صريح بأن المصلحة الذاتية تدعو إلى التعاون فى نهب وسلب تلك الأراضى الجديدة التى تم فتحها حتى يتسنى للجميع - من القادة والجنود البسطاء -

الحصول على نصيب أكبر ، فعقب إنزاله الهزيمة بسيف الدولة الحمداني في عام ٣٢٢ هـ / ٩٤٣ م قام توزون القائد التركي المستقل بتوزيع بعض من المؤن التي تم الاستيلاء عليها في المعركة ثم جمع رجاله وقال لهم : " إننى واحد منكم وما أريده هو صالحكم " ، وبهذه الطريقة استطاع القادة كسب الوقت وتغذية الشعور بالالتزام الذى قد يوجد مثل هذا الإحسان ، وبعد ذلك يمكن للحجج الأخرى أن تقدم تدريجيا لإعطاء القيادة بُعدا للملكية .

وكما لاحظنا فقد تفوق البويهيون في نهاية الأمر على جميع القادة الآخرين في هذا المسعى في غرب إيران والعراق ، ولكن الزياريين كانوا قد بدأوا - بالفعل - في النجاح في هذا المنحى عندما بدأ البويهيون عملهم وصمدت أسرتهن الحاكمة زمنا أطول من البويهيين ، وعندما تحسنت حظوظ الزيارى مراداوين أتاه الدبلوماسيون من كل صوب وحذب بسبب " سخائه " مع جيشه ، وأحس ابنه بويه الصياد صغيرا السن اللذان كانا ضابطين في خدمة " ماكان " أنذاك بجاذبية نجاح مراداويه ، وعندما هُزم " ماكان " طلب على بن بويه وشقيقه الحسن الإذن لهما بالانضمام إلى مراداويه مضيفين بصراحة لافتة " إن أنت عُدت قويا ثانية فسوف نعود إليك " ومُنحا الإذن في ذلك وقام الزيارى من فوره بالتنازل عن مدينة الكرج الصغيرة في غرب إيران لـ " على " .

وبداية من تلك المرحلة وما تلاها تؤكد جميع المصادر على السماح في نجاح على ويقول ميسكاويه : " إن السبب في علو شأن على بن بويه وبلوغه ما بلغ كانت سماحته العظيمة في خلقه وسعة صدره " ، وعلى مدى عقد من الزمان " تخلص على عن كل ما حصل عليه ، وفهم لعبة الجند في منتصف القرن العاشر كما فعل قليل من القادة وانتهى به الحال إلى أن أصبح أنجح لاعب لها ، وبعد أن أنزل الهزيمة بجيش الخلافة بقيادة ياقوت في عام ٣٢٢ هـ كان على " سمحا " مع الأسرى وخيرهم بين البقاء معه أو اللحاق بـ " ياقوت " ؛ وبطبيعة الحال اختار معظمهم البقاء معه ، ولم تكن هناك أية سياسة أخرى بالنسبة للجيل الأول من القادة البويهيين ، وكما يشير ميسكاويه فإن الحسن بن بويه ( ركن الدولة ) لم يكن قائدا للدبلوماسيين إلا بفضل سماحته العظيمة ومسامحته في الأمور التي لا يتسامح فيها حاكم ( أصيل ) من قبل من يحكمهم " . ومع ذلك فقد علم أولئك البويهيين الأولون في نهاية المطاف أيضا متى يضعون حداً لسخائهم حتى لا يصبح تسامحهم سمة تلقائية ومن ثم لا قيمة لها (٤١) .

وكان البويهيون محظوظين أيضا في خصومهم ، فقد كان المدعون العباسيون يعرضون دوما على الجيش العباسي الرئيسى المكافآت السخية لنصرتهم وتأييدهم ضد الفرد الحاكم من الأسرة العباسية وهكذا أصبح جيش بغداد أكثر جيوش المرتزقة وأوضحها إثارة للسخرية فى مطلع القرن الرابع هـ ، وعندما كان مؤنس يزحف على بغداد فى عام ٣٢٠ هـ أخبر قادة جيوش الخلافة مولاة أن " الجند يقاتلون من أجل المال فحسب ، فإذا أخرج لهم لم تكن هناك حاجة للقتال ؛ ذلك أن معظم جند مؤنس سوف يفرون " ، ورغم ذلك كان الخليفة مفلسا وتمت الإطاحة به فى حينه وحل محله خليفة اختاره مؤنس ، وعلى أقل تقدير فإذا كان الخليفة العباسى غير مطاع كان يتم إيداله بأخر لا حول له ولا قوة ، لكن كثيرا من الخصوم الآخرين للبويهيين لم يكونوا محظوظين كالعباسيين وكانوا يفتقرون إلى هيبة الملكية التى أوجدها حكم دام جيلين ، وعلى سبيل المثال فعندما قُتل أول حاكم بريوى فى عام ٣٢٢ هـ خلفه شقيقه وقاتله أبو الحسين لكن أبا الحسين لم يجزل العطاء بسخاء للجند بروح الصداقة الحميمة كما فعل شقيقه من قبل ، وبدلاً من ذلك عامل الترك والديلميين بازدراء تجاوز الحدود ، وبداية من تلك المرحلة فصاعدا تخلى حسن الحظ غير المتوقع عن تلك الأسرة من الكتبة السابقين وأخذ جندهم يفرون منهم بشكل متزايد حتى زالت دولتهم وهلك سلطانهم بعد حوالى عشر سنوات (٤٢) .

## الاصطناع

استطاع البويهيون بشكل تدريجى تحويل سيطرتهم على جيشهم حتى أنها لم تعد تقوم بشكل محض على الحالات المزاجية العابرة لشكر النعمة من الجند الذين كانوا يتلقون عطاءاتهم السخية ، واستطاع البويهيون إقامة رابطة ولاء دائمة لزمن أطول ويرجع السبب فى ذلك بصورة جزئية إلى ما توصل إليه الديلميون من الاعتقاد بأن ما يحالفهم من حسن الحظ كان مرتبطا بنجاح البويهيين وبصورة جزئية لاستمرار البويهيين فى الحكم لفترة طويلة بما يكفى لتنشئة ورعاية جيل من الجند الذين اعتبروا أنفسهم يتمتعون بحماية خاصة من قبل البويهيين ، فكان أولئك الملوك بالنسبة لهم بمثابة آباء بالتربية ، وكانت علاقة الأب بالتربية واحدة من أهم الطرق التى قامت من خلالها روابط جديدة ، وهناك وصف لهذه العلاقة فى الأشكال المختلفة

لكلمة " صنع " التى تعنى فى أبسط معانيها "يصنع" لكنها تعنى أيضاً " يُحسن إلى " و " يحسن رعاية " ويربى ، وينشئ "أخبر الله موسى لقيط الحظ التقليدى فى القرآن عندما قذفت به أمه فى النيل " وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي . ( سورة طه آية ٣٩ ) ؛ ولذا فقد نشأ موسى وترعرع بالتربية والتجربة التى أرادها الله له ، وعند ذلك قال الله له وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ( سورة طه آية ٤١ ) التى فهمها المفسرون المسلمون على أنها تعنى " لقد اخترتك لنفسى ( لتقيم برهانى وتكون متحدثا باسمى ) " أو " لقد ربيتك لنفسى ( لمهمة خاصة ) "

وتظهر صيغة الفعل المستخدمة فى الاستشهاد الأخير " اصطنع " (المصدر اصطناع) بصورة متكررة فى نصوص القرنين الرابع والخامس بمعنى " يرفع السيرة الحياتية لشخص ما " ، والاصطناع علاقة رسمية جادة على نحو يدعو للدهشة ، فالمرء لا يتوقع ممن أخذه فى حماه ( مصطنعه أو صنيعه ) مجرد الإقرار بالفضل والحب ببساطة فحسب ولكنه يتوقع تعهدا ذو أبعاد كبيرة يدوم مدى الحياة ، فإذا قلت " إنه صنيعى " فهذا يعنى " إنه الشخص الذى أحسنت تربيته وتعليمه وتدريبه " والالتزام تجاه مثل هذا الراعى أشبه بالالتزام تجاه أحد الأبوين عدا كونه لا يورث أو يقبل النقل بوصية ، وعلاوة على ذلك فقد كان تعهدا يمكن إبرامه بين أناس شبه متساوين فى السن بصورة أكبر من الأب والابن ، وكان الطريقة المثلى للساسة لإقامة روابط رسمية خارج نطاق النعمة التى يمنحونها لقلّة من الأتباع المختارين (٤٣) .

وكان الجيش أكثر العناصر خطرا وعدم استقرار فى الدولة ، وتحول البويهيون إلى الاصطناع للتحكم فى روابط الولاء وضمنان ثباتها واستقرارها حتى أنهم لم يتمكنوا من الإمساك بزمام القيادة فى بادئ الأمر إلا عن طريق عروض السماحة والسخاء قصيرة الأجل بالضرورة ، ولم يكن البويهيين أول نظام حاكم إسلامى يتوسع فى استخدام الاصطناع ؛ فقد أعاد العباسيون بناء جيشهم بالجمع بين الرق والاصطناع فى مؤسسة جديدة قوية ، وبقيت تلك المؤسسة قائمة وأصبحت ملمحاً رئيسياً لمعظم إمبراطوريات الشرق الأدنى حتى القرن التاسع عشر ، وبالنظر لكونها أحد أفضل أشكال الاصطناع الموثقة ؛ فهى تقدم بداية مناسبة لمناقشة الولاء المكتسب من خلال الاصطناع .

لقد شيد العباسيون إمبراطوريتهم فى الأصل بجيش من إقليم خراسان الواسع الواقع فى شمال شرق إيران لكن الخزى الذى لحق بالمسؤولين الخراسانيين من الأسيرة اليرمكية ، والعداء الذى خلفته الحرب الأهلية ضد الأمين والمأمون ، قد أتيا على الثقة بين بغداد وخراسان والتي وجد فيها الخراسانيون مبررا لولائهم بشكل فعال . وعندما تحدث نيابة عن الإيرانيين الشرقيين كتب أحد الشعراء ممن أيدوا الثورة الصفوية ضد العباسيين " لقد منحكم أبائنا سلطانكم لكنكم لم تبدون شكراً لنعمتنا " . ويبدو أن قلة قليلة من رعاياهم قد شعروا عندما كتبت هذه القصيدة بأنه كان لديهم مبرر للنهوض والقتال من أجل العباسيين ، فالآمال التى بعثتها الثورة العباسية كانت قد تلاشت منذ زمن طويل وكان من الواضح أنه ما من طبقة من رعايا العباسيين أو إقليم من أقاليم إمبراطوريتهم قد شعر بأنه مدين بالدعم العسكرى نظير نعم مشكوك فيها يمكن أن يمنحوها ، فقد تجاوز العباسيون حدود دولتهم وعن طريق الشراء أو الهبة جلبوا العبيد الترك " الغلمان " ( المفرد غلام ) الذين تمت تنشئتهم وتربيتهم كما لو كانوا أبناء الخليفة بالتربية (٤٤) .

- وكان الجندي " العبد " التركى ومصطنعه مرتبطان معا برابطة الولاء وكذلك الاصطناع ، على الرغم من أنه يبدو أن القائمين على الاصطناع فى القرنين الرابع والخامس قد ذكروا جندهم مرارا بتعهداتهم والتزاماتهم من خلال الاصطناع ونادراً جداً من خلال الولاء ، وكان الغلام العسكرى مديناً بتدريبه وتجهيزه وفوق كل ذلك مكانته المتميزة فى المجتمع لرعاية واهتمام من اصطنعه الذى عادة ما كان يقوم بدور الأب بالتربية للغلام منذ سن المراهقة وكان هذا التدريب يتضمن جهوداً متواصلة لغرس الطاعة وشكر النعمة لمصطنعه ، وقد زاد من قوة شكر الغلام لهذه النعم الخلق العام للنعمة والواجب البنوى ، كما أيدت تعاليم الشريعة الإسلامية حول واجب المرء الذى أعتق نحو مولاه السابق هذه العلاقة ، ولم ينح الرجال المدققون هذه التعاليم جانباً غير مباليين. ومع ذلك فعندما أشار ياقوت القائد الغلام العظيم إلى ما سبق وجد أن رجلاً أقل شأنًا منه قد أمسك بقياد الخليفة الراضى فى عام ٣٢٤ هـ ، وألقى القبض على أبناء ياقوت باسم الخليفة وطلب هذا القائد آراء الفقهاء الذين أخبروه بأنهم لا يعتبرون خروجه على مولاه أمراً شرعياً ، ولهذا السبب - وغيره من الأسباب - ظل ياقوت أسيراً للحيرة والتردد - شأنه فى ذلك شأن هاملت شكسبير - فى جنوب العراق حتى قضى عليه .

ورغم ذلك فقد كانت الروابط الشرعية أقل أهمية من الروابط الثابتة الباقية للحب التي غالباً ما كانت تنشأ بين الغلام وسيدة خاصة عندما أصبح الغلام شخصية عسكرية ذات شأن لم يكن من السهل مساءلتها أو محاسبتها قانونياً ، وفي عام ٣٢٩ هـ سمع أمير الأمراء التركي باجكام أن المرتزق الشرس "ماكان بن كاكى" الذى اصطنعه ورباه ودربه قد توفى وحدث أن كان باجكام أوفر حظاً وأعلى شأنًا بكثير فى هذه الدنيا عن "ماكان" الذى تركه منذ سنوات ، ومع ذلك فقد تأثر بشدة لسماع نبأ وفاة "ماكان" وجلس يتلقى التعازى فيه قائلاً : " كان مولاي ولم أر فارساً مثله قط " .

وكما روينا سابقاً فعندما كان القائد البارز ياقوت يبدد موارده فى جنوب العراق فى حكم المراضى ؛ نظراً لعدم رغبته فى الخروج على الخليفة ، الذى كان خاضعاً آنذاك لسيطرة أمير الأمراء ، والذى ألقى القبض على أبناء ياقوت قرر أحد ضباط ياقوت الأخذ بزمam المبادرة حيث أخذ ثلاثة آلاف من جند ياقوت وخرج لملاقاة البريويين فى الأهواز ؛ حتى يتسنى لياقوت أن يجد إقليماً على الأقل كى يحكمه وبعدها يمكنه إما أن يصل إلى تسوية مع أمير الأمراء ، أو أن يتوجه إلى بغداد ويصبح هو نفسه أميراً للأمراء ، لكن رسولاً من قبل ياقوت لحق بالضابط وثنى عزمه بحماقة عن مواصلة زحفه ، وفى حدى مع الرسول وصف الضابط بشكل تصويرى نابض بالحياة دينه لياقوت قائلاً : " لن أخرج على مولاي ( ياقوت ) فهو الذى اشتراى وربانى واصطنعنى " (٤٥) .

وطبقاً لما ورد فى كتب الشريعة الإسلامية فقد كانت اصطناع الموالى قابلة لأن تورث أو تنتقل لكن الرابطة الشخصية الأكثر أهمية بين الغلام وأبيه بالتربية بطبيعتها كان من المستحيل أن تتناقلها الأجيال ، وأحياناً كان الغلام يوسع نطاق مشاعره بالولاء لتشمل أبناء مولاه الذين ربما يكون " قد عرفهم منذ الطفولة ، وعادة ما كان التوسع الزائد للرابطة بين الغلام ومولاه ترتيب عملى رسمى ، حيث يمكن للولاء الشخصى إيجاده فحسب عن طريق مجموعة كاملة من أعمال السماحة والجود الجديدة نحو الغلام ، وكان ذلك عن طريق جهد جماعى للاصطناع أو الرعاية فى واقع الأمر. وعقب هزيمة عز الدولة - حاكم العراق البويهى - ووفاته لجأت أسرته إلى " الفتكين " فى دمشق ، ذلك أنه حتى على الرغم من أن الفتكين قد تزعم ثورة غير ناجحة ضد عز الدولة فقد كان فى الأصل مولى معز الدولة والد عز الدولة ، وعندما

سمع بمقدم أسرة مصطنعه إليه " قضى حقهم عليه " وأدى واجبه نحوهم وتعاونوا معاً في قتال العزيز الذي كان قد قرر إخضاع جنوب سوريا للسيطرة الفاطمية بصفة دائمة ، ورغم انتصار العزيز إلا أنه تأثر بشدة لحال خصمه الأسير ( من المحتمل أنه من أسرة عز الدولة ) حتى أنه اشترى الحق في أن يكون مصطنع الفتكين ( اشترى ولاءه ) ، وأصبح الفتكين "أشبه بعبد " للعزيز وهنا تحقق انتقال الولاء عن طريق الرعاية والاصطناع الواضح من جانب العزيز وهو سرعان ما جعل من الفتكين شخصية بارزة في الدولة الفاطمية (٤٦) .

وفي معظم الأحوال توقع الناس من الغلام أن يكون أشد ولاء لمصطنعه الأصلي . ونظراً لأن هذا المصطنع ربما يكون أحد رعايا الملك أو حتى أحد غلمانه ؛ فقد كانت الدولة تلقى دعماً وتأييداً من خلال الولاء متعدد الطبقات والذي بحاجة إلى الضبط بشكل متكرر ، وكان لدى أصحاب الأراضي في فارس غلمان ( كما هو مرجح للغاية لعدد كبير من أصحاب الأراضي في مكان آخر ) واضطر على بن بويه لقتال بعضهم عندما دخل شيراز أول مرة في عام ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م ، وكانت الحجة لتعيين حميد بن العباس ملتزم الضرائب في منصب وزير في عام ٣٠٦ هـ أنه كان يمتلك أربعمائة غلام شخصيين ، وكان لكل واحد منهم غلمانه الخصوصيين ، وقد أحدث وصول حميد إلى بغداد في وقت لاحق مصحوباً بدقات الطبول المدوية لجيشه ضجة عظيمة ، ومع ذلك ففي أغلب الأحيان نسمع عن الغلمان التابعين للقادة الغلمان نوى الشأن في خدمة الحكومة . وعندما تنازع مؤنس مع الخليفة القاهر في عام ٣٢٠ هـ غادر بغداد مصحوباً بحوالي ألفي غلام من بينهم الكثير من السود واستمرت هذه الممارسة طوال العهد البويهى ، وعلى سبيل المثال ففي عام ٣٦٣ هـ كان لدى كبير القادة الترك لعز الدولة البويهى أربعمائة غلاماً مملوكاً (٤٧) .

وقد بقيت مثل هذه الأنظمة الحاكمة القائمة على اصطناع كبير قادة طيلة جيل أو جيلين عقب وفاة مؤسسها ، ومن الشائع في الفترات المتأخرة من العهدين العباسى والبويهى أن نقرأ عن جماعة من الجند المسماة باسم مصطنعها الأصلي الراحل كأن نقرأ مثلاً عن المؤنسية في عام ٣٣٢ هـ / ٩٣٥ م بعد عدة سنوات من وفاة مؤنس ، وإذا توفي الغلام ألت إلى مولاه ثروته وأتباعه ؛ وعلى سبيل المثال ففي عام ٣٣٢ / ٩٤٤ م لم يرث توزون أمير الأمراء التركى من قائده الغلام يانال ثروة عظيمة فحسب بل ورث

أيضاً الغلمان التابعين لـيانال ، ومع ذلك فقد كان السيد في معظم الأحوال أكبر سنّاً ويتوفى أولاً ، وكان التحول اللاحق لولاء الغلمان مسألة حساسة ، فعندما توفي يانيس الموفق ( وكان في الأصل غلاماً للموفق العباسي كما يشير اسمه ) وكان ضابطاً ممتازاً تابعاً لحرس القصر في عام ٣١١ هـ أشار حاجب الخليفة على الخليفة بأن يأمر ولي العهد بأن يجمع جند وخدم وحاشية يانيس جميعهم وأن يقول لهم : " إنني الآن بمنزلة يانيس منكم وعليكم ، وسوف يُزاد لكم في العطاء ويُنظر إلى أحوالكم بعين الرعاية " ومع ذلك فبدلاً من ذلك سمح الخليفة لنفسه بأن يقنعه الوزير ابن الفرات بنهب ممتلكات الرجل المتوفى وبإخفاقه في إيجاد تحول شريف لولاءات الغلمان من قائدهم السابق إلى قائد جديد وضع الخليفة مسماراً آخر في نعش الحكم العباسي . وبوجه عام فقد عادت أفواج الغلمان في نهاية الأمر إلى التجمع مرة أخرى حول أحد ضباطها البارزين من الجيل التالي طالما كانت تحتفظ بهوية مستقلة دون تحول رسمي وسرعان ما سُميت باسم قائدها المصطنع الجديد (٤٨) .

وكان يفترض للغلام بوجه عام أن يجري تعاملاته مع الحاكم من خلال مولاه ، أما أن يفعل خلاف ذلك فكان هذا يعني رفضه لأسبقية رابطة بمولاه ؛ وعلى سبيل المثال فقد اشترى مؤنس ولاء جندي تركي موهوب يدعى شافى بعد أن أعتق الخليفة المعتضد ذلك الجندي ، وبعد مرور عشر سنوات أو نحو ذلك ألحق مؤنس شافى بخدمة الخليفة المقتدر وسرعان ما أصبح مؤنس غاضباً من وليه عندما أخفق شافى في تأييد ومؤازرة سياسة مؤنس داخل الحكومة، ومع ذلك جاءت القشة الأخيرة التي قصمت ظهر البعير في حكم القاهر خليفة المقتدر ؛ ففي ظل حكم هذا الخليفة فقد شافى الحظوة لكنه لم يطلب من مولاه الشرعى مؤنس التدخل للحصول على ضمانات أمان له من الخليفة الجديد، وبدلاً من ذلك تحول شافى إلى الكالوازانى نائب الوزير ، وفي ثورة غضب أمر مؤنس بإحضار شافى ( الذي كان قائداً بارزاً في ذلك الوقت ) وباعه في مزاد بحضوره ، وبوصفه مولاه فقد كان لمؤنس كل الحق في القيام بذلك ، وقام الكالوازانى بشراء شافى نيابة عن الخليفة مقابل ٧٠ ألف دينار و أعتقه وفي نهاية الأمر تصالح شافى و مؤنس (٤٩) .

وكان وجود فيلق من الغلمان أمراً أساسياً لبقاء كل حاكم حيث كان يرعى تدريبهم بنفسه و كانوا يشتركون في عاطفة الحب القوية التي عادة ما كان الغلمان

يشعرون بها تجاه المصطنعين الذين أزروهم وساندوهم في مسيرتهم الحياتية بهذه الطريقة ، وكان هؤلاء "رجال الملك" بصورة خاصة للغاية ، ولم يكن يفترض لأي شخص آخر أن يتلاعب بعاطقتهم تجاه الملك أو يحاسبهم ، ونادراً ما أقدمت الأطراف الخارجية على القيام بذلك ما لم تكن تعتزم التآمر أو القيام بثورة علنية ، وعلى سبيل المثال فعندما كان غلمان أبي على بن اسماعيل يلعبون البولو في شيراز مع غلمان الملك البويهى بهاء الدولة وقعت إحدى المشاجرات التى تعد شائعة الحدوث فى هذه اللعبة بين الجانبين ، وانسحب الوزير أبو على إلى قصره ، ورفض استقبال أى شخص من الجانب الآخر وأرسل رسالة أشار فيها بتسليم بعض الغلمان من الجانب الآخر إليه وغضب الملك لمخاطبته بشأن موضوع يخص غلمانه ، وأغضبه أكثر ما أشار به أبو على من تسليم بعضهم إليه ، فلم يكن بمقدور أحد أن يحاسب غلمان الملك حتى يبين للملك أن ذلك لصالح النظام الحاكم ، واعتبر خطأً أبى على أحد الأسباب التى أدت إلى سقوطه (٥٠) .

وكما رأينا فقد كان الغلمان يستطيعون العمل فى مستويات عديدة للحكم وربما كانوا يضطرون إلى أن تكون لهم ولاءات مختلطة بسبب وفاة مولاهم أو بحكم الظروف ، ورغم ذلك فعادة ما كان تعلق الغلمان الذين كان قد تم جلبهم أطفالاً أو مراهقين صفار السن بسيدهم الأول ولأء عاطفياً ومباشراً يمكن لسيد كريم أن يعول عليه ، وهذا هو السبب فى أنهم استطاعوا أن يصبحوا رجال الملك على هذا النحو الخاص ، وفى مناسبات عدة كان الشعور العميق بالولاءات لدى الغلمان كل ما أنقذ الحاكم البويهى من الهزيمة والموت ، وفى عام ٣٤٥هـ / ٩٥٧ م قاد القائد الديلمى روزباهان معظم جيش العراق للثورة ضد معز الدولة ، وفى المعركة الأخيرة وعندما بدا الملك البويهى على وشك أن يلقى الهزيمة خطب فى غلمان قصره الذين جلبهم بنفسه وقام برعايتهم عبر مجرى حياتهم قائلاً لهم : " أبنائى لقد ربيتكم كما لو كنتم أبنائى - والآن أرونى ما أنتم أهل له " والحقيقة أن حملتهم الأخيرة اليائسة اجتاحت كل شىء أمامها وسحقت الثورة ، وبالمثل وفى عام ٤١٩ هـ عندما حوصر جلال الدولة البويهى فى قصره من قبل الغلمان الأكبر سناً وكان على وشك مغادرة بغداد احتشد أصاغر الغلمان - ولابد أنهم أولئك الغلمان الذين رباهم بنفسه - ووقفوا إلى جانبه ومكنوه من البقاء .

وهكذا كانت قوة الرابطة بين الأبوة بالتربية والاصطناع حتى أن الغلمان في الثورة العلنية كانوا يكرهون إحراز تفوق على مولاهم السابق والنيل منه ، وفي عام ٣٦٣ هـ كان عز الدولة في جنوب العراق بلا أية قدرات دفاعية تقريبا في وجه ثورة جيشه بقيادة سابوتاكين ، وفي كل مرة كان يقترب فيها جندي تركي من الجيش الثائر من عز الدولة في الأجمة حيث كان يتخذ مع قلة من أتباعه موقعهم الأخير كان عز الدولة يذكر الجندي بالنعمة التي تلقاها ويغضب الله - كما هو مفترض - لكفر النعمة هكذا وأن الجندي كان صنيعه وصنيع أبيه فكان الجندي يتأثر بكلامه ويرجع عنه (٥١) .

وقد شمل الاصطناع أو الرعاية المتواصلة عدد كبير ومتنوع من العلاقات ، وكانت العلاقة التي تربط الغلام الذي أعتق ومولاه الشكل الأوحى للاصطناع ، ويصف ابن خلدون المفكر الاجتماعي العربي العظيم في القرن الرابع عشر تشابه الاصطناع بكافة أشكاله في مقدمته قائلاً : " عندما يتخذ أناس ذوي شعور جماعي ( عصبية ) أتباعاً ( اصطناع ) من أناس ينتمون لأصل آخر ، أو عندما يأخذون عبيدا وموالي في قيد العبودية ويدخلون في اتصال وثيق معهم كما ذكرنا فإن الموالى و الأتباع ( المصطنعون ) يشتركون في الشعور الجماعي لساادتهم ، ويتخذونه كما لو كان شعورهم الجماعي الخاص " ؛ ولذا كان الاصطناع أو الرعاية المتواصلة وسيلة هامة لإيجاد روابط جديدة على كافة الأصعدة الحياتية ، ومما لا شك فيه أنه إذا توافر لدينا مزيداً من المعلومات بشأن المستويات الحياتية الدنيا فسوف نلاحظ أثرها في العلاقات التي تربط بين أصحاب الأراضي والفلاحين والبقالين والكناسين (٥٢) .

ومع ذلك فهناك شاهد بليغ على أهميتها لتمامسك وبناء البيروقراطية في مصادرتنا . وقد تعرض الكاتب المسيحي عيسى بن الحسن بن أبرونا الذي كان كاتباً خاصاً للوزير البويهى المهلبى للضرب بعد وفاة الوزير عندما رفض الكشف عن مكان ثروة سيده المخبوءة ، وبعد ذلك هدده معذبه بالموت فقال لهم : " الحمد لله ، هل أكون ابن أبرونا الطبيب والفصاء الذي يمارس مهنته في الشارع من أجل ( رسم بخس ) دائق ونصف الدائق ، والذي أخذه الوزير أبو محمد واصطنعه وجعله كاتبه الخاص ، والذي أصبح معروفا كواحد ممن يعملون في خدمته و ( بعد ذلك ) أخبر الناس

بمكان الكنز الذي ادخره لابنه ؟ والله ما كنت لأفعل ذلك حتى وإن هلكت " ، وأحسن ابن قاسنجاس والعباس بن الحسن الشيرازي المسئولان اللذان خلفا المهلبى الظن به لولائه لسيدته الراحل حتى أنهما أعتقاه وترقى ابن أبرونا فى خدمتهما ، وقد بدأ معظم الكتبة الحكوميين المهنيون خاصة أولئك الذين برعوا فى الأساليب الرسمية للكتابة والإنشاء ككتبة تحت التمرين فى سن صغيرة نسبياً ، وكانت تدفع لهم رواتبهم من قبل رئيس الإدارة أو القسم الذى كانت له - فيما يبدو - الحرية فى اختيار من أراد من الشباب كناسخين ومتدربين ، ولذا فقد أقر هؤلاء المتدربون فى مراحل متأخرة من حياتهم بأن رؤساء الإدارات أو الأقسام هؤلاء كانوا مصطنعهم الأصليين ، وكثيرا ما يشار إلى هذه الرابطة وما كانت تنطوى عليه من تعهدات و التزامات ، وعلى سبيل المثال فقد عظم شأن ابن الفرات حتى كان أعظم الوزراء نفوذا فى أواخر العهد العباسى فكان نموذجا للوزير المدنى الذى هيمن على الحكومة إجمالا ، ورغم ذلك فهو لم ينس أبدا أن ابن بستم كان رئيسه فى مرحلة ما مبكرة من حياته المهنية ، وقد دأب ابن الفرات على معاملته باحترام عظيم حيث قال : " إن التزام المرء تجاه رئيسه لا ينسى ودين المرء له لا يوفى " ، وتشير الروايات التاريخية أحيانا إلى القضاة المحسوبة للالزمة لإغفال مثل هذه الروابط للاصطناع بين البيروقراطيين . وعندما بدأ ابن شيرزاد فى تغريم الرجال البارزين تعسفيا فى عام ٣٣٣ هـ فى محاولة يائسة للإبقاء على الحكومة قادرة على الوفاء بديونها قام بإدراج على بن عيسى الذى اصطنع مهنة ابن شيرزاد ضمن قائمة الضحايا ، وعندما أتى على بن عيسى لزيارته رفض ابن شيرزاد الذى تملكه الارتباك مقابلته (٥٣) .

وكنتيجة طبيعية للدور الهام للاصطناع بين الكتبة كان الرجل الذى يخفق فى رعاية أتباعه يخفق بالتبعية فى إيجاد المؤيدين ( أو حتى الطوائف ) اللازمين لمراقبة البيروقراطية والتأثير فيها بشكل فعال عندما يصل إلى منصب من مناصب السلطة . والواقع أن فرص الرجل الذى لم يكن يصطنع كانت أقل فى إنهاء حياته المهنية فى الخدمة الحكومية وهو على قيد الحياة ، وفى عام ٢٣٣ هـ / ٨٤٧ م قال أحد الخدم السابقين للوزير السابق ابن الزيات لسيدته السابق بينما كان يعذب حتى الموت : " لهذا ولئله اعتدنا أن نحتك على الإحسان وأن تلزم الناس بإظهار الامتنان والصنائع وأنت نو نفوذ حتى تجنى النفع عندما تعوزك الحاجة " (٥٤) .

ويبدو أن الاصطناع في العهد البويهي بمعناه الكامل قد اقتصر تقديمه من قبل الكتبة للكتابة ومن قبل الجند للجند ، وكان الخليفة مدني وجندي في آن واحد وكان بإمكانه الزعم بأن أتباعه المدنيين هم " رجاله " كما كان غلمانهم ، ولكننا نادرا ما نسمع هذا الزعم في العهد العباسي ، وعندما كان الملك في الفترة ما بعد العهد العباسي جنديا بوضوح فبقدر ما كان يمكن للاصطناع أن يعبر الحدود الفاصلة بين الفروع المدنية والعسكرية للحكم يبدو أن الكتبة لم يصبحوا صنيعة الحكام ، والواقع أنه إذا لم يكن الحاكم قد قام باصطناع مهنة من هم في كنفه من الكتبة بنفس الطريقة التي اتبعها رئيس القسم في اصطناع مهنة كاتبه المتمرن لكان قد شعر بالارتباك لإلحاقه الخزي بوزرائه ، وهو شعور بالارتباك ما كان لأي حاكم له نفوذه أن يرغب فيه ، وكان الكتبة مدينين لهذا التمييز بمرونتهم وبقائهم ، ولم يستطع الكتبة إلقاء نفوذهم على عواهنه بنفس السهولة كالموظفين والقادة الذين كانوا شديدي الالتصاق بمولاهم الملك ، ومع ذلك فقد كان الكتبة - بحكم أنهم لم يصبحوا " رجال الملك " - أفضل قدرة من الجند على الصمود في وجه التغيرات التي تطرأ على الأسرة الحاكمة ، والدخول في خدمة سادة جدد .

وهناك بعض الحالات لرعاية الاصطناع بين البالغين المتساوين تقريبا في المنزلة أو النفوذ . وعلى سبيل المثال فقد اصطنع ابن أبي ساج القائد الكردي دايسام الذي أصبح فيما بعد حاكما لأذربيجان - ويتجلى أوضح مثال للرعاية الرسمية للاصطناع بين البالغين في العلاقات التي كانت تربط بين أمير الأمراء التركي باجكام والخليفة الراضي ، وكان الخليفة يكره ابن رائق عامله الأول على القصر وكان يشجع باجكام سرا على المجيء إلى بغداد وأن يحل محله كأمر للأمراء . وأرسل الخليفة بوصيته إلى باجكام بأنه سوف يكون مخلصا لباجكام يوما إذا ما ولى باجكام شئونه في الوقت الذي كان يخبر فيه باجكام قائلاً له : " لزاما عليك أن تكون مخلصا لمن اصطنعك وأحسن إليك " ، ووافق باجكام على المجيء إلى بغداد وقبل دوره كواحد ممن اصطنعهم الخليفة ( زيفا ) حتى على الرغم من أن الخليفة كان ضعيفاً في ذلك الوقت ولم يكن بمقدوره أن يقدم لباجكام أي شيء عدا مظاهر الحفاوة والتكريم ، وكان الخليفة شاكراً ممتناً ، وأخبر خاصته بأنه في الوقت الذي سوف يقول فيه ابن رائق " لقد اصطنعتك " أو " أنا الذي وضعتك على العرش " .... فعلى العكس (ففي حالة

باجكام-) اتخذنا خطوة باصطناعه ، وإذا تصرف أحد أتباعه بشكل خاطئ فنحن كما يقول الخليفة - نرى أن باحكام سوف يكون راضيا بالإعدام وإنزال أشد العقوبات ( بالآثم ) .. ولذا فأنا مسرور منه .. ( واختتم الخليفة بعد ذلك ) سوف يكون من الأفضل لو أن كافة السلطات اجتمعت لدى كما كانت عادة من سبقوني لكن القدر لم يمنحني هذا . وكانت هذه الأشكال الزائفة للاصطناع تعظم الشكل الأساسي للاصطناع القائم بين الرئيس والمرعوس إلى حد ما ، وعندما أراد الناس في كثير من المواقف تصوير حبهم المتواصل لبعضهم البعض كشئ ما أكثر من مجرد نتيجة ليمين فقد حاكوا أسلوب الاصطناع الذي كان من المنظور ملاحظة فاعليته في كل مكان حولهم في المجتمع (٥٥) .

وقد شجعت فوائد الاصطناع للصنيع محاكاة مفردات الاصطناع على نطاق واسع من قبل الرجال الذين كانوا يأملون في نيل الخطوة عند الآخرين وكسب رضاهم بهذه الوسيلة ، ولم تقتصر محاكاة المفردات على أناس مثل باجكام والخليفة اللذان أرادوا إعطاء اسم مشرف يمكن تمييزه لاحترامهما المتبادل ، لكن هذه المحاكاة شملت أيضا أولئك الذين كانت تربطهم روابط طارئة ومؤقتة للغاية ، وقد حاول باجكام نفسه قبل أن يستولى على بغداد ويجد مصطنع جدير بإظهار تواضعه الزائف له بشكل متواصل أن يخدع وزير رفيع المقام لابن رائق وأن يكسب ثقته قائلاً له : " أنا صنيعةك وصنيعه ( أى ابن رائق ) والنبتة التي غرستها كلاكما " .

وأصبح الاصطناع كلمة شائعة للرعاية والمنة بما في ذلك ما يبيده الملك من رعاية واستحسان تجاه أحد رجال حاشيته ، وبعد أن ألقى عضد الدولة القبض على محمد بن عمر العلوي الثرى ذى النفوذ في عام ٣٦٩ هـ اصطنع لأخيه الذى كان يفترض بون شك أن يقدم النصيح والتأييد للملك مثلاً فقل محمداً ، وعندما اكتشف رئيس شرطة بغداد فى عام ٣٢٢ هـ أنه من المستحيل السيطرة على كبير اللصوص (شيخ المنصر) الشهير ابن حمدي حاولت الشرطة التوصل إلى اتفاق معه بالاصطناع له ، فكانت رعاية مهنة مجرم بعيدة كل البعد عن الرابطة بين السيد والكاتب المتمرن .

وكانت أحط كلمة فى هذه الأسرة كلمة مصانعة ذات الصلة بكلمتى اصطناع وصنيعه، وكانت تعنى فى أبسط معانيها "التظاهر بالرعاية والاستحسان تجاه شخص معين" لكنها كانت كلمة شائعة أيضا للرشوة ، ولا تدل هذه الاستخدامات ضمناً على

أن رابطة الاصطناع شبه الرسمية كانت ضعيفة أو آخذة في الضعف، فعن طريق تملق هاتين الكلمتين لها فهما توضحان أهميتها (٥٦) .

## ولاء الرجال الذين صعودوا معاً

وكان الولاء لأولئك الذين شاركوا في صعود المرء قريباً من الرعاية المتواصلة للاصطناع ومستمد على نحو مشابه من أخلاقيات النعمة . وكالاصطناع غالباً ما كان هذا الولاء - وإن لم يكن على وجه الحصر - رابطة بين رئيس ومرعوس ، وكالاصطناع كان رابطة مكتسبة غالباً ما كانت تُفسر على أنها تقترب من الروابط الموروثة لسلسلة النسب المشتركة . ورغم ذلك فشأنه شأن الاصطناع تأثر هذا الولاء بشدة بالإيمان بالدولة " تحول حسن الحظ " الذي غالباً ما يمنحه الله لفرد أو لأسرة أو حتى لشعب .

وما من موضع يلاحظ فيه هذا الولاء لأولئك الذين شاركوا المرء صعوده على نحو أكثر حيوية من ملاحظته في الروابط بين الجند الأشداء الذين أسسوا دولاً جديدة ووزرائهم ، وقد شعر على بن بويه عماد الدولة بأنه تلقى بركة الحظ ( تبرك ) عن طريق وزيره الأول أبو سعد إسرائيل ، فأحسن إليه وقربه كثيراً حتى بعد أن أسس مملكة رغم أنه استعان برجال أكثر كفاءة منه من الناحية الفنية في الخدمة الملكية ، وعندما أمعن أحد هؤلاء الوزراء الأكثر كفاءة في مهاجمة أبي سعد قال له الملك : " يا هذا لقد كان هذا الرجل رفيقاً عندما كنت وضيع المنزلة والآن أما وقد بلغت هذا المقام الذي تراه لأستطيع أن أقول إن كان هذا حسن حظي (دولتي ) أم دولته التي أتت بي إلى هنا . فلا سبيل لزعة منزلته ، ولتحذر مخاطبتي في هذا الأمر ثانية " ، وشبيه بذلك ما حدث عندما حث مسئول رفيع المستوى ابن الرائق على طرد كبير وزرائه في عام ٣٢٥ هـ فأجابه قائلاً : " ليست لدى أية نية لطرد الحسين بن علي ( النوبوختي ) من خدمتي ، فقد أخلص لي الصنع وتبركت به " ، وعندما مرض النوبوختي وخُذع ابن رائق بالاعتقاد بأنه سوف يموت عين الأمير مسئولاً آخر مكانه ، وعندما أدرك أنه قد خُذع نظر ابن رائق في إعادة تعيين النوبوختي نظراً " لبركته على دولتي " كما قال ابن رائق (٥٧) .

ومن المرجح أن الروابط بين الرجال الذين اشتركوا في صعودهم قد وجدت في مستويات متعددة للحياة ومما لا شك فيه أن هذه الروابط قد زادت من قوة الروابط بين الرجال الذين غادروا قريتهم مثلاً وتوجهوا إلى شيراز أو الري حيث كان أصدقائهم الوحيدون في بادئ الأمر أناساً من نفس القرية ، وربما تكون روابط الصعود المشترك قد ساعدت على تلاحم طوائف الكتبة (أو حتى الطوائف المدنية - العسكرية المختلطة ) في حكومة تم تأليفها لأسباب مختلفة للغاية في المقام الأول ، وما إن كان يتحقق تحولاً لحسن الحظ لمثل هذه الطائفة كان يصير لديها مبرراً ميثاقياً وكذلك إستراتيجياً ؛ لأن تأمل إذا ما ظلت تركيبتها ثابتة أنه ربما يحالفها حسن الحظ ثانية . ولكن حتى التجربة المشتركة للنشأة و " معرفة الدنيا على حقيقتها معا " والتي توجد روابط في أية ثقافة يُقال إنها توجد رابطة واضحة وصريحة بين رجلين . وعندما توفي كاتب للوزير البريهي المهلبى فجأة وعلى نحو مأساوى - قال الوزير إنه سوف يضم الابن اليتيم للكاتب المتوفى إلى ابنه الذى كان فى نفس سنه ، وفسر ما فعله قائلاً إنهما بذلك "سوف يتعلمان معا ويكبران معاً وسوف يكون (للطفل اليتيم ) حق عليه " (٥٨).

### صفة الولاءات المكتسبة

لقد نوقشت جميع الروابط التى ورد وصفها فى هذا الفصل بشكل صريح ومعلن وتكرر استحضارها عندما كان الناس يأملون فى جعل مطالبهم من الآخرين نافذة المفعول ، وكانت المشاركة فى جميع هذه الروابط بشكل معلن وصريح وغالباً ما كان ذلك بتعهد رسمى أو شبه رسمى بين الطرفين اللذين زعما قبول هذه الروابط . وكان يمكن لرابطة الولاء فقط- والتي كانت تعنى فى تلك الفترة رابطة العبد الذى أعنق بمولاه السابق - أن يتم نقلها بدورها إلى أبناء المرء بصورة شرعية ، وهناك بضعة أمثلة شعر فيها عبد سابق أو مصطنع بشكل فعلى بالتزام ما تجاه أبناء مولاه ؛ وعلى سبيل المثال فقد وافق الوزير ابن الفرات على أن المقتدر سوف يكون اختياراً مقبولاً كى يخلف الخليفة المكتفى ؛ نظراً لأن المقتدر كان ابن الخليفة السابق المعتضد و " معظم من نراهم حولنا صنائع المعتضد " ، ولكنه من المشكوك فيه أن هذا الشعور بالالتزام كان سيوجه نحو أحفاد أى سيد ، وفى معظم الحالات كانت الروابط المكتسبة تزول بموت من اكتسبها (٥٩) .

وتتشابه جميع هذه الروابط من حيث كونها روابط فردية ( ونعود فنكرر أن ذلك مع الاستثناء المحتمل للعبد الذى أعتق والذى كان لديه نوعا ما من الارتباط والتعلق بأسرة مولاه السابق ) ، وكان الرجال يصطنعون مهنة لأفراد مختارين وليس لجماعات مفترضة سلفاً ، ووراء جميع هذه الروابط المكتسبة نرى الافتراض الفردى المسبق أن المرء يمكن أن يقبل أو يعرض التزاماً بالأصالة عن نفسه فقط وليس بالأصالة عن جماعة ، وبالطبع كان هناك الناطقين بألسن الجماعات ، ولكننا سوف نرى فى الفصل القادم أنهم كانوا ملتزمين بالحصول على الموافقة الشخصية لأولئك الذين يتحدثون نيابة عنهم ، وكما يقول القرآن مراراً وتكراراً : " لا تزر وازرة وزر أخرى " .

ورغم ذلك فهذه الروابط تقوم أيضاً بدورها داخل إطار فروض مسبقة معينة بشأن طبقات وأهليات الناس ، وما من رابطة من الروابط التى ناقشناها تقوم بحد ذاتها على رابطة الطبقة ، وعلى سبيل المثال فمن غير المقرر أن جميع الناس الذين ولدوا فى أصفهان يدينون بالطاعة لأسرة سيد بعينه بسبب إيمان ، أو أى نوع من الاتفاق دخل فيه أسلافهم ، ورغم ذلك فقد كانت الافتراضات الخاصة بالقدرات المحتملة للطبقات المختلفة من الناس موجودة دائماً ، ولم تتم إقامة هذه الروابط المكتسبة عشوائياً ، لكن جماعات متشابهة من الناس كانت تشترك فيها جيلاً بعد جيل . وروابط الطبقة هذه الأقل شخصية والأقل رسمية والموروثة عادة هى ما سوف نتحول إليه ونتناوله فى الفصل القادم .

## الفصل الثالث

### ولاءات الطبقة

يقوم الرجال ذوى المصلحة المشتركة فى بعض المناسبات باتخاذ قضية مشتركة سواء كانت مصالحهم حماية مهنتهم أو مدينتهم أو أسرهم ، لكن مثل هذه المصالح بحاجة إلى أن تتسم بالوعى الذاتى ؛ كى تنتج ولاءات تتسم بالوعى الذاتى ، والغرض من هذا الفصل هو وصف بعض المصالح التى تتسم بالوعى الذاتى والتى أوجدت الولاءات فى مجتمع غرب إيران والمناطق المجاورة فى العهد البويهى ، ولإعطاء وصف لهذه المصالح والولاءات سوف نصف أولاً كيف اعتقد المرء فى تلك الفترة بأنه قد وصل به الحال إلى أن يوضع ضمن طبقة كان لها مثل هذه المصلحة المشتركة ؛ وعلى وجه التحديد فسوف تناقش كيف أن المرء فى القرنين العاشر والحادى عشر كان يفترض بالدرجة الأولى أن تكون أو لا تكون لديه الأهلية لأن يكون عضواً فى مهنة معينة أو أن يحتفظ بمنزلة اجتماعية معينة فى الحياة ، وبعد ذلك سوف نصف مفردات " الطبقة " ، وهى الكلمات المجردة التى كانت تستخدم لجماعة اجتماعية يمكن تحديد هويتها كما نقوم نحن الآن مثلاً باستخدام الكلمات " الطبقة الاجتماعية " ، وأخيراً سوف نتناول الولاءات التى تمخض عنها الاشتراك فى هذه الطبقات .

وليس هناك خط واضح يمكن رسمه بين هذه الولاءات والولاءات التى نوقشت فى الفصل السابق ؛ فالولاءات التى اشترك فيها الغلمان الأتراك مثلاً كانت نتيجة لكل من علاقات تعاقدية معينة كانت تربطهم بمن اصطنعوهم والعضوية المشتركة فى طبقة خاصة ربما كان من اصطنعهم و الذى غالباً ما كان هو نفسه غلاماً ينتمى إليها . ورغم ذلك فقد كانت روابط الولاء المكتسبة رسمياً وروابط الطبقة مميزة نسبياً للناس فى العهد البويهى والذين لم يستخدموا بوجه عام الكلمات كـ " المنزلة الاجتماعية "

أو " الطبقة " أو " الفئة " لوصف جماعة تربطها مثل هذه الروابط المكتسبة رسمياً ، وعلاوة على ذلك يبدو أن هذين النوعين للروابط كانا مختلفين من الناحية الوظيفية ، وعلى سبيل المثال فقد كان هناك نوعاً ما من العقوبة ضد عدم الإذعان عادة ما كان يدخل فى تركيبة الرابطة المكتسبة رسمياً فى حين أن الرابطة غير الرسمية للطبقة كانت تدعمها عقوبات غير رسمية وغير مصرح بها فى معظم الأحوال .

## أهلية المرء

غالباً ما توصف أهليات الناس فى نصوص القرن الرابع من خلال الحسب والنسب . والنسب هو سلسلة النسب ، وتأثير نسب المرء على وضعه الاجتماعى . والحسب هو الشرف المكتسب من خلال الأعمال والمآثر ، وتقدير أهلية المرء أحياناً أيضاً من خلال فئة ثالثة وهى النِصاب أو الثروة ، ولم تكن هذه المصطلحات مترادفة بالنسبة للناس فى القرنين الرابع هـ / العاشر م والخامس هـ / الحادى عشر م ، ومع ذلك فغالباً ما سوف يتداخل تعريف أحد المؤلفين المعاصرين للحسب مع تعريف مؤلف آخر للنسب والعكس بالعكس ، ولا يدل مثل هذا التداخل ضمناً على أن هذه المصطلحات كانت فارغة وغير هامة ، فهذا يعكس اضطراب أى مجتمع حقيقى حيث يكون لدى الناس طرقاً مختلفة لتقدير أهليات بعضهم البعض - وفوق كل هذا - وصف قيمتهم الشخصية الذاتية لرفاقهم .

ومن بين هذين المصطلحين يكون تعريف النسب أكثر سهولة ؛ نظراً لأنه يدل بوضوح على سلسلة النسب البيولوجية للمرء . لكنه ليس من السهل هكذا وصف ما كان من أهمية سلسلة النسب البيولوجية للمرء لتقدير أهليته أو لتقرير قيمته الافتراضية ، والواقع أن الجميع اتفقوا على أن الوراثة كان لها بعض التأثير على أهلية المرء ، واعتقد معظم الناس أن لها تأثير عظيم ، وكان يُعتقد بأن جماعات البشر التى يُفترض أنها ذات سلسلة نسب مشتركة تمتلك مواهب خاصة من خلال تأثير وراثتها .

ورغم ذلك لم يلاحظ أن تأثير الوراثة مباشر وثابت ، وكما قال كاتب المقالات العربى الجاحظ فى القرن الثالث هـ / التاسع م : فليس كل يونانى فيلسوفاً وليس كل صينى حرفى ألمعى ، لكن هذه المواهب توجد بينهم بشكل عام وكامل أكثر من غيرهم .

وعلى أساس هذه الرؤية يمكن اكتشاف نفس التغير داخل إطار احتمال كلى إذا تمت دراسة تأثيرات الوراثة زمنياً حيث يمكن دراستها تزامنياً بين جماعة ذات نسب مشترك كاليونانيين ، وقد فسر كاتب القرن الثالث هـ / التاسع م ابن قتيبة أن الله قد خلق آدم من حفنة من المادة تتكون من مقادير ضئيلة من التراب من جميع أجزاء العالم ؛ ولذا كان التنوع العظيم للطبيعة البشرية بأكمله متأصلاً فيه ، وقد يتخطى تأثير هذه الوراثة جيلاً؛ ومن ثم فإن «المرء قد يكون عكس أبيه فى الأخلاق أو الشمائل والهمم ، أو فى جميع هذه النواحي ؛ نظراً لأنه قد ورث ( السمات ) من أسلافه التى انتزعت من سمات أبيه وأمه » ، ولا يعنى مضمون هذه العبارة أنه يجب التغاضى عن الوراثة ، بل على العكس فقد شعر معظم المؤلفين أنه يجب على المرء دراسة الوراثة مع الرؤية الطويلة التى أتاحت تطابق السمات التى قد تتخطى جيلاً أو جيلين ثم تعاود الظهور (١) .

وقد أدرك الجميع أن كثيراً من الأنساب كانت تفسيرات تاريخية لتبنى إحدى الأسر أو الشعوب من قبل أسرة أخرى أو شعب آخر ، ومن الناحية الرسمية فإن قبول شخص ما كمولى ( الجمع موالى ) كان يعنى السماح لهذا الشخص بأن يطالب بحقه فى نسب ولىه ، ويشير الجاحظ إلى أن الموالى من الأعجام يستطيعون القول بأنه من خلال الولاء " قد اكتسبنا نسباً يقبله العربى ولنا أصل يفخر به الأعجمى " ومع ذلك فقد استغرق ذلك الأمر أجيالاً قبل أن يصبح انتقال النسب كاملاً هكذا حتى يمكن للمرء أن يطالب بحقه فى نفس الأصل البيولوجى كأولياء أسلافه ، ولذا فقد أسهم الولاء - كما ورد وصفه الفصل السابق - على المدى البعيد فى ولاء هام للطبقة - القرابة - التى يناقشها هذا الفصل ، ولكنه على المدى القريب - كما هو الحال فى الفترة التى ندرسها على الأقل - استخدم الولاء المتسم بالوعى الذاتى فقط للتعبير عن روابط الولاء التى كان يفترض أن تكون لدى العتيق تجاه مولاه السابق وليس للتعبير عن أى انتقال للنسب من شأنه أن يشير ضمناً إلى انتقال الأهلية (٢) .

وإذا كان باستطاعة المرء أن يُقدر أهلية رجل بشكل جزئى من خلال نسبه فباستطاعة المرء أيضاً تقديرها جزئياً من خلال حسبه وهو الشرف المكتسب عن طريق الأعمال . ومع ذلك لم يكن الحسب كما افترض بعض العلماء المحدثين خطأ المأثرة الشخصية لصاحب الحسب فحسب ، وطبقاً لمعظم التعريفات فإن غالبية الأعمال التى

كان يُعتقد أنها تشكل حسب المرء قد تم أدائها - ليس بواسطة صاحب الحسب ولكن بواسطة أجداده - ويقرر الجاحظ ببساطة أن " فضائل الأعمال " التي قام بها الأبناء والأعمال السابقة للأجداد هي حسب الأبناء ، ويعطى ابن قتيه وصفاً أكمل لآليات الحسب التي يستمدّها من فعل حسب قائلاً: "إن تدخل شيء ما في حساب شخص ما " . وكما يشرح ذلك قائلاً: " إن الشريف سوف يحسب مآثر آبائه ويعدّهم رجلاً رجلاً وسوف يُقال حينئذ أن " فلان ذو حسب " و المقصود بذلك الآباء الذين يتم عدّهم والفضائل التي يتم حسابها (٣) .

وكان هناك تقليد بديل يؤكد على المآثرة الشخصية للمرء بون النظر إلى حسبه ونسبه الموروّثين ، ويستشهد القاضي البويهى التنوخى بالرد المعروف الذى صدر عن الأعرابى الذى عير بأصله الوضيع : " إن نسبى يبدأ بأبى أما نسبك فينتهى بك " ويستشهد التنوخى برأى من أبيه الذى قال : " إن الفقر ( فى أصل المرء ) ليس عارا إذا كان المرء فاضلاً فى نفسه ، ولا لوم على علماء الدين بخاصة على هذا ( النوع من الأصل ) .

واعتقد أن من كان وضيعاً وعلا شأنه فى الدنيا أو كان فقيراً وصار غنياً أفضل ممن ولد فى ثراء وجلاله . ذلك أن المرء الذى ولد هكذا ينتفع بجهود شخص ما آخر وليس هناك أى شيء محدد يكون سبباً للثناء عليه ؟ فى حين أن من حقق هذه الأشياء بكفاحه وكده أفضل . ولكن من خلال القوة والحيوية التى يحاول بها أن يبرهن على أننا نستطيع أن نعتبر المرء ذو الأصل الوضيع والمآثرة الشخصية العظيمة أفضل من ذلك الذى ليس لديه سوى شرف موروّث فإن هذا التقليد يجل الافتراض العام بأن الغالبية العظمى من الناس أخذت فى الاعتبار نسب المرء والمخزون الاحتياطى من الأعمال الجليلة الذى ورثه عند تقدير أهليات ذلك المرء وتخصيص منزلة اجتماعية له (٤) .

وكان إرث المرء من الحسب والنسب ذو أهمية ليس فقط لأنه أتاح للآخرين التخمين بشكل حاذق فيما يتعلق بأهليات المرء ولكن أيضاً لكونه قد فرض على وريث الحسب والنسب عبء السير سيرة أجدادهم ، فالرجل الذى كان أجداده ذوى موهبة عظيمة وطبقة اجتماعية رفيعة كان يخشى فقدان " القوة " الجماعية التى ورثها عن أجداده ، ويرى أولئك الذين عاشوا فى القرنين الرابع والخامس أن الخوف كان الأكثر

أرجحية لإرغام المرء على السير سيرة أجداده من مجرد الطموح لرفع شأن امرئ دون مثل هذا الحسب والنسب وصولاً إلى مستوى قابل للمقارنة للأداء ، وكتب المسعودي المتوفى فى عام ٣٣٥ هـ يقول إنه : " لزاما على المرء ذو النسب الشريف والمجد الرفيع ألا يجعل من هذا سلما للتقاعس عن أداء الأعمال التى تليق بنسبه وأن يتكل على آبائه ، والحقيقة أن شرف النسب يحث الرجال على الشرف فى أفعالهم ومثل هذا الشرف ( فى الأفعال ) أكثر ملاءمة للرجل الشريف ، ونظراً لأن الشرف يأتى بالشرف بدلاً من أن يعوقه تماماً مثلما يأتى الخير بالخير ، فإن المرء يجد ما يدفعه ( من خلاله إلى السعى فى طلب المزيد من الخير ) (٥) .

ولذا كان تأسى الناس بأجدادهم المرجح بصورة أكبر؛ وذلك نظراً للالتزام بالسير سيرة أجدادهم فى الأعمال والشرف ، ونظراً للقوة البيولوجية المفترضة للصفات الموروثة عن الآباء ، وفى هذه الأوصاف يتداخل الحسب والنسب مهما قد يكونا مختلفين فى المفهوم الأصلى ، والحقيقة أنه على الرغم من أن الحسب والنسب هما المصطلحان الأكثر شيوعاً من حيث الاستخدام فى المناقشات النظرية فعند وصف ملائمة أناس بعينهم لوظائفهم أو وضعهم الاجتماعى فالأكثر شيوعاً أن نجد مصطلح " الأبوة " . وقد بدأ انحطاط شأن القضية فى عهد الوزير ابن الفرات ، ويخبرنا التنوخى بأن السبب فى ذلك كان يرجع إلى قيامه بتعيين رجال " لم تكن لديهم أية معرفة أو أية أبوة " كقضاة ، ويخبرنا ابن الجوزى أن الأديب ولعب الشطرنج المعروف محمد بن يحيى السولى ( المتوفى عام ٣٣٦ هـ ) كان له أبوة حسنة حيث كان جده " سول " ( كلمة تركية تعنى القائد ) وكان أفراد أسرته ملوكاً فى جرجان ، وبعد ذلك صار أبناء سول من كبار الكتبة وتم تعيينهم فى مناصب حكومية (٦) .

ويمكن ملاحظة أثر بعض هذه الأفكار فى توظيف العاملين بالإدارة المركزية ، ولابد أن يكون البروز المتواصل لأسر الكتبة التى ذاعت طعم الخزى والعار فى كل جيل نتيجة للإيمان واسع الانتشار بالأبوة إلى حد بعيد ، فعند اختيار وزير لم يكن الخليفة يقصر نفسه على اختيار " أولاد الوزراء " . لكنه كان يفترض على نحو شائع للغاية أن مثل هؤلاء الأولاد كانوا أنسب من غيرهم للوزارة حتى أن الخلفاء فى العهد العباسى راحوا يختارون " أولاد الوزراء " بشكل متزايد تقضياً لهم على غيرهم ، وبحلول القرن الرابع هـ / العاشر م كانت هناك أسر حاكمة فعلياً للوزراء ، وكان أولاد الوزراء فى

هذه الفترة طبقة مميزة من الناس وكان يشار إليهم بهذا الاسم . ومن الناحية الإحصائية أصبحت أقلية منهم فقط وزراء ، ورغم ذلك كانوا يعتبرون ذخيرة للموهبة، يمكن للحكومة ويجب عليها أن تعمل عليها من أجل تولى المسئولية الإدارية ، وعندما تجاوزت الحكومة دائرة المرشحين الذين حددتهم " الأبوة " وقع العبء الثقيل لإثبات الأهلية على كاهل الشخص الدخيل ، فكان لزاماً عليه إظهار أنه برغم أبوته المختلفة فهو قادر على الوصول إلى أعلى المستويات من أجل منصبه ، وعلى سبيل المثال ففي عام ٤٢٢ هـ عين حاكم مصر الفاطمي رجلاً وزيراً له يقول عنه ابن الأثير إنه " لم يكن أهلاً للوزارة ، وإنما كان أهلاً لامتلاك الأراضى ( التناية ) والزراعة ، ويبدو أنه أخفق في نهاية المطاف في إقناع معاصريه بأنه كان جديراً بمنصبه ، فسار ذكره كرجل تم الدفع به لتجاوز منزلته اللائقة في الحياة (٧) .

ورغم ذلك كانت هناك قابلية للانتقال في مجتمع الشرق الأدنى الإسلامي في هذه الفترة وتضمنت هذه القابلية للانتقال هبوط إلى أسفل والذي أصبح أبناء الوزارة وكبار القادة من خلاله أعضاء في المهن الأكثر تواضعاً ، وقد أوجدت " الأبوة " افتراضاً قوياً فيما يتعلق بمواهب المرء ، وعادة ما أوجد الآباء البيئة لذلك وكانت لديهم الروابط التي جعلت من السهل لمثل هذه الموهبة أن تكشف عن نفسها طالما كانت موجودة ، ومع ذلك لم يكن المجتمع ليؤيد حق المرء في المطالبة بالمنصب والموهبة إذا لم يستطع أن يثبت أنه يمتلك مثل هذه الموهبة ، وفي إحدى قصائده يقول البيغاء ( المتوفى في عام ٣٩٨ هـ / ١٠٠٨ م ) والذي أمضى جزءاً كبيراً من حياته في بلاط الملوك البويهيين : " إن من لم يبلغ السيادة بمجتهده الخاص دون النظر إلى أبوته ما كان له أن يصير مسوداً " . وكثيراً ما نقرأ عن رجال عينوا بأحد المناصب برغم أبوتهم وأثبتوا أنهم ليسوا أهلاً له ، وعلى سبيل المثال فعندما توفى قائد له شأنه في عام ٣٠١ هـ / ٩١٤ م أسند منصبه لابنه مباشرة كمفتش عام ( عارض ) لجيش الخلافة ، ورغم ذلك لم يكن لدى الابن ما يشفع له سوى النذر القليل على ما يبدو حيث سرعان ما عزل من منصبه .

وإذا كانت الأبوة كافية كي تضمن لكل امرئ مركزاً أبيض الاجتماعى لفقدت الحكومة الكثير من سلطانها ونفوذها ولأصبح الملك منساقاً لتعاقب الأجيال في طبقاتها التي خصصت لها ، ولم يكن هناك مثل هذا الضمان ، وكان تحفظ الحكومة المتواصل

بشأن معظم التعيينات يعنى أن الحكومة يمكن أن تتوقع شكر النعمة و الإقرار بالفضل من معظم المعينين ، وعندما توفى قاض له شأنه فى بغداد فى عام ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م وافق باجكام أمير الأمراء ( كما كان شائعاً ) ، على أن يخلفه ابنه فى منصبه ، لكنه قرر فرض ضريبة ثقيلة - على غير العادة - مقدارها ٢٠ ألف دينار على الابن الذى اضطر لبيع حاجياته ؛ كى يقبل القيام بالدور الذى اعتبر معظم الناس أنه كان مقدراً له . ومن الواضح أن الحاكم كان بإمكانه تعيين شخص ما آخر حتى وإن كان ابن القاضى ذو أبوة مناسبة على نحو فريد ، كما أن المجتمع قد اعترف أيضاً - على مضض - بحق أولئك الذين دفعوا بأنفسهم إلى الأمام وأثبتوا أنهم إذا كانوا يفتقرون إلى الأبوة المناسبة فهم يمتلكون الموهبة ، ويمكن لمثل هؤلاء الرجال الموهوبين القول - مع الاستشهاد بكلام الأعرابى الذى ذكرناه سابقاً- بأن نسبهم بدأ بهم. ورغم ذلك يبدو أن معظم الرجال قد حاولوا فى البداية إيجاد دورهم الاجتماعى عن طريق محاولة إثبات أنه باستطاعتهم التأسى بأبائهم و السير سيرتهم<sup>(٨)</sup> .

وسوف يلاحظ أنه فى كثير من هذه الأمثلة (وفى المناقشة النظرية للحسب والنسب ) غالباً ما كان يتم الخلط بين الشرف أو الإجلال الذى يتم إظهاره لامرئ ومنزلته الناشئة عن ذلك و بين الأهلية أو القدرة التى يظهرها المرء للنهوض بأعباء ومسئوليات مهنته ، وإذا كان من الممكن تصنيف المهن عن طريق اتفاق عام طبقاً لدرجتها من الشرف كما كان الحال فى الشرق الأدنى فى القرنين العاشر و الحادى عشر و إذا كان هناك اتفاق عام على أن المرء بحاجة إلى إظهار قدرات عامة معينة كى يكون أهلاً لمنزلة معينة كما كان الحال فى هذه الفترة فقد كان مثل هذا الخلط بين الشرف و الأهلية أمراً حتمياً . وفى قصيدة للتهنئة الذاتية يقول الخليفة الراضى : "إذا كان للرجال نوى الحسب أن يبلغوا عنان السماء بحسبهم فأنا قد بلغت تلك المنزلة ذاتها دون عناء أو مشقة ، فرسول الله الذى لا يدانيه أحد فى منزلته سواء كان عربياً أو أعجمياً واحد منا "؛ وهكذا يقيم الخليفة دعواه على النسب بشكل كامل لكنه نسب له من التميز ما يجعل الخليفة فى غير حاجة إلى أن يرهق نفسه أو يحملها مشقة إثبات أنه يمتلك القدرة أو المنزلة التى افترض الناس أنه يجب أن يمتلكها بالوراثة؛ فنظراً لأنه منحدر من نسل عشيرة محمد كانت له أسبقية الشرف والأهلية المرتبطة بذلك لأن يكون خليفة فى آن واحد<sup>(٩)</sup> .

## مفردات الطبقة

تعكس الكلمات الخاصة بالطبقة الاجتماعية هذا التأكيد المختلط على الشرف والمقدرة . ولم يكن الفرق بينهما ليضيع أبدا لكنه غالبا ما كان يصبح غير واضح . وزاد عدم الوضوح هذا في القرن والنصف للحكم البويهى عندما - كما لاحظنا - تزايد إصرار الناس على أنه يمكن لهم الاحتفاظ بمنزلتهم الشرفية التى يمنحها أحد المناصب حتى بعد إعفائهم من ذلك المنصب ، ورغم ذلك فقد كان هناك - وظل إلى حد ما نظام مستقل للتصنيف الخاص بطبقات الشرف وطبقات القدرة المثبتة .

وعلى سبيل المثال فكلمة طبقة بمعناها الأصلية كانت أكثر بكثير من مجرد مصطلح خاص بطبقة ذات شرف من كونه لطبقة محددة بواسطة المقدرة ، ومع ذلك فكما سوف نرى ففى الاستخدام الفعلى غالبا ما كانت تستخدم لطبقة مهنية . والطبقة بمعناها الأساسى تعنى " أى واحد من بين شيئين أو أكثر موضوعة أو واقعة بحيث يكون كل منها فوق الآخر ، كالتبقة الاجتماعية أو الطابق فى بناء ، فهى طبقة " . وغالبا ما تشير أوصاف البلاط العباسى إلى أن رجال الحاشية كانوا يدخلون قاعة المقابلات الرسمية " بحسب طبقاتهم " ( على طبقاتهم ) ولذا كانت الكناية عن الترتيب الرأسى الذى كان ينطوى عليها المعنى الأصلى للطبقة يترجم مباشرة فى حد ذاته إلى نظام بروتوكول ، وهو تفسير للطبقة بحسب الشرف ، وكان مثل هذا الشرف مستمد إلى حد بعيد من سلطة الطبقات المختلفة لرجال الحاشية لكنه لم يكن كذلك على وجه الحصر ، فعلى سبيل المثال كان المنحدرون من جماعات أولى ذات شأن من المسلمين كالأنصار كانت لهم طبقة فى هذا الترتيب الهرمى لم تكن تقابلها أية سلطة مُنحت لهم من قبل الحكومة ، واستمر استخدام كلمة طبقة لـ " طبقة من رجال الحاشية يميزهم بروتوكول " طوال العهد البويهى (١٠) .

ولم يقتصر استخدام كلمة طبقة بهذا المعنى على حاشية الملك أو الخليفة ؛ ففى معنى أعم كان يُنظر إلى الأمة مجتمعة على أنها تنقسم الى طبقات ، وكتب " أريب " أن كل طبقة فى بغداد أصابها الكرب لخسارة فى الأرواح والممتلكات فى الهجوم القرمطى على الحجيج فى عام ٣١٢ هـ . وبالمثل ما نقرأه عن أن القائد البويهى المطهر فى حملته فى جنوب العراق فى عام ٣٦٩ هـ / ٩٨٠ م تلقى التحية خلال ظهور رسمى أمام جيشه من قبل الضباط والكتاب وطبقات الناس الذين ربما كانوا رجال الحاشية

لكن المرجح أنهم كانوا جميع الطبقات الأخرى من الناس فى جيشه أو التى كانت ترافق جيشه ، وكان ركن الدولة يدين بأمنه فى منصبه لجميع أصناف وطبقات الناس (١١) .

ومن المرجح أن كلمتى : أصناف ، وطبقات فى هذه الفقرة الأخيرة قد استخدمتا كمترادفين متقاربين ، ذلك أن كلمة طبقة غالبا ما كانت تستخدم أيضاً بمعنى " صنف " دون النظر إلى المرتبة . ويعرف قاموس لسان العرب طبقة الناس على أنها " الأصناف المختلفة " من البشر ، وكانت كلمة صنف ( الجمع أصناف ) كلمة أكثر حيادية للطبقة الاجتماعية ، ولم تكن تنطوى على أى ترتيب هرمى أو ترتيب للمجتمع فى طبقات أفقية ، وكانت كلمة صنف بمعناها الأصلية حيادية بما يكفى لكى تستخدم بالمنطق العربى كمصطلح لمجموعة من الأشياء المميزة عن مجموعات أخرى من خلال صفاتها العرضية وليس صفاتها الجوهرية ، ويقدم لنا علماء المنطق " التركى أو الهندى " كمثالين للأصناف .

ولدينا تعريف وظيفى للصنف فى قول يُنسب لرجل من مطلع العهد البويهى حيث يقول : " رأيت ثلاثة رجال تزعم كل منهم صنفا مختلفا من أبناء جنسهم ولم ينافسهم أحد ( فى تلك الزعامة ) ، فقد كان أبو عبد الله الحسينى بن أحمد الموسوى يتزعم (يتقدم) الطالبين ( المنحدرون من نسل على بن أبى طالب ) ولم ينافسه أحد ، وتزعم أبو عبد الله محمد بن أبى موسى الهاشمى عشيرة العباسيين ( كنقيب العباسيين ) ولم ينافسه أحد ، وتزعم أبو بكر الأكفانى الشهود ولم ينافسه أحد " ، وفى هذا الاستشهاد يتداخل الصنف مع الطبقة بشكل واضح ، فقد شكل الطالبيون - على سبيل المثال - طبقة أو " مرتبة " فى المراسم التى كانت تجرى فى البلاط ، ورغم ذلك يبدو أن الصنف ينطوى على الترابط والتماسك على نحو يفوق الطبقة ويرجع السبب فى هذا - كما سوف نناقش فيما يلى - بشكل جزئى إلى أن الطبقة بحد ذاتها تتدرج الى درجات كثيرة بقدر عدد الأفراد الذين ينتمون إليها ، ويمكن للرجال أن يتنافسوا مع بعضهم البعض من أجل الزعامة فى الصنف الذى ينتمون إليه ؛ نظرا لأن كل واحد منهم يعتقد أنه من الطبيعى للصنف أن يكون له زعماء ، وكانت لدى الرجال الثلاثة المذكورة أسماؤهم بعالیه مسئوليات كزعماء ، وكان هناك تأكيد لواجب القيام بهذه المسئوليات فى حالتين على الأقل من خلال المناصب الحكومية (١٢) .

وقد تُرجمت كلمة جنس في هذا الاستشهاد إلى " نوع " وقد تبدو مصطلحا غريباً بصورة أكبر بالنسبة لصنف كـ "الشهود " ومع ذلك فالمعنى الأساسى للجنس قريب تماماً من الكلمتين الإنجليزيتين " نوع " و " جنس " ، وكلمة جنس على سبيل المثال هي الكلمة الشائعة لمجموعة متنوعة من الطير و الحيوان كالجمل أو البقرة . وفى استخدام بعض البيولوجيين العرب فى العصور الوسطى كانت كلمة أعم من صنف ( أو من الكلمة التى لا لون لها تقريباً لصنف وهى كلمة نوع ) ، وكلمة جنس تقترب من الكلمة الحديثة " race " فى الإنجليزية إذا ما تذكرنا أن الخصائص التى كان الناس يحددون " أجناس " الشعوب وفقاً لها لم تكن هى نفس الخصائص فى المجتمع الإسلامى الوسيط كما كانت فى المجتمع الغربى الحديث ، ويخبرنا ابن الأثير أنه عندما حقق القائد العقيلي قيرواش نصراً كاملاً بشكل مذهل فى شمال العراق على فريق كبير من التركمان الغز فى عام ٤٢٠ هـ أرسل بحمولة مركب من رءوس الغز المهزومين إلى بغداد حيث أخذها " الترك " ودفنوها حيث ربطوا بين ذلك ( هذا الحدث وكبريائهم وشعورهم بالشرف الحامى لجنسهم " ، وهؤلاء الترك لم يكونوا هم أنفسهم غزاً ، وإنما هم ترك بغداديون كانت لهم مصلحة مشتركة مستقلة وزعيم مستقل وإذا فهم يُعدون صنفاً . ومع ذلك فإن جزءاً من التمييز المشترك الذى جعلهم صنفاً - صفاتهم الفريدة كجند على ظهور الجياد - جاء من تصنيفهم كجزء من الجنس التركى ؛ ولذا كان لديهم ما يبرر احتفاظهم بما اشتهر به ذلك الجنس (١٣) .

ويبدو أن كلمات الطبقة والصنف والجنس هى أكثر الكلمات تجريباً للطبقة الاجتماعية على الرغم من أن عدداً من المصطلحات العامة مثل : الأمة ، والطائفة كانت تُستخدم كى تشمل الأصناف التى كان يتم تحديدها بصورة أكثر دقة ، وسوف تجرى مناقشة بعض من هذه الكلمات الأكثر تحديداً فى جزء لاحق من هذا الفصل ، ومع ذلك ليست هناك أية دراسة للمصطلحات الخاصة بالتقسيم الاجتماعى فى القرنين الرابع والخامس يمكن أن تنتقل التنوع المذهل لأصناف محددة مستخدمة فى المصادر المعاصرة لهذه الفترة ، وقد نشأ كل صنف من هذه الأصناف بالوصف الذاتى ، ويمكن فى الظروف الملائمة أن تخلق وعياً بالمصلحة المشتركة ، وكان أمراً حتمياً لمثل هذه المصالح المشتركة على نحو يتسم بالوعى أن تتمخض عن ولاء مشترك لحماية تلك المصلحة أو الارتقاء بها ، ورغم ذلك فقد ظل كثير من هذه الولاءات كامناً ؛ إما لكون

المصلحة التي كانت تمثلها لم تكن مهددة أو لكون الأعضاء في هذه الأصناف كان لديهم أسباباً أكثر إلحاحاً للعناية بمصالح أخرى ( وبناء عليه رعاية ولاءات أخرى للطبقة ) أولاً .

وسوف تخصص بقية هذا الفصل لوصف الطبقات الرئيسية المشار إليها في المصادر الخاصة بالعهد البويهى والولاءات التي أوجدتها، ويجب قراءة هذه القائمة مع فهم أن كثيراً من الطبقات الهامة تم حذفها نظراً لتحامل مصادرها التي تشبه أى وصف لولاءات الطبقة عن طريق الاهتمام غير المتكافىء بأنفسه وولاءات الرجال كالمؤلفين. ومن المرجح أن هناك كثير من ولاءات الطبقة لم تشر إليها المصادر إما لأنها كانت ولاءات كامنة أو لأنها كانت ولاءات بين أناس يتصفون بالحقارة والضعف بحيث لا تستحق الوصف من وجهة نظر المؤرخين من أهل العلم .

## الكتبة

كان هناك فرق واضح المعالم ودائم نسبياً بين أهم صنفين من موظفى الحاكم ؛ صنف الكتبة وصنف الجند ولدينا من المعلومات عن هذين الصنفين ما يفوق مالدينا من معلومات عن أية أصناف مماثلة فى المجتمع ؛ ذلك أن الكتبة قاموا بكتابة الكثير من مصادرها وقام الجند بتأسيس معظم الأسر الحاكمة التي ذكرناها ، وتظهر المصلحة المشتركة للكتبة حتى فى الفترة التي شهدت أسوأ نهج طائفى لهم عندما تصارعت أسرتان بارزتان للبيروقراطيين ، وهما ، الجراهوة ، والفراتيون من أجل السيطرة على الحكم العباسى فى مطلع القرن الرابع هـ / العاشر م ، بعد وقت قصير من الفتح البويهى لبغداد . ونجد أحد الأمثلة للكيفية التي طغت بها المصلحة المشتركة على هذا النهج الطائفى فى حكاية تروى عن ابن الفرات زعيم الطائفة الفراتية ؛ فبعد إخفا الثورة من أجل ابن المعتز فى عام ٢٥٦ هـ أمر ابن الفرات بإلقاء كافة قوائم المؤيدين للمدعى - وكان بينهم كثير من الجراهوة - فى نهر دجلة لإخفاء هويتهم ، كما حاول إنقاذ خصمه المحرض الجرهمى وزعيم التمرد محمد بن داود بتحذيره وتنبئيه إلى ضرورة تغيير أماكن الاختباء عندما حضر واش لإبلاغ كبار المسئولين بمكان الكاتب الذى لم يحالفه التوفيق .

وردت الطائفة الأخرى الجميل للفراتيين ، فعند تعيينه وزيرا ليحل محل الخاقاني في عام ٣٠١ هـ / ٩١٤ م كان الجرهمي على بن عيسى معتدلاً كعادته في طلباته إلى الكتبة التابعين للإدارة المنصرفه ، لكنه اختص أحد الكتبة من الإدارة السابقة وهو ابن ثوبه بالمعاملة القاسية ، ومن المرجح أنه سمح بإساءة معاملة ابن ثوبه ؛ نظرا لأن هذا الكاتب نفسه أساء معاملة الفراتيين في إدارة الخاقاني ، واستاء على معاملة رفاقه الكتبة بمثل هذه الطريقة حتى وإن كان الضحايا خصومه ، ولم ينس ابن الفرات أبداً أن ما كان الكتبة يظهرهونه تجاه بعضهم البعض من احترام داخل وخارج السلطة قد أتاح لطائفته البقاء والصمود في وجه الكثير من المخازي التي تعرضوا لها ، وعندما سمع ابن الفرات أثناء إدارته في عام ٣١١ هـ أن ابنه المحسن نصف المجنون قد ضرب ابن عيسى الجرهمي انزعج للغاية وكتب معتذرا للخليفة مؤكداً له أنه اعتقد بأن على " واحد من أبرز الكتبة ، والحقيقة أنه لو لم يكن الخليفة قد غفر للمحسن عنقه تجاه رفاقه الكتبة ، ذلك العنف الذي قضى بشكل مؤقت على الشعور بالمصلحة المشتركة بين المسؤولين العباسيين لكان ابن الفرات قد قام بكبح سلوك ابنه المدمر على نحو يتسم بالطيش والتهور ، وبفضل دعم الخليفة وتأييده بدأ المحسن دائرة التعذيب والقتل التي أدت إلى مقتله هو نفسه ومقتل أبيه وجلبت أفعاله الخزي والعار على الكتبة على مدى جيل (١٤) .

وتتجلى المصلحة المشتركة للجراهمة والفراتيين ( قبل هذه الأعمال الجنونية للمحسن ) في أوضح صورها في جهود كل من الفراتيين والجراهمة لمساعدة خصومهم الذين لحق بهم الخزي والعار على دفع الغرامات التي فرضت عليهم من قبل الطائفة ذات الحظوة ، وعندما كان على بن عيسى نائب وزير حميد بن العباس في عام ٣٠٦ هـ عرض المساهمة بخمسين ألف دينار في دفع غرامة مقدارها نصف مليون دينار كان تم فرضها على ابن الفرات ، وبالمثل ما حدث في عام ٣١١ هـ عندما كان ابن الفرات وزيرا حيث عرض على بن عيسى - الذي كان قد تم إعفاؤه من منصبه توا وتم تغريمه - المساهمة في دفع غرامته ، والواقع أن كثيرا من الكتبة عرضوا مساعدة على في هذه المرحلة ، لكن على رفض كافة العروض عدا تلك التي جاءت من كبار خصومه ، وهم أسرة ابن الفرات ، ومن المرجح أنه رفض العروض الأخرى كي يتجنب روابط الالتزام التي قد تعوقه وتثقل كاهله إذا ما أعيد تعيينه في

منصب رفيع ، لكنه لم يرد رفض المساعدة من خصومه ، ذلك أنه يقبل مثل هذه المساعدة قد أوضح ما كان يريه من أن تعمل المصلحة المشتركة للكتبة على تلطيف حدة سلوكهم تجاه بعضهم البعض حتى عبر حدود الطائفة (١٥) .

وقد آمن كتبة العهد البويهي بمصلحتهم المشتركة بنفس قوة إيمان أسلافهم في ظل العباسيين ، وعندما قام الملك البويهي بهاء الدولة بإلقاء القبض على وزيره أبو على بن إسماعيل أمر سابور بن أردشير ؛ الذي كان أكبر مسئول مدني في بغداد آنذاك بإلقاء القبض على أسرة ورفاق وأتباع المسئول المعزول ، ورغم ذلك قام سابور بتحذير أقرباء أبو على وأبناءه أولاً حتى يتسنى لهم الفرار قبل أن يشرع علناً في إلقاء القبض عليهم - كما أمره الملك - وقدر رفاق سابور من الكتبة جميل صنيعة ولذا فعندما أصدرت لهم الأوامر في عام ٣٩٢هـ / ١٠٠٢ م بإلقاء القبض على سابور تعمدا تركه يهرب إلى أهوار جنوب العراق ، ويرجع السبب في قيامهم بذلك بشكل جزئي - كما تخبرنا إحدى الروايات التاريخية - إلى أن ذلك قد يؤدي إلى نسيان المطالبات المالية التي كانت لدى سابور ضدهم ، وبشكل جزئي إلى خشيتهم من أن تصدر لهم الأوامر بمعاملته بعنف ، ولم يشترك الملوك في المصلحة المشتركة للكتبة . وهكذا ففي الوقت الذي لم يكن فيه بمقدور الكتبة عصيان الأوامر الملكية علانية بإيذاء غيرهم من الكتبة كانت لديهم مصلحة مشتركة بتخفيف حدة العنف الموجه ضد صنفهم الخاص وغالباً ما نجحوا في القيام بذلك (١٦) .

## الجند

كما لاحظنا في أمثلة عديدة سابقة فصنف الجند كان له هويته التي تتسم بالوعي الذاتي والمفهوم في أنحاء المجتمع ، ووفاء بالنذور التي نذرها بينما كان مختبئاً قام ابن مقلة عندما أصبح وزيراً في عهد الراضي بتحرير صنفين من الناس كان القاهر قد سجنهما وهما : الكتبة والجند ، وكان العضو في الجماعة الثانية وهو الجندي (أو العسكري أو صاحب السيف) مميزاً عن سائر الأمة شأنه في ذلك شأن الكاتب . والواقع أنه كان أكثر تميزاً في نواح عدة ؛ نظراً لأن جنس المرء كان يعد مؤشراً هاماً للغاية على الموهبة العسكرية التي قد يمتلكها المرء ، وكان كثير من الكتبة ذوي أصول أرامية ، وقد استمدت الطوائف بين الكتبة بعض القوة من العداء بين الكتبة من

"الأجناس" المختلفة ، لكن مسألة الجنس كانت مسألة خفية وثانوية بين الكتبة ، ويمكن العثور على كتبة نوى أصول تركية وفارسية وأرامية وأصول أخرى كثيرة في أواخر العهدين العباسي والبويهي في كلا الجانبين أكثر النزاعات الطائفية ، ومع ذلك ففي الجيش كانت مسائل الجنس معلنة وذات أهمية محورية ، وبالطبع فقد أمكن للبيروقراطية أن تعيد تزويد نفسها بأبناء البيروقراطيين ، وقد افترق الجيش لهذه الميزة ، وكان لزاماً أن تتجاوز حدوده أبناء الجند ؛ وإذا كان لزاماً أن يكون له افتراضات خاصة بالقدرة على توجيه تجنيده للجند .

وكانت هناك عدة أسباب وراء عدم قدرة الجيش على إعادة تزويد نفسه ، فقد كان بعض الجند من الخصيان ، وعلاوة على ذلك لم يعتقد بعض الحكام بأن أبناء الجند العبيد كان لديهم نفس ولاء آبائهم الذين كان قد تم شراؤهم ورفع شأنهم من قبل من اصطنعهم ؛ وإذا فقد طبق الجند مبدأ الموهبة الموروثة بصورة مباشرة بصورة أقل في تجنيد الجند ، وفي الوقت الذي أصبح فيه عدد كبير من أبناء الجند جنداً ، فإن عدداً لا يستهان به من الجند الجدد تم تجنيدهم من جنس أو آخر عُرف عنه أنه ينتج نسبة كبيرة من الرجال نوى الموهبة العسكرية (١٧) .

وتجلى الشعور بالمصلحة المشتركة بين الجند المهنيين بشكل متكرر في سيرة القائد العباسي مؤنس ، وكان ما أبداه مؤنس من اهتمام واضح برفاهية القادة الذين وقفوا ضده في المعركة أشبه بفضيحة للخليفة والوزير في بغداد ، وفي بداية حكم المقتدر أوقع مؤنس الهزيمة بالحاكم الصفاري الليث بن علي الذي قام بغزو فارس وأسره . لكن مؤنس كان كارها للقبض على سوبكرا كبير القادة في جيش الليث والذي كان في الأصل غلام مثل مؤنس ، وأرسل القائد العباسي رسالة إلى سوبكرا يطلب منه فيها أن يفر هارباً ، وقد مكن هذا التحذير سوبكرا من الوصول إلى شيراز وتنصيب نفسه حاكماً شبه مستقل لفارس ، وعندما رفض سوبكرا أنذاك أن يدع موظفي الخليفة يديروا ضرائب فارس أرسلت الحكومة المركزية مؤنس لإجباره على دفع مبلغ كبير من المال سنوياً أو أن يعزل ، لكن مؤنس رفض فرض مثل هذه الشروط القاسية على أخيه الجندي وأبدى من القلق والاهتمام ما جعل الوزير يحاول إبعاد مؤنس عن المفاوضات نظراً لشككه في تعاطف مؤنس مع سوبكرا (١٨) .

وقد عبر مؤنس والقائد الثائر يوسف بن أبى ساج يوما ما عن درجة مماثلة من الاهتمام المتبادل ، وتم إرسال مؤنس لقتال ابن أبى ساج فى عام ٣٠٤ هـ عندما تحققت للأخير السيطرة المستقلة بصورة أكبر أو أقل على إقليم أذربيجان فى شمال غرب إيران ، وأوقع ابن أبى ساج الهزيمة بـ " مؤنس " فى سارات فى أذربيجان وأسر الكثير من ضباطه ، والواقع أنه كان مكانه أسر مؤنس نفسه لكنه بدلاً من ذلك تركه يهرب مع ثلاثمائة غلام ، ويخبرنا التاريخ أن " مؤنس " كان شاكراً لهذه المساعدة " ، وسرعان ما سنحت له الفرصة لردّها ؛ ففي المحرم من عام ٣٠٥ هـ أوقع مؤنس الهزيمة بابن أبى ساج وأسره فى أردابيل فى نفس الإقليم . وتم عرض ابن أبى ساج فى أنحاء بغداد مكبلاً فى أغلاله حيث بكى لسابق عقوبته لخليفة الله على الأرض ورغم ذلك فقد كان لديه آنذاك صديق له نفوذه فى البلاط ، ومن خلال نفوذ مؤنس بشكل جزئى سرعان ما تم العفو عنه وإطلاق سراحه وتوليته على أذربيجان والرى (١٩) .

ولو أنه أمكن لمثل هذه المصلحة المشتركة أن تثير شفقة الجند فى عهد العباسيين عندما لم يكن لدى خصوم الخليفة سوى النذر القليل كى يقدمونه نظير المعاملة الطيبة من قبل قادة الخليفة كان هناك مبرراً أكبر لأن تؤثر المصلحة المشتركة فى الناس فى العهد البويهى . وفى عهد البويهيين كان الجند أكثر موظفى الحكومة تميزاً بشكل واضح ؛ وإذا فقد كان لديهم اهتمام شديد بالتحكم فى العنف الذى ربما قد استخدموه ضد بعضهم البعض فى القتال ، ولو أنهم كانوا قد قضوا على بعضهم البعض بسهولة بالغة لكان قليل منهم قد بقى على قيد الحياة كى يستمتع بامتيازاته ، وربما يكون أولئك الذين بقوا على قيد الحياة قد حل محلهم أناس عسكريون آخرون ظلوا كثيرين من حيث العدد وذوى قوة هائلة ، وهكذا فعندما أراد الوزير أبو على بن إسماعيل مواصلة الحملة ضد أبو نصر بن عز الدولة فى عام ٣٩٠ هـ حث القادة الديلميين للبويهيين الوزير على ألا يكون متحمساً ومتحفزاً هكذا، نظراً لأنهم - كما قال أحدهم - إذا حققوا نصراً حاسماً مؤزراً على خصمهم فإن الملك " لن يكون فى حاجة ماسة إليكم وإلينا بعد ذلك ، وعندما يشعر هذا الملك بالأمان فسوف يكون ذلك الأمان مبرراً له كى يحيك المكائد ضدنا وأن يحول ناظره إلى ثروتنا ومراكزنا، إن أفضل وأنسب خطة لكم أن تتركوا الأمور كما هى ، أما وقد بلغت هذه المرحلة فلتبقوا حيث أنتم " .

ويبدو أن دوافعا مماثلة تفسر اهتمام أحد قادة بهاء الدولة بحياة وأمان الملك المعارض في إحدى المعارك في عام ٤٨٣ هـ ، ففي هذا العام أنزلت قوات بهاء الدولة الهزيمة بقوات سمس الدولة في خوزستان الواقعة بين العراق وجنوب إيران ، وعندما رأى أحد قادة بهاء الدولة ضابطا كبيرا تابعا للجانب المناوئ واقفا مرتبكا بلا حراك وقد أمسك بلجام الملك المهزوم سمس الدولة في يده لم ينطلق القائد نحوه فيقتل أو يأسر سمس الدولة ( الذى كان أعمى ومن ثم كان هدفا سهلاً ) ، وبدلاً من ذلك صاح بالفارسية في وجه هذا القائد الكبير قائلاً له : " فيما وقوفك هكذا أيها الحجام ، خذ سيدك وارحل " ( وكانت " الحجامة " أو " الفصد " مهنة حقيرة ) ، وبهذه الطريقة أنقذ القائد خصم مولاه وتأكد من أن الحرب حقيرة الشأن التى كانت عمله الرئيسى سوف تستمر . كما ضمن هذا القائد أيضاً أنه إذا حاول أسر الملك المعارض وحدث أن تمكن سمس الدولة من الهرب بفضل وقوع حادث ما أنه بذلك لن يُعاقب على ذلك من قبل سمس الدولة إذا ما أصبح ذلك الملك مولاه ، وكان العالم مليئاً بالملوك ضعاف الشأن الذين راحوا يتبادلون ممالكهم من خلال حظوظهم فى المعارك ، وكانت هناك علاقات وروابط تربط كثير من هؤلاء الملوك ببعضهم البعض ، ولم يكن بمقدور الجندي أن يخبر عمن سيكون مولاه غداً والإساءة التى قد تلحق بملك آخر إذا ما أسر ذلك الجندي أو قتل ابن عم له (٢٠) .

وكانت " المصلحة الجماعية " للجند واضحة أحياناً بحد ذاتها حتى أنه كان ينحى عليها باللائمة على الرفض الصريح من قبل الجند اتباع أوامر سادتهم وفى بعض الحالات على سقوط سادتهم ، وفى عام ٤١٥ هـ وجدت جيوش الملك البويهى أبو كاليجار وخصمه ( وقريبه ) أبو الفوارس واديا فى فارس حيث دار بينهما قتال حامي الوطيس على نحو لا يطاق ، وأصيب كثير منهم بالمرض ، وبرغم تضارب طموحات سادتهما فقد " اختار الجيشان السلام " وتوصل الوسطاء الذين اختارهم الجند إلى تسوية يحصل أبو الفوارس بموجبها على فارس فى حين يُعطى أبو كاليجار خوزستان ولم يجد الملكان أى خيار أمامهما سوى القبول بما أملاه عليهما جيشاهما .

وغالباً ما كان الضعف النسبى للبويهيين يُفسر عن طريق الصراع بين العناصر التركية والديلمية فى جيوشهم ، لكن المؤكد أنه فيما يتعلق بكافة العناصر فى السياسة العسكرية البويهية فإن جهودهم للإبقاء على خليط من " الجنس " ومن ثم إبقاء هذا

النوع من المصلحة الجماعية داخل جيوشهم تحت السيطرة كان الأمر الأكثر أهمية . وفى تفسير التمرد ضد عز الدولة يقول ميسكاويه : إن هذا الملك من خلال سوء إدارته سمح للترك والديلميين بأن يتفقوا على ألا يعارضوا بعضهم البعض فى المطالبة بما أرادوا ، وهكذا أجبر عز الدولة على الموافقة على كافة طلباتهم ، فقد سمح عز الدولة للمصلحة الجماعية لجنده أن تطغى على عداوتهم المتعلقة بالجنس ، ونتيجة لذلك أصبح الملك خادما لجيش موحد ، ولم يكن معظم الملوك البويهيين حمقى إلى هذا الحد ولم يحدث أبدا أن تم إسقاط مملكة بويهية بشكل ناجح لمصلحة حاكم غير بويهى من قبل جيش هذه المملكة نفسها ، ولم يستغل نقاط الضعف التى أصابت البويهيين كنتيجة لمعارضة جندهم من الديلميين والترك بشكل ناجح سوى أعدائهم الخارجيين كالغزنائيين والسلاجقة (٢١) .

### المصلحة المشتركة بين " رجال النظام الحاكم "

كان يتم تجميع الجند والكتبة معا أحيانا كجماعة ذات مصلحة مشتركة وكان يُطلق عليهم كلمة " خواص " المرنة بشكل ملحوظ ، و" خاص " أو " خاصة " ( الجمع خواص ) بمعناها الأساسية تعنى خاص أو مميز ، فى حين أن المصطلح المصاحب " عامة " ( الجمع عوام ) يعنى " العام أو العادى " ؛ ولذا فكثيراً ما كانت كلمتا " خواص " و " عوام " تستخدم معا بمعنى " الناس على اختلاف طبقاتهم " ، ويمكن استخدام هذين المصطلحين على نحو مطلق أو على نحو موجز ، وكانتا تستخدمان من قبل الناس فى العهد البويهى بكل الدقة وعدم الدقة التى يتوخاها الناس فى عصرنا الحالى عند استخدام المصطلحين " بروليتاريا " و " الطبقة الحاكمة " ، و " خواص " و " عوام " كلمتان تقسمان الناس بطريقة غامضة إلى حد ما حسب الطبقة أو " المستوى " فى المجتمع وسوف نتناول استخدام هذين المصطلحين للتعبير عن المستوى فى جزء لاحق من هذا الفصل .

وكلمة " خاص " تعنى أيضا " خاص بـ " ؛ ولذا كانت كلمة خواص تُستخدم بمعنى " أولئك الذين كانوا مرتبطين بالحاكم بشكل خاص " أى الكتبة والجند . وقد منحهم ارتباطهم الخاص مصلحة مشتركة تجاوزت أحيانا ذلك الحد الدقيق الفاصل بين رجال القلم ورجال السيف ، وفى عام ٣١٢ هـ راح الوزير الجديد الخاقانى يؤكد

على وجوب معارضة رجال الحكومة لرغبة الخليفة فى إعدام الوزير المعزول ابن الفرات وابنه ، على الرغم من أن الخاقانى كان خائفاً للغاية من الفراتيين ، حيث قال : " ليس من اللائق أن يصبح بالأمر الهين بالنسبة للملوك قتل أى فرد فى حاشيتهم ؛ وكم هو من غير اللائق بصورة أكبر أن يصبح بالأمر الهين بالنسبة لهم قتل خواصهم ". ونرى أيضاً فى هذه الملاحظة أن " الحاشية " المؤلفة من زوجات الملك وطواشييه ورفاقه المرحون - وهلم جرهم - مميزة عن " موظفيه الخصوصيين " ، وهؤلاء الموظفون الخصوصيون كانت لهم مصلحة مشتركة ؛ ليس فقط فى الحفاظ على وضعهم المتميز فيما يتعلق بالرعايا الآخرين للملك ، ولكن فى وقاية أنفسهم من الغضب القاتل من جانب الملك (٢٢) .

## المهن

لم يكن الكتبة والجند وحدهم بل كل مهنة كما حددها تصنيف تلك الفترة الذين أحسوا بأن لهم مصلحة مشتركة فى بعض الأحيان ؛ ولهذا السبب كانت كل مهنة بؤرة محتملة للولاء المشترك الخاص بالمصلحة المتبادلة ، ولم يكن الولاء الذى اشترك فيه أفراد أية مهنة سرا بالنسبة لمعاصريهم ، وفى رسالته المثيرة عن عمد بعنوان " إدانة صفة الكتبة " يحاول الجاحظ كاتب القرن الثالث هـ / التاسع م تفسير السبب - كما يزعم - فى أن الكتبة ليسوا كغيرهم من أفراد المهن الأخرى ، فهم لا يقدمون شيئاً لبعضهم البعض فى وقت الشدة ، ويؤكد الجاحظ أنه فيما عدا الكتبة فإن أصحاب كل مهنة ( صنعة ) لديهم تعاطف متبادل وتعصب ضد الدخلاء ؛ فالقصابون مثلاً سوف يغلقون حوانيتهم لمدة يوم إذا وجدوا أن أحوال واحد منهم ليست على ما يرام ، فهم سوف يفعلون ذلك حتى يتسنى للقصاب المكروب الحصول على سائر العمل فى ذلك اليوم لصنعتهم ، وعلى عكس هذا فالكتبة - كما يقول الجاحظ أشبه بالأولاد من زوجات مختلفة ومن نفس الأب (وهو ما يقدره ببلادة فى المحاولة السطحية لوصف ولاءات مجتمع الشرق الأدنى على أنها مجرد امتدادات للولاءات الأسرية) ، ويتأكد التعاطف فى المهنة التى اختارها الجاحظ كمثال عن طريق الدليل من العهد البويهى حيث كان يُطلق على إحدى الطائفتين فى مدينة الدينوار بغرب إيران فى بداية القرن الخامس هـ / الحادى عشر م اسم " القصابون " ، ومن

المحتمل أن القصابين الحقيقيين لـ "لدينوار" لم يشكوا غالبية هذه الطائفة ؛ ورغم ذلك فقد اتحد القصابون كجماعة إلى حد بعيد حتى أنهم شكوا النواة ، أو أبرز عنصر لهذه الطائفة ومن ثم أعطوها اسمهم .

ونظراً لأن المهن قد مالت لأن تتركز في جوار واحد في أية مدينة ؛ فإن ولاء المهنة والجوار كانا يتوافقان أحياناً على النحو الملائم ، وعندما حدث في عام ٤٢٣ هـ / ١٠٤٣ م أن دخل أحد العيارين منزل تاجر قماش ( بزاز ) في بغداد وأخذ ماله " تعصب له أهل سوقه " ونتيجة لذلك أعاد العيارون جزءاً مما قد أخذ .

ومن المؤكد أن الجاحظ محق جزئياً بشأن عدم الترابط والتماسك بين الكتبة ؛ فقد كانوا مثل الجند عرضة للأعيب الملك وأساليبه الملتوية حتى أنهم أرغموا على الانقسام إلى طوائف داخلية على عكس الكثير من المهن التي دخلت الطوائف الأكبر للحياة المحلية جُملة ، ومع ذلك فكما لاحظنا فحتى الكتبة أبدوا تعاطفاً متبادلاً قوياً للمصلحة المشتركة ، وقدموا العون والمساعدة لبعضهم البعض حتى في الظروف التي كانت تتاح فيها الفرصة أمامهم لإيذاء بعضهم البعض بشدة (٢٣) .

وهناك مهنة أخرى يتكرر ظهورها كثيراً في المصادر ؛ ويرجع السبب في ذلك بشكل جزئي إلى أنها كانت هدفاً لسياسة الحكومة إجمالاً ، التجار الكبار ( المفرد تاجر ) ، ولم يكن مصطلح تاجر يستخدم بصفة عامة لصاحب حانوت صغير أو بائع متجول ، ذلك أن التاجر رجل أعمال ثرى وله مكانته ويمكن افتراض أن لديه أصول ضخمة ، وحتى في أكبر المدن في تلك الفترة كان التجار يشكلون جماعة صغيرة يمكن تحديد هويتها كما توضح بعض الأمثلة التالية ، فعندما وصل نبأ وفاة المقتدر إلى مصر كانت هناك حالة من الشغب من قبل الحامية التي كان قد تم إبقاؤها هناك لمحاربة الفاطميين في تونس ، وقام الجند بوضع التجار تحت الحراسة ، وانتزعوا منهم قرضاً بالإكراه ، وفي مقابل ذلك قدم الجند البيعة أو يمين الولاء للخليفة الجديد .

ونرى تجار بغداد في دور أقل مرونة ولينا - إلى حد ما - في حادثة وقعت بعد ذلك بعدة سنوات ، ففي عام ٣٢٤ هـ طلب الوزير ابن مقلة من التجار الأثرياء إعطاؤه سيولة مالية نظير سندات إذنية حتى يتسنى له دفع رواتب الجند ، ومع ذلك رفض التجار بالطريقة الآمنة الوحيدة التي كانوا يعرفونها ، وذلك بأن اختبأوا ، وفي عام ٣٦٢ هـ استدعى الشيرازي الوزير البويهى في بغداد التجار وحاول أن يكون مقبولاً

لديهم ومسترضيا لهم نظيراً لاعتقادهم - وربما كانوا محقين في ذلك - بأن عملاء الوزير قد أشعلوا النيران التي أحرقت الكثير من أسواق المدينة ، وفي نهاية الجلسة قال أحد كبار التجار للوزير : " أيها الوزير لقد أظهرت لنا قدرتك ، ونرجو أن يظهر الله قدرته عليك " وفهم الملك الذي كان مثلهفا دوما للظهور بمظهر أداة الله التلميح ؛ ولهذا وغيره من الأسباب ألقى القبض على الشيرازي بعد تلك الواقعة بوقت قصير ، وفي جميع هذه الأمثلة كان التجار جماعة صغيرة نسبيا ويمكن تحديد هويتها ، وكان من المستحيل تقريبا معاملة جماعة كبيرة بنفس الطريقة ، وعلى سبيل المثال كان الوزير سيجد صعوبة كبيرة في وضع النساجين أو حمالي السوق تحت الحراسة ؛ ومن المؤكد أنه كان من المستحيل بالنسبة لهم جميعا أن يختبئوا . ولما كان التجار جماعة صغيرة يمكن التعرف عليها بوضوح أيضا فقد عرف الشيرازي من الذي يدعوه منهم حتى وإن لم يدعو سوى أولئك التجار الذين كانوا يتحدثون بأسماء تجار آخرين عندما كان بحاجة إلى استرضائهم (٢٤) .

و كجماعة يمكن التعرف عليها وتحديد هويتها وذات ثراء عظيم كان التجار قادرين - كما لاحظنا في حالة الشيرازي - على ممارسة تأثير على سياسة الحكومة ، ومع ذلك يبدو أن هذا التأثير كان سلبيا - إلى حد بعيد - على عكس تأثير صيارفة البلاط ؛ الذين كانوا يشكلون جماعة مستقلة وأصغر على الرغم من أنها كانت تتداخل أحيانا ، وشكل التجار مجتمعا انتمانيا بوليا يمكن للحكومة الإساءة إليه إذا كان حجم المجازفة كبيرا فقط ، وعندما عاد الوزير ابن مقله إلى بغداد في عام ٣٢٣ هـ من حملة إلى الموصل طلب منه تجار الموصل الذين كان قد اقترض منهم أن يرد لهم الدين وأجبر ابن مقله - الذي كان حريصاً على الحفاظ على مركز الحكومة الائتماني - على بيع أملاك الحكومة بخسارة ، وقد أجبر على القيام بذلك رغم أن حملته قد أخفقت في استعادة السيطرة المباشرة على الموصل .

و بعد ذلك بوقت قصير وعندما توفي الراضي في عام ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م استشار كبار المسؤولين العديد من الجماعات ذات الشأن في الأمة بما فيها " كبار التجار " (وجهاء التجار) بشأن من يجب أن يكون الخليفة القادم "حتى يكون هناك إجماع (على الشخص المختار) وحتى لا ينفرد باجكام أمير الأمراء وكاتبه باتخاذ هذا القرار أو إقصاء هذه الجماعات ذات الشأن عن الاختيار" وكان هذا الإجراء استثنائيا

ومن المحتمل أنه كان نتيجة لرغبة باجكام فى التعامل مع منصبه الجديد نسبيا كأمر  
الأمراء بطريقة سوف تكون مقبولة للقادة فى العراق . وكان التجار جماعة ذات شأن  
بما يكفى لأن يعدوا من بين القادة ، وبدلاً من محاولة الظهور كمتحدثين لأية سياسة  
حاول التجار وكافة القادة الآخرين على نحوه دلالاته تخمين المرشح الذى ربما كان  
باجكام وكاتبه يفكران فيه حتى يتسنى لهم تأكيد اختيار أولئك الذين وضعوا  
السياسة فى الواقع . وإجمالاً يبدو أن التجار لم يتجاوزوا هذا الدور السلبي أبداً<sup>(٢٥)</sup>.

وكان من الممكن تمييز الأسلوب الاجتماعى للتاجر تماماً مثل أسلوب الكاتب ،  
وعندما قام أحد التجار الأثرياء الذى كان صديقاً للتتوخي قاضياً فى العراق البويهى  
بإداء الصلاة الشعائرية بطريقة بلهاء التمس العذر لنفسه قائلاً لأصدقائه : " هذه هى  
الصلاة كما يؤديها التجار ، " وكان العذر بعيد المدى لكنه كان من الممكن بالنسبة له  
تقديمه ، نظراً لأنه فى الأمور ( على عكس الصلاة الشعائرية ) التى تخضع للاختلاف  
كانت لدى التجار طرق مميزة للتصرف . "

و لذلك فإن التاجر إذا أراد تغيير مهنته وأن يصبح كاتباً كان يتعين عليه أن  
يكبح لإقناع المجتمع بأنه لم يكن مجرد تاجر يتنكر فى زى كاتب ، وكان محمد بن عبد  
الملك الزيات أحد أدهى الوزراء فى العهد العباسى بأكمله ، وقد جمع جده الذى قدم  
من إقليم جيلان الكسبيانى ثروة من تجارة الزيت ، ولم يكن والده تاجراً فحسب بل  
كان مورداً للعديد من التجهيزات العملية و الرسمية للبلاط ؛ وكان ثرياً إلى حد أن  
بعض الناس صدقوا ما أشيع عن أنه قد قام بتمويل الثورة الجهيضة فى مطلع القرن  
الثالث هـ / التاسع م ؛ التى جعلت إبراهيم ابن المهدي خليفة بشكل مؤقت ، وعلى  
الرغم من أن محمد الزيات قد انتزع من أصول جده التجارية إلى حد ما فعندما  
أصبح وزيراً كان كثير من الناس مقتنعين بأن رائحة التجارة كانت عالقة به ؛ ولذا فقد  
اعتبروه دخيلاً ، وقد حرر بعض التجار أنفسهم من ارتباطهم بالتجارة ، وحولوا  
أنفسهم إلى كتبة ؛ وكما هو الحال مع كافة المهن كان بإمكان المرء ذو المهارة والحظ  
أن يقنع الجمهور المتشكك بأنه قد بدأ فى تجميع مخزون احتياطي جديد من الحسب  
من أجل المنحدرين من نسلة للاعتماد عليه<sup>(٢٦)</sup> .

## الرعية

يبدو أن معظم الطبقات قد افترقت إلى الاهتمامات المشتركة التي يبدونها أفراد مهنة واحدة ، وبدلاً من ذلك يبدو أن أقسام الطبقة قد ظهرت في معظم الحالات عندما كانت مصالح الطبقة ككل تتعرض للتهديد فحسب ، وقد لاحظنا استثناء جزئياً في الخواص و هم المرتبطين بالحاكم بشكل خاص كما هو مفهوم ، فقد كانت هذه الطبقة تقوم على كل من " المستوى " و المصلحة المشتركة للمهنة، وبهذا المعنى لمصطلح الخواص فإن المصطلح المكمل الذي كان يشير إلى أولئك الذين ليسوا جزءاً من الحكومة بل يخضعون لها كان مصطلح الرعية ؛ والرعية بمعناها الأصلية تعني " الدواجن التي تتم رعايتها " و مع التوسع في هذا المعنى أصبح هذا المصطلح يستخدم للقطيع البشري الذي يرعاه الحاكم ، وبهذا المعنى التقني يمكن أن تشمل الرعية الأشخاص الأثرياء و البارزين الذين لم يكن لهم ارتباط بالحكومة .

و على سبيل المثال فعندما يصف ميسكاويه السيطرة القوية من قبل المسئول المدني أبوقرة الحسين بن محمد القناني على مدينة واسط في جنوب العراق في حكم الملك البويهى عز الدولة يطلق على أهل واسط رعيته ، ومما لا شك فيه أنهم كانوا يضمون بعض الأشخاص الأكثر ثراء أو الأكثر علماً من أبى قره والذين كانوا برغم ذلك يشكلون جزء من القطيع الذي كان يرعاه .

و قد أتى الخليفة الراضى بتمييز مماثل عند وصف كراهيته لابن رائق أول أمير أمراء له ، وقال إنه عندما يخطئ أحد جند أمير الأمراء " بحق واحد من الرعية أو حتى واحد من أسبابى ( أتباعى ) فسوف أصدر أمراً وإن يمتثلوا « ، وبهذه العبارة يكون الجند مميزين عن الرعية ويكون الأتباع الشخصيون للخليفة : إما قسم مميز ، أو قابل للتمييز بسهولة من الرعية (٢٧) .

وبالطبع فإن هذه الفروق كانت تعنى أنه كان مفهوماً بصفة عامة أن الرعية تستجيب للسياسة ولا تضع السياسة التي كانت من اختصاص خواص النظام الحاكم . وفى هذا الصدد كانت الرعية - على عكس الخواص الذين كانت لهم مصلحة مشتركة من خلال مستخدمهم المشترك - تشبه الجماعات الأخرى التي تقوم على الطبقة من حيث أنهم كانوا يعملون معاً عند التعرض لتهديد فقط، وعندما أخبر قيراواش الحاكم

العقيلي للموصل أهل تلك المدينة في عام ٤٠١ هـ أنه يعتزم الاعتراف بالخليفة الفاطمي الشيعي لمصر في الصلاة العامة ، يقول ابن الجوزي إنهم " وافقوا على طريقة الرعية المملوكة واحتفظوا بمقتهم ونفورهم سرّاً " ، وبهذه العبارة يفسر ابن الجوزي - ربما بشكل صحيح - السبب في أن أهل الموصل يرغب أنهم كانوا يثيرون الشغب في أغلب الأحيان قبلوا في هدوء ما أملاه عليهم ملكهم من قبول خليفة شيعي ، وهو عمل لابد وأنه كان بغيضاً إلى حد بعيد بالنسبة لهم باعتبارهم مسلمين سنيين ، وقد فعلوا ذلك؛ نظراً لأنه برغم أن أهل الموصل كانوا بعيدين عن كونهم مملوكين خاضعين في نواح عدة ، ففي أمور السياسة حيث لم تكن مصالحهم تتعرض لتهديد مباشر كانوا يتصرفون كـ " رعية مملوكة " كما كان سيفعل أهالي كثير من المجتمعات المجاورة على الأرجح (٢٨) .

### فروق المستوى

على عكس الفارق بين الخواص والرعية الذي كان يقوم على ارتباط ( أو الافتقار إلى الارتباط ) كل طبقة بالحكومة ، فالفارق بين الخواص المميزين والعوام كان فارقاً حقيقياً للطبقة ، والحقيقة أن الفارق بين الخواص والعوام واحد من أكثر الفوارق تضليلاً في تاريخ الفكر الاجتماعي الإسلامي في الشرق الأدنى ، ورغم ذلك فهو يشبه الفارق بين الخواص والرعية ، وكثيراً ما تُعرف الرعية بالعوام ، ومن الصعب معرفة ما إذا كان الاستخدام الرسمي يتبع المعنى الدقيق أو المطلق للعامة / العوام. وعلى سبيل المثال فعندما نقرأ أن الخليفة المعتضد ( المتوفى عام ٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م ) أمر الوزير عبيد الله أن يتولى ديوان المظالم للعامة وأمر القائد بدر أن يتولى ديوان المظالم الخاصة ربما كان الفارق بين أولئك الذين خدموا الحكومة وأولئك الذين لم يخدموها أو بين الطبقات العليا والدنيا من الشعب ، وما من شك أنه في بعض الحالات يكون التمييز خاص بالمستوى ، وعندما واصلت أسعار الحبوب و الخبز الارتفاع في بغداد في عام ٦٠٧ هـ أصبح العوام أولاً ومن بعدهم الخاصة ثائرين واشتركوا في مظاهرات ضد الحكومة . وفي هذا السياق لا بد أن تشير كلمة الخاصة ( الخواص ) إلى المستوى الأكثر ثراء من الرعية أو على الأقل إلى مستوى أولئك الذين منعتهم " مكانتهم المحترمة " من التظاهر بنفس السهولة التي تظاهر بها العامة .

وكانت المنزلة أكثر أهمية من الثروة في بعض الظروف للتمييز بين العامة والخاصة ، وفي عام ٣٩١ هـ / ١٠٠٠ م هاجمت القوات التركية في بغداد أكبر مسئول مدنى عينه البويهيون في تلك المدينة ، ويخبرنا هلال أن العلويين ( المنحدرين من نسل على بن أبى طالب ) والعامة دافعوا عن قصره بإلقاء الحجارة على الترك من فوق أسطح البيوت ، وكما نعلم من مصادر أخرى فقد كان هناك علويون فقراء وكذلك علويون أغنياء في بغداد ، ومن المحتمل أن العلويين الذين كانوا يلقون الحجارة لم يكونوا في غالبيتهم أناس يمنعهم إدراك عظيم لمنزلتهم الاجتماعية ، ورغم ذلك فطبقاً لحكم كثير من الناس في كون المرء منحدر من نسل على يعطيه مكانة أو منزلة خاصة في المجتمع ؛ ولهذا السبب يميزهم مؤرخ واع مثل هلال الذي عاش هذه الأحداث عن العامة (٢٩) .

## الأعيان

كان الفارق بين العامة والأعيان ( المفرد عين ) فارقا مضيقاً هو الآخر ، وكلمة أعيان تعني كبار أو أبرز رجال المجتمع كيفما قد يُعرف المجتمع ؛ ولذا فعادة ما كان واحد من الأعيان يدين بوضعه لنفوذه مع الجماعة التي كان ينتمى إليها داخل مجتمعه . فقد كان كبير الشهود - على سبيل المثال - في مدينة معينة أو ما شابه ذلك وكما قد لا حظنا كان لزاماً على الحكومة التعامل مع المجتمع جملة لبعض الأغراض وعادة ما كان لدى المجتمع نفسه مصلحة في تقديم وجه جماعى للحكومة ، وفي ظل هذه الظروف تعاملت الحكومة مع الأعيان الذين كان يمكن للحكومة أن تتوقع منهم وبشكل معقول أن يقودوا الجماعات التي كانوا ينتمون إليها ؛ وبالمثل ما كان يمكن لهذه الجماعات أن تتوقعه من قيام الأعيان بإبقاء الحاجات المشتركة لتلك الجماعة نصب أعينهم في أية مفاوضات ، وإذا فعادة ما كانت علاقة العين بجماعته تقوم على الولاءات الشخصية المكتسبة عن طريق القسم وتبادل المنفعة - كما ذكرنا في الفصل السابق - وكانت بعض المهن من الوضاعة والحقارة بحيث لم يكن كبار رجالها مقبولين للأعيان الآخرين أو للحكومة كمتحدثين عنها؛ وعلى أية حال قد لا يكون للجماعة التي كان لهم نفوذ معها ثقل كاف كي تكون جديرة باهتمام الحكومة ، وعلى النقيض فإن بعض المهن كمهنة التجار كانت تضم عدة أعضاء ممن يعدوا من الأعيان نظراً لما لهم من نفوذ وموارد .

ونظرا لأن الأعيان كانوا يدينون بمكانتهم لإجماع غير رسمي من قبل من فوقهم ( الحكومة ) ومن دونهم ( العامة ) ؛ فقد كان لهم مصلحة جماعية أيضا ، وكان ثقلهم في المجتمع مستمد من مكانتهم بين الجماعات المحلية التي كانوا يتزعمونها . وكان من شأن الثورة الاجتماعية العامة التي تشجع إعادة توزيع الثروة أو تشجع جماعاتهم على تقديم زعماء بديلين أن تشكل تهديدا للأعيان جميعهم ، وبالمثل فقد اعترفت الحكومة بزعامة الأعيان ، كما قصرت تولى كثير من المناصب والوظائف وأشكال الاصطناع الرسمي على الأعيان . ولكن إذا وجب على الحكومة أن تتجاهل الأعيان وتبحث عن قادة من العامة ، أو ما هو أسوأ من ذلك إذا وجب على الحكومة التوقف عن مساندة الأعيان عن طريق التهديد بالتدخل العسكري للسيطرة على الفتنة والعصيان بين العامة فقد يتم القضاء على الأعيان قضاء مبرما .

وتوضح الأحداث التي وقعت في الموصل في عام ٣٧٩ هـ التعاون بين الأعيان ؛ فعندما وصل نبأ وفاة شرف الدولة إلى تلك المدينة هاجم السكان الحامية البويهية تأييدا لدعوى اثنين من أفراد الأسرة الحمدانيين ؛ وهي الأسرة الحاكمة التي حكمت الموصل قبل البويهيين ، وعندما وصل الحمدانيون وجئوا أن العامة لن ترضى بأقل من قتل الديلميين في الحامية البويهية ، وأدركوا أن مثل هذه المذبحة سوف تكون لها عواقب خطيرة في علاقاتهم المستقبلية مع البويهيين في العراق ، واستدعى الحمدانيون شيوخ الموصل ووجوهها ( الرؤساء كمصطلح بديل للأعيان ) ، وقالوا لهم : " إذا كنتم تريدوننا أن نبقي معكم فقدموا لنا إدارة شئونكم ... ونصيحتنا لكم أنه يجب عليكم أن تمنعوا أحداثكم من أي قتل وأن يُسمح لهؤلاء الناس ( أي الحامية ) أن ينسحبوا من بينكم بشرف " ، ووافق الشيوخ والوجوه على بذل قصارى جهدهم ، وفي صباح اليوم التالي ذهب الحمدانيان والمشايخ ( مصطلح آخر للكبار و/أو الرؤساء ) إلى العوام الذين كانوا قد اجتمعوا بالفعل لمهاجمة قصر الحاكم العسكري ، ووافق العوام على عدم إراقة الدماء لكنهم اكتفوا بنهب القصر بينما وقف الجيش على الأسطح ووقف الشيوخ على الدرج لمنع العامة من الصعود إلى الأسطح ونجح هذا الاتفاق ، وكما توضح الرواية فإن الأعيان لم يكونوا واثقين من قدرتهم على كبح جماح العامة ، لكنهم أدركوا المصلحة الجماعية للمدينة ومن المرجح لطبقتهم بمحاولة القيام بذلك في نفس الوقت الذي كانوا يساعدون فيه نظام حاكم مختلف ( ومن المفترض شاكرا ذلك ) على

توطيد دعائم سيطرته وإحكام قبضته على المدينة ، والواقع أن البويهيين لم يقوموا بجهود مباشرة لاستعادة الموصل .

وقد أخفق الأعيان في بعض الأحيان في تبرئة أنفسهم بنجاح إلى هذا الحد . وفي عام ٣٠٥ هـ واصل الحاكم العسكري للبصرة معركة دائرة مع كلا الخصمين المناوئين في المدينة وهما : مضر، وربيعة اللذان زعما انحذارهما على التوالي من السكان الشماليين والجنوبيين لشبه الجزيرة العربية ، وأخيرا وجد الحاكم نفسه في مواجهة انتفاضة رهيبة حملته على مغادرة المدينة هو وجنده ؛ ومن ثم أرسلت الحكومة حاكما جديدا لإعادة النظام ، وليس بالمثير للدهشة أن نقرأ أن أعيان البصرة غادروا المدينة مع الحاكم السابق ، ومن المفترض أنهم عادوا إليها مع الحاكم التالي . وكما رأينا فقد كان الأعيان يعتمدون في مكانتهم على قدرتهم على تحقيق التوازن بين تأييد الحكومة وتأييد من هم دونهم . كما أنهم استفادوا من تنوع المصالح الجماعية المتداخلة أحيانا و المتضاربة أحيانا بين العامة ، فإذا كان العامة قد اتحدوا كجماعة واحدة ضد الحكومة ، وفر ممثلوا الحكومة فإنه لم يكن أمام الأعيان أى خيار سوى الفرار مع ممثلى الحكومة (٢٠) .

وبرغم تعرضهم للخطر ممن فوقهم وممن دونهم ، فقد أبدى الأعيان مرونة وقدرة ملحوظتين على ممارسة تأثيرهم على أنصارهم في المجتمع وفي البلاط ، وعندما كان المرزبان الحاكم المسفريوى يحاصر دایسام فى أردابیل وهى مدينة هامة فى أذربيجان أقنع دایسام بإرسال زعماء المدينة للوساطة بين الخصمين ، و ألقى المرزبان القبض على الزعماء ( الذين يطلق عليهم الأعيان والوجوه والرؤساء بالتبادل فى المصادر ) حيث أدرك أن " أهل المدينة سوف يتحدون فى مواجهة دایسام ولن يمهلوه إذا ما احتجز وجوههم ورؤساءهم " ، وقد نجحت الحيلة وأجبر دایسام على مغادرة المدينة .

وقد تصرف أبناء مجتمعات الشرق الأدنى فى هذه الفترة فى حالات متكررة كما لو كانوا مجردين من كل سيطرة داخلية ومن كل احترام للذات أمام بقية العالم إذ جردوا من أعيانهم ، وكان جيش الخلافة على وشك إعادة فتح إقليم سيستان فى جنوب غرب إيران من كثير بن أحمد بن شاهفور فى مطلع القرن الرابع هـ / العاشر م عندما أشيع أن قائد جيش الخليفة يحمل السلاسل والأغلال لأعيان الإقليم ، وقد روع أهل سيستان لذلك وهرعوا لنجدة كثير وأنزلوا الهزيمة بجند الخلافة الذين كبلوا بنفس

الأغلال التي كانوا يحملونها ، وكتب كثير بحكمة إلى الخليفة متتصلاً من المسؤولية عن العمل الانتقامي الذي قام به أهل الإقليم وبذلك أراح الخليفة وخلصه من الحاجة إلى الأخذ بالنار والانتقام دفاعاً عن شرف بغداد (٣١) .

ولا تخبرنا المصادر بالكثير عن الكيفية التي حافظ بها الأعيان على التكامل والمكانة داخل مجتمع الجماعات المحلية التي كانوا ينتمون إليها ، ومن المفترض أنه إذا كان التجار قد اتحدوا أحياناً لكفالة أحدهم أو أنهم شعروا بتهديد مشترك من عناصر أخرى في المجتمع فقد كان من الطبيعي أن يذعنوا لبضعة أعضاء أو عضو واحد في مهنتهم له مهابة السن وشرف النسب ، وفوق هذا كله الثراء الأعظم بينهم . فإذا أدرك التاجر الأشرف نسباً والأكبر سناً والأكثر ثراءً تيار الرأي السائد بين التجار كما ينبغي وكشف عن حسبه الكبير للغاية ، فمن المرجح أن يشعر التجار الآخرون بأنه من المساوي التنازل عن جزء من حسابهم إذا لم يحنو حنوه .

ونادراً ما نلتقي في مصادرنا بأي من الأعيان في هذه الدور داخل المجتمع ، ورغم ذلك فغالبا ما نلتقي بالأعيان في دورهم الجماعي كمتحدثين أمام الحكومة نيابة عن المجتمع المحلي كاملاً ، ومن السهل أن نرى في هذه الأمثلة مبرراً لإقرار المجتمعات المحلية بالفضل لأعيانهم ، وعلى سبيل المثال فعندما هدد البيزنطيون مجتمع أرزان كان - طبيعياً تماماً - الأعيان هم من قدم إلى بغداد لطلب مساعدة الخليفة ، وبالمثل ما حدث عندما هاجم أهل بخارى القائد أبو علي بن مهتاج لاستعادة " نوه " فتغلب عليهم أبو علي وجنده وأرادوا حرق المدينة ، لكن مشايخ أو " رؤساء " المدينة توسطوا وصفح أبو علي عنهم ، وكثيراً ما يُشار إلى أمثلة من هذا النوع من الوساطة من جانب الأعيان (٣٢) .

وكان لزاماً على أي نظام حاكم أراد أن يديم ويبقى أن يثبت أقدامه في ولاءات الأعيان الذين كان يحكمهم بإقامة روابط خاصة مع هؤلاء الأعيان ، وقد تمكن على بن بويه ( عماد الدولة ) من التفوق على قادة المرتزقة من الديلميين في عهده بشكل جزئي على الأقل ؛ وذلك أنه فهم قيمة مثل هذه الروابط ، ويخبرنا ميسكاويه أنه بعد أن هزم ياقوت وبدأ في الزحف على شيراز عاصمته القادمة فقد أدى مسلكه تجاه الجميع بما فيهم - وهو ما تشدد عليه الرواية التاريخية بشكل واضح - الشرطة المحلية (الشبهة) وأكابر الناس إلى تهدئة مخاوفهم تماماً ، ولدى وصوله إلى عاصمته الجديدة

كافأهم على النحو اللائق ، وفيما يبدو أن القتال قد أريك عملية جباية ضرائب فارس وقام على بجباية المتأخرات الضخمة عن العام وقد بلغت أربعة ملايين درهم لوجوه البلد . وبعد كل هذا كان الأعيان " المقبض " الوحيد الذى يمكن لنظام الحكم بواسطته الإمساك بزمم المجتمع المحلى ؛ وإلا اضطر النظام الحاكم إما إلى نهب ذلك المجتمع أو إهماله ، وعلاوة على ذلك كان يتعين تشكيل أى شكل للالتزام بين النظام الحاكم والمجتمع فى إطار الولاء المكتسب ؛ نظرا لأن الرعية لم تكن تنتمى إلى الصنف أو الطبقة أو حتى إلى جنس حاكمها فى معظم الأحوال ؛ ولذا كان يتعين على الحاكم إقامة روابط شخصية مع الأفراد المناسبين فى المجتمع الذى يحكمه عن طريق الأيمان والنعمة وماشابه (٣٣) .

وتتجلى الطريقة التى سعى بها النظام الحاكم الجديد إلى أن يثبت أقدامه فى الولاء الشخصى للأعيان والطريقة التى سعى بها الأعيان لرفع شأن أنفسهم بفضل هذه " العلاقات الخاصة " مع الحكومة بشكل واضح تماما فى سيرة أبى زكريا يحيى بن سعيد السوسى نسبة إلى مدينة سوسا القديمة ( السوس ) فى إقليم خوزستان الغنى بين فارس وجنوب العراق ، وفى الوقت الذى كانت تلعب فيه الأسرة البريوية من الكتبة - والتي أصبحت فيما بعد الأسرة الحاكمة قصيرة الأجل فى جنوب العراق - دورا رئيسيا فى إدارة سوسا وجندايسابور المجاورة فقد أقاموا علاقات ودية مع يحيى وفى عام ٣٢٣ هـ أرسلوه لمساعدة ياقوت قائد جيش الخلافة عندما كان مقررا لجيش ياقوت - عند عبوره خوزستان - المرور عبر سوسا بلد يحيى .

ولما كان رجل له شأنه فى بلده فقد كان من المفترض أنه بمقدور يحيى توفير هذه المساعدة بسهولة تفوق أى شخص غريب ، ورغم ذلك وفى عام ٣٢٦ هـ وبعد أن نزلت الهزيمة بـ "باجكام" على يد أحمد بن بويه الذى أجبره على الجلاء عن خوزستان وأثناء انسحابه ألقى القبض على وجوه توستار ( ناحية من خوزستان تضم سوسا ) وكان من بين هؤلاء يحيى ، وساقهم باجكام إلى واسط وربما كان يأمل فى أن يمارس ضغطاً على أهل خوزستان بهذه الوسيلة ، وعلى أية حال فبمجرد أن وصل إلى واسط طلب منهم خمسين ألف دينار .

ورغم ذلك فقد كان هذا الحدث نهاية سيرة يحيى ، وكان باجكام فى ذلك الوقت فى خدمة ابن رائق اسميا على الرغم من أنه كان يعد نفسه كى يحل محله كأمير

الأمراء في بغداد وقدر يحيى طموح باجكام تقديراً صحيحاً وكان حكمه عليه أنه كان رجلاً بارعاً للغاية لكنه خطير . وقدم نفسه وخاطر بتقديم النصيح إلى هذا الطامح الخطير إلى الإمارة ، وأشار بداية إلى أن باجكام سرعان ما سوف يتولى أمر بغداد ، ثم قال له " ألا تذكر كيف أنك قد تصيدت خطأ لتوك أمس للأمير ابن رائق لإساعته لأهل البصرة (بإهانة أعيانهم مما حدى بعوامهم إلى طرد ابن رائق) ؟ وعوام بغداد أكثر عدداً بكثير ، وأنت تخطط للتصرف في قضيتنا ( أي قضية العراقيين والخوزستانيين ) كما تصرف ماردأويه ( مستخدم باجكام الأصلي ) نحو أهل جبل . لكن هذه بغداد مقر الخلافة وليست الري أو إصفهان ؛ ولن تطبق مثل هذه الأخلاق . " باجكام لذلك ، وعن طريق وساطة اثنين من كبار كتبة الخليفة - وكلاهما كانا من أصدقاء البريويين مصطنعوا يحيى الأوائل - أطلق باجكام سراح يحيى الذي كفل بدوره أعيان إقليمه الأم السجناء فأطلق سراحهم هم أيضاً (٣٤) .

وقد أقنع يحيى باجكام بأنه إذا أساء الأخير معاملة الأعيان فسوف يجلب على نفسه عداة العوام ، وذلك بعد أن أوضح كيف أن جزاء المعاملة الطيبة للأعيان يمكن أن يكون العون المادي ، وكان أحمد بن بويه ما يزال يقاتل في خوزستان قرب سوسا ، وأعد يحيى العدة لوكيله ( ربما المشرف على أملاكه ) لتضييق الخناق على الجيش البويهى بقطع الجسور وما شابه ذلك من تدابير . ( وتصادف أن كان هذا الوكيل أبو محمد المهلبى الذى سوف يصبح يوماً ما وزيراً له شأنه لأحمد بن بويه ) ، وزادت هذه المضايقات وضع أحمد سوءاً ولكن ليس بشكل حاسم إلى هذا الحد ، وتوضح بقية سيرة يحيى أن يحيى كان يتحرك ويتنقل في أوساط البلاط للوساطة بين المرشحين المختلفين للإمساك بزمام الأمور في العراق بما في ذلك الحمدانيون والبريويين (٣٥) .

ولا نسمع المزيد عن استغلاله لنفوذه في خوزستان وربما أنه كان قد أصبح جزءاً من الطبقة العليا للسياسة ، ولم يكرر المخاطرة باستغلال نفوذه في إقليمه الأم ، وبمجرد أن أحكم البويهيون سيطرتهم على العراق يبدو أنه لم تكن لديهم أية ضغينة ضده لمعارضته الغزو البويهى لبغداد ، ومن المؤكد أنهم لم يوقفوا معارضة وكيله المهلبى ضد هذا الرجل البارع ، ذلك أن المهلبى انتهى به الأمر إلى الدخول في خدمة البويهيين وارتفع إلى مرتبة الوزارة ، وربما لم يكن هناك غنى عن يحيى ووكيله بشكل

فردى للفاتحين ، لكن الفاتحين أدركوا أن تعاون بعض الأعيان على الأقل كان لا غنى عنه تقريبا ، وفي سعيهم لتقديم أنفسهم كوسطاء بين هؤلاء الفاتحين وبقية الأمة نجح رجال ؛ مثل يحيى بشكل جزئي في ترويض الفاتحين والإيقاع بهم في شرك الولاءات الراسخة للطبقة في أراضيتهم الجديدة ، وبالمثل أصبح رجال مثل يحيى متورطين هم أنفسهم في النظم الحاكمة الجديدة وكانوا أقل حظا أحيانا من يحيى ودفعوا ثرواتهم بل حتى حياتهم ثمنا لهذا التورط .

## الرئاسة

لن يكتمل أى وصف للأعيان دون مناقشة ما للرئاسة وعلاقتها بكل من ولاءات الطبقة والولاءات المكتسبة . وعندما تصف المصادر الرئاسة في مجتمع ككل فإن وجوه ذلك المجتمع - كما رأينا - غالبا ما يُطلق عليهم الأعيان على الرغم من استخدام مصطلحي الوجوه والرؤساء أيضا ، ولكن عندما توصف الرئاسة من خلال جماعة معينة لها رئاسة فعادة ما تطلق المصادر على الزعيم الرئيس (الجمع رؤساء) ويُطلق على الرئاسة التي يمارسها كلمة الرئاسة ذات الصلة . وإذا كان بمقدورنا وصف معنى مثل هذه الرئاسة للطبقات التي جاءت بالرؤساء فسوف نكون قادرين على إعطاء وصف أكثر دقة إلى حد بعيد لولاءات الطبقة التي نحن بصددتها في هذا الفصل .

ولسوء الحظ فنادر ما تهتم مصادرنا بالروابط التي تمتد لأسفل من الرؤساء إلى أنصارهم المحليين ، وقد شملت مثل هذه الروابط أناسا متواضعين للغاية وروابط غير رسمية للغاية مما جعلها غير جديرة بالاهتمام ، ومع ذلك تعطى المصادر بعض التلميحات المتعلقة بتنوعات الرئاسة التي أتت بها هذه الجماعات التي تعي ذاتها وتعكس هذه التنوعات الطبيعة المتغيرة لهذه الجماعات والقيود على الرئاسة التي كان أى ولاء للطبقة قادرا على الإتيان بها .

وكلمة رئيس مشتقة من كلمة "رأس" وغالبا ما كانت تُستخدم على نحو مطلق للدلالة على "رأس" أية جماعة يمكن تمييزها بشكل فعلى ، ويقول التتوخي ( المتوفى عام ٣٥٤ هـ / ٩٩٤ م ) إن ابن ديه المتخصص في الأنماط ( التجهيزات النسجية بجميع أنواعها ) وكان رئيس هذه الصناعة في زمن المؤلف في بغداد ، وأحيانا يطلق على الرئيس الشيخ ، وهكذا نقرأ أن رجلاً ما كان شيخا للبزازين أو تجار القماش في

باب الطاق وهو سوق رئيسى فى بغداد زمن الفتح السلجوقى فى منتصف القرن الخامس هـ / الحادى عشر م ، ومن المرجح أنه لم يكن يتم تولي رئاسة حرفة وجماعات تجارية عن طريق التعيين الحكومى أو حتى عن طريق التثبيت الحكومى ، ولكى يكون المرء رئيس صنعيته فمن المفترض أن يكون ناجحاً بشكل بارز فى تلك الصناعة . وسوف يشجع مثل هذا النجاح الحكومة إذا كان لديها أى مبرر للتعامل مع أعضاء تلك الصناعة جملة أن تتعامل معهم من خلال هذا الرجل الناجح بشكل بارز ، ومما لا شك فيه أن الصناعة إذا شعرت بالحاجة إلى التعامل مع الحكومة بشكل جماعى بشأن ضريبة أو أمر مشابه فسوف تضم مثل هذا الرجل فى وفدائها إلى الحكومة ، وسوف تجعل من هذا الرجل المتحدث الرئيسى باسمها فى أى اجتماع مع مسئولى الحكومة .

وعندما يكون لرئيس ( أو شيخ ) الحرفة دور الوساطة هذا مع الحكومة فإن العوامل الأخرى - إضافة إلى نجاحه - قد تجعل منه متحدثاً مناسباً باسم الحرفة كأن يكون منحدرًا من نسل «على» على سبيل المثال أو لسنه ، وكلمة شيخ بمعناها الأصلية تعنى " الأكبر سنًا " وفى المثال السابق حيث عبر المتحدث باسم التجار عن رجاء التجار أن ينزل الله عقابه بالوزير أطلق على المتحدث (شيخ التجار)، ومن غير المحتمل لشاب ورث أكبر مخزون من التجهيزات النسيجية مثلاً أن يتم قبوله على الفور كرئيس لحرفته ، لكن الدليل على هذا الأمر واه للغاية (٣٦) .

وفى الطرف البعيد لسلسلة معانيها كانت كلمة رئيس تعنى الزعيم نو السلطات الأوسع التى يتمتع بها أى شخص فى هذا المجتمع ، وكان هذا الشخص هو الملك . وبالطبع كان يطلق على زعيم أى نوع من القبائل سواء كانت عربية أم كردية أم بلخية كلمة رئيس . لكن الزعيم الذى كان يدعى السيادة ليس بالوراثة أو إجماع قبيلته كان يُطلق عليه أيضاً رئيس ، وعندما قُتل ماردأويه أدرك أتباعه الديلم والجيليين أنهم إذا " بقينا دون رئيس يكون قد قضى علينا " ؛ ولذا فقد اتفقوا على قبول واشماجير الذى كان فى الرى رئيساً لهم ، وبالمثل ما فعلته جماعة من الجند الذين تخلوا عن عز الدولة فى عام ٣٦٧ هـ فمنحوا ضابطاً من الديلم " الرئاسة عليهم " ، ولم تكن مثل هذه الرئاسة منحة لزعامة مؤقتة ؛ فقبل وفاتهما قام كل من عماد الدولة ومعز الدولة بتطهير جيشهما من الضباط الذين " أرادوا الرئاسة لأنفسهم " واعتبروا أنفسهم أحق من

البويهيين بالحكم ، وبالنسبة لهؤلاء الضباط كان أى منصب عدا منصب الملك منصبا ثانوياً ، وربما أغرتهم رغبتهم فى الرئاسة والسيادة المستقلة على تنحية ولى العهد والمطالبة بالملك لأنفسهم . وهذا الشكل من الرئاسة له أصل مماثل فى بعض النواحي للرئاسة المهنية التى سبق ذكرها حتى وإن كان لها عواقب مختلفة بالنسبة للرئيس ، وعندما كانت غالبية الملوك من الجند فإذا اعترفت جماعة ليس لها رئيس برجل رئيسا لها فقد كان هذا يعنى أنهم اعترفوا به ملكا عليهم ، ورغم ذلك فقد ترتب عليه أنه إذا أثبت الرئيس ادعاءه هذا للملك كان باستطاعته - وعادة ما كان يفعل - أن يستخدم مجموعة من الألقاب التى تقيم ادعاءه هذا على ألقاب أعظم وأرفع ، ذلك أن مثل هذه الألقاب يمكن أن تسمو به بعيدا فوق أنصاره الأصليين من إخوانه الجند (٣٧) .

وقد وصفت الزعامة فى الأسرة البويهية من الملوك بالرئاسة أيضا ، ومع ذلك يجب عدم الخلط بين الرئاسة فى الأسرة الحاكمة وادعاء السيادة الذى سبق ذكره . وكانت الرئاسة فى الأسرة الحاكمة تعنى نظرياً سيطرة أحد أفراد الأسرة على الأراضى التى يحكمها أفراد الأسرة بشكل مباشر فى حين يسيطر الآخرون على أراضيتهم كنواب لهذا الرئيس ، وقد بررت هذه النظرية التعاون الأسرى الذى اعتقد جميع أفراد الأسرة أنه سوف يجعل أسرتهم قوية ، كما قدمت مثل هذه النظرية صغار الملوك البويهيين إلى العالم كمشاركين فى دولة كبيرة ، والتى أثبتت أهميتها الجماعية إرادة الله منح أسرتهم دولة مؤثرة لها ثقلها أو قدر لها إلهيا دولة فى السلطة .

وكانت هذه النظرية للرئاسة الأسرية متفقة مع الأسلوب الاستبدادى للسلطة فى أنحاء المجتمع ، وسمحت للولاءات التى كانت شخصية بطبيعتها أن تتركز على شخص واحد ، كما أن مثل هذه النظرية كانت ملائمة تماما للنظرية السياسية الاستبدادية التى نشأت حول الخلافة، وإذا كانت الشرعية الممنوحة إلهياً للحكم متركزة فى رجل واحد وهو الخليفة وقام الخليفة ، بالاختيار أو قسرا - بتفويض من يؤدى هذا الواجب فإن مثل هذا التفويض كان يُقصد به أن يؤول إلى شخص واحد يمكن أن يكون صديق موثوق للخليفة على نحو لايتأتى لجماعة من الناس ، ويرجع السبب فى حفاظ البويهيين على الخلافة بشكل جزئى إلى رغبتهم فى انتزاع منح عظيمة للسلطة المطلقة من الخليفة ، وحاول حكام العراق البويهيون التظاهر - إلى أقصى حد - بأنهم يتمتعون بهذه العلاقة الخاصة مع الخلافة .

وفى نهاية الأمر ، ونظرا لأن جميع الملوك البويهيين أرادوا ادعاء الرئاسة ، فقد ساعدت الملازمة الحقيقية لوجود رئيس فى الأسرة على القضاء على النظام الأسرى ، وظلت نظرية إمساك أحد البويهيين بزمام الحكم من الخليفة بشكل مباشر فى الجيل الأول ، وعندما فنى هذا الجيل تم التخلّى عنها من الناحية العملية ، وعندما جمع ركن الدولة آخر ملوك الجيل الأول أبناءه فى أصفهان لتسوية مسألة انتقال الرئاسة بعد وفاته أعلن أن ابنه عضد الدولة هو ولى عهده وخليفته على مملكته ، وهو ما كان يعنى ضمناً أن عضد الدولة سوف يحكم مملكة فارس عقب وفاة والده مباشرة (فى الوقت الذى يفترض فيه أن يصبح مؤيد الدولة وفخر الدولة اللذان ورثا أجزاءً من مملكة والدهما فى جبال نائبين لعضد الدولة) ؛ والواقع أن عضد الدولة قد هدم النظام بأكمله (٢٨) .

و يذكر أن مبادئ الترتيب الهرمى للسلطة والتفويض فى الخدمة الحكومية كانت وظلت محددة بشكل أكثر وضوحاً بكثير فى أى مجال آخر من مجالات الحياة تناولته مصادرها ، وكان محدداً ، دائماً ما إذا كان أحد القضاة يتولى منصب رئاسة بشكل مباشر أم نيابة ؛ نظراً لأن القاضى الذى كان يتولى منصباً بالتعيين المباشر كان يمكنه - من الناحية النظرية على الأقل - اختيار أى نواب يرغب فى اختيارهم لمنطقته ، وكان يُطلق على قائد الجيش الرئيس بنفس المعنى ، وكان له كامل السلطة على الجيش بمنحة علنية من الحاكم ، وفى الحملة التى أرسلت ضد إقليم جبال فى غرب إيران فى الخمسينيات من القرن الرابع الهجرى عين الملك السامانى محمد بن إبراهيم بن سيمجور "رئيساً على الجميع" ، ومن ثم أخضع له قادة لم يكونوا تابعين له فى الظروف العادية (٢٩) .

ويبدو أنه ما من رئيس عينته الحكومة مرارا أكثر من رئيس الكتبة ، والواقع أنه فى الأجيال اللاحقة غالباً ما كان مصطلح الرئيس دون مزيد من الأهلية يعنى " كاتب رفيع المقام " ، وعندما كان يجرى استجواب ابن الفرات فى عام ٣٠٦ هـ أطلق على على بن عيسى نائب الوزير الرئيس ؛ إما علامة على الاحترام أو لأن منصب على الرفيع جداً كان يحمل هذا اللقب . وظل لقب الرئيس لقب بيروقراطى رفيع جداً ، وعندما عُين ابن فاسنجاس وزيراً لعز الدولة فى عام ٣٥٩ هـ حصل الكاتب أبوقره منافس الوزير القوى على المنحة الرسمية للقب الرئيس . وانزعج فاسنجاس لذلك وأمر-

أن يُطلق عليه هو نفسه الوزير الرئيس ، ومع ذلك فيمرور الوقت أصبح اللقب يُمنح على نحو أكثر شيوعاً إلى حد ما لكبار الكتبة ، وبنهاية العهد البويهى كان اللقب قد أصبح ذى قيمة متواضعة إلى الحد الكافى حتى أنه عندما اتخذ الخيفة أبو القاسم على بن الحسن بن المسلمة الذى كان طموحاً أكثر من اللازم وزيراً له فى عام ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م منحه لقب " رئيس الرؤساء " ، وقد تبنى السلاجقة الأوائل هذا الأسلوب فى إطلاق الألقاب ، وكان أحد وزراء طوغرل وهو أبو عبد الله الجيش بن على ابن ميخائيل يحمل لقب " رئيس الرؤساء " (٤٠) .

ونظراً لأن كلمة رئيس كانت تطلق على كبار مسئولى الحكومة ؛ فقد وصل الأمر إلى حد أنها أصبحت تُستخدم بصورة مطلقة بمعنى من هو أعلى مقاماً من المرء أو حتى على نحو أكثر غموضاً بمعنى عليّة القوم ، وتنقل قصة عن القاضى أبو عمر ابن يوسف المعنى الذى كانت كلمة رؤساء تدل به على من هم " أعلى مقاماً " من المرء ، ورغم ذلك فقد كان هؤلاء الذين هم أعلى مقاماً من المرء كذلك من خلال ما كانوا يلقونه من احترام فقط وليس من خلال تعيين رسمى ، وقد رفض أبو عمر محمد بن يوسف كبير القضاة فى مطلع القرن الرابع هـ / العاشر م أن يتخذ مقعداً أعلى من على ابن عيسى فى حضور الوزير ابن مقلّة على الرغم من أن الوزير قد حثّه على القيام بذلك وفسر ذلك فيما بعد فى رسالة بعث بها إلى الوزير قال فيها : " إن هذا الرجل كان رئيساً ذات يوم ولم يعد كذلك لتحول الحظ ، وأكره أن اتخذ مكاناً يعطوه خشية أن ينظر إلى الوزير على أننى رجل رفع نفسه فوق رؤسائه وقد فعلت ما فعلت من أجلك وكى أبدى احتراماً ( لبدأ ) الرئاسة ، وكما لاحظنا فإن هذا الاحترام المتواصل للرجال الذين اصطنعوا مهنة المرء هو عاطفة مشتركة ، ومع ذلك تجدر ملاحظة أن هذين الرجلين كانا من فرعين مختلفين تماماً للخدمة الحكومية ولم يحدث أبداً أن كان أبو عمر تابعاً لـ " على " بمعنى كون الكاتب المتدرب تابع لرئيس الكتبة .

وحتى هذا المعنى الغامض لكلمة رئيس كمعنى حالى أو ماض أو حتى محتمل فإن كلمة " مديراً أو رئيس " أو " الأعلى مقاماً " قد أعطت نوعاً ما من الشعور الجماعى تجاه الرجال المتمثلين على هذا النحو ، ويخبرنا ميسكاويه - وهو نفسه مسئول حكومى متوسط الشأن - أن ابن باقية وزير عز الدولة كان لديه بعضاً من تحرر " الشطار " بين عامة الناس لكنه لم يتبنى مسلك أهل الكرم والرئاسة ، ولم ينجح

ابن مقله وضع المولد أبداً في أن يثبت لأعدائه أنه يمكن ضمه إلى طبقة الرؤساء ،  
وكما لاحظنا فقد شعر كثير من الرؤساء بأنه عن طريق توليه الرئاسة قد جلب على  
نفسه - عن عمد - الكارثة التي أودت بحياته (٤١) .

## الرئاسة بين العلماء

كانت الرئاسة التي يمنحها الإجماع غير الرسمي لأحد مذاهب الفقه الإسلامي  
أو علم الدين مختلفة للغاية عن الرئاسة التي يمنحها التعيين الحكومي ، ولم يكن  
الاثنين منفصلين كلية ، فكما رأينا فقد كانت هناك طبقة من الناس الذين أظهر  
أسلافهم " شرفاً " و " رئاسة " ؛ ولذا كانوا المرشحين المحتملين : إما في العالم  
السياسي أو في العالم الأقل بناء للعلم الديني والتقوى المهنية ، وعلى عكس السبل  
الأخرى المؤدية إلى الرئاسة فقد ظل العلم الديني مفتوحاً على نحو يتسم بالوعى  
الذاتي للموهبة بصرف النظر عن أصل المرء ، ورغم ذلك فقد أيدت معظم الافتراضات  
الأخرى الخاصة بالمجتمع الرجال ذوي المنزلة المتوارثة وكان من الطبيعي تماماً  
للافتراضات التي منحت الرئاسة في الطبقات الأخرى للمجتمع أن تؤثر على اختيار  
الرؤساء من بين رجال الدين ، وعلاوة على ذلك فقد جعل الثراء النسبي للرجال  
أصحاب الرئاسة من الأيسر بصورة كبيرة لأبنائهم أن يتابعوا مساراتهم المهنية  
كعلماء خصوصيين : ولذا كانت نسبة كبيرة جداً من كبار علماء الدين من أسر  
أظهرت موهبة تؤهلها للرئاسة و - على وجه أكثر تحديداً - من الأعيان .

وعلى النقيض من ذلك لم تأت الأسر التي مارس أسلافها الرئاسة في  
البيروقراطية أو جيش الحكومة المركزية بالكثير من كبار رجال الدين ، وكان إخفاقهم  
في ذلك يرجع بشكل جزئي إلى المسافة التي كان رجال الدين يريدون إيجادها بين  
أنفسهم وسائر الحكومات التي ادعت السيادة ، ومع ذلك لم ترق إلى العمل وفقاً للمثل  
الدينية العليا للعدالة ، ومع ذلك فقد كان عدد الرجال الذين أصبحوا رجال دين من  
أسر الكتبة والأسر العسكرية أكبر من عدد أولئك الذين أصبحوا جنداً من أسر الكتبة  
أو العكس بالعكس .

وهناك ارتباط بين الانفتاح النسبي أمام الرجال الجدد من الطبقة التي وصفت  
بالمعرفة الدينية والتقوى والاعتقاد السائد على نطاق واسع بأن تقوى الرجل كان لها

ادعاءات واضحة بحد ذاتها لم تكن بحاجة إلى أن تُدعم بالادعاءات الافتراضية المكتسبة عن طريق الأسلاف ، كما أن لها علاقة بغموض الطبقة نفسها ، وبمجرد أن يتم فهم هذا الغموض يصبح من الواضح السبب في أن المعرفة الدينية يمكن أن تأتي بالرؤساء الذين شغلوا مناصبهم عن طريق إجماع غير رسمي فقط ، والذين كانت لهم سلطة محدودة للغاية على أولئك الذين منحهم أسبقية الشرف .

وكان رجال الدين يُعرفون عامة بالعلماء ، وهي إحدى الطبقات القليلة الوارد وصفها في هذا الفصل من الكتاب والتي استحوذت على انتباه الدارسين المحدثين واهتمامهم ، وهكذا فقد ألقى على العلماء عبء التفسير الذي تحمله الطبقة البورجوازية في التاريخ الأوروبي الحديث أو " الطبقة الأرستقراطية " في تاريخ شرق آسيا ، ويعطى مقال كتبه د.ب. ماكdonald وهو أحد الدارسين المتميزين لعلم الدين والفقه الإسلامي ويجدر الاستشهاد به بشكل مطول ؛ فقد كتب ماكdonald يقول : " لقد قدم العلماء وعبروا عن إجماع المسلمين ، وكان هذا الإجماع أساساً للإسلام ؛ ونتيجة لذلك فقد وصل الحال بالعلماء ، أيا كان الشكل المقرر لأدائهم لعملهم - إلى أن يكون لهم القرار النهائي في كافة المسائل المتعلقة بالدستور والقانون وعلم الدين بشكل واسع وغامض ، وأيا كانت الحكومة القائمة فقد كانوا بمثابة كايح لها كتعبير حي عن إجماع وحق أمة محمد في أن تحكم نفسها ، ومن الواضح أن هيئة العلماء كانت الإطار الصلب المتماسك للحكومة الدائمة وراء هذه الأسر الحاكمة المتغيرة ."

ويصف ماكdonald الطريقة التي توصل بها العلماء إلى إجماع بأنها " غامضة " ويشير إلى أن بعض الحكومات نجحت بشكل جزئي في " السيطرة " على العلماء بمنحهم " منزلة ورواتب رسمية " ، ومع ذلك يرى أن العلماء كهيئة محددة بوضوح وذات بناء - علاوة على أنها جماعة من الرجال الذين يتزعموا ولاء شعبيا يجعل منهم القوة الوحيدة الأعظم شأنًا المساوية لقوة الحكومة في المجتمع .

ونظرا لما لديها من بناء داخلي وقدرة على الإقناع يرى ماكdonald أن هيئة العلماء يمكنها - وقد فعلت - أن تمارس وظائف معينة خاصة بالحكومة تعبر عن إرادة الأمة التي لم يعوقها تغير الأسر الحاكمة (٤٢) .

وقد أيد بعض الدارسين هذا الرأي -حتى قبل ماكdonald- الذي ظل قائماً على نطاق واسع منذ ذلك الحين ، وبالنسبة للفترة والمنطقة اللتين نحن بصددتهما في هذا

الكتاب فأنا أعتقد بأن هذا غير صحيح - إلى حد بعيد - فهو غير صحيح ؛ نظراً لأنه يعتبر العلماء جماعة مميزة بشكل معقول ؛ بينما يبدو أنهم كانوا في واقع الأمر هيئة محددة بصورة غامضة من الرجال الذين طغت هوياتهم الأخرى - كأصحاب أراضى وأعضاء فى طوائف المدن وما إلى ذلك - على هويتهم المشتركة كعلماء فى أغلب الأحيان . وهذا غير صحيح ؛ نظراً لأن هيئة العلماء كان لها بناء داخلى ضئيل للغاية ، وكانت الرئاسة تقوم على الهيئة بشكل محض ، وذلك أن الرئاسة الأولى بين العلماء - كما سوف نرى - كانت رئاسة واهية للغاية . ويبدو أن أى بناء إضافى بين العلماء كان فى الأغلب مفروضاً من قبل الحكومات المركزية ، ونظراً لأن هيئة العلماء كانت محددة بشكل مطلق ودون بناء هكذا فمن غير الصحيح الاعتقاد بأن العلماء كانوا يمثلون صوت الرأى الشعبى ، وكانت خلافاتهم الداخلية وهوياتهم الأخرى - كأفراد من الأعيان - تعنى إنهم إذا قاموا أحياناً بدور المتحدثين عن الشعب ككل فعادة ماكانوا يقومون بدور المتحدث باسم جزء من الشعب فقط أو حتى جماعات محدودة للغاية ذات مصالح مشتركة ، وأخيراً فمن الصعب أن نفهم الكيفية التى يمكن بها القول بأن العلماء - بفضل هويتهم كعلماء - كانوا يشكلون "حكومة دائمة" ، وكانت سلطتهم الجماعية من خلال الإجماع الإيجابى تمارس بشكل تدريجى للغاية فقط فى أية مسألة محددة تكون موضع خلاف بين المسلمين ، وهناك بالطبع الإجماع السلبى المعروف حيث يقال إن الإجماع قد حدث إذا لزمّت الأمة الصمت حيال إحدى المسائل كما كان دور العلماء فى مثل هذه الحالات أكثر سلبية عنه فى المسائل التى تخضع للإجماع الإيجابى ، ويقدر ما كان العلماء يشتركون فردياً على نحو مباشر فى الحكم المحلى يبدو أن الفضل فى قيامهم بذلك كان يرجع إلى كونهم علماء أكثر من التعيين الحكومى ، وبفضل مكانتهم فى الطبقات الأخرى الوارد ذكرها فى هذا الفصل من الكتاب .

ولم يكن العلماء يشكلون طبقة لها من الانتشار وانعدام البناء ما كان لـ "لمفكرين" فى تاريخ عصرنا الحالى لكنهم كانوا بعيدين عن كونهم القوة المؤسسية التى أثبتتها رجال الدين المسيحي لأنفسهم فى دول كثيرة فى أوروبا القرون الوسطى ، واعتبر العلماء أنفسهم صوت جماعى لضمير المجتمع ، وقد يعتبر المفكرون المحدثون أنفسهم كذلك لكن إجماعهم ليس له السلطة التى كان الإجماع يمتلكها فى الإسلام فى القرون

الوسطى ، ومن الناحية العملية فـ " الإجماع " على مسألة تتعلق بالفقه أو علم الدين أحد أهم الطرق التي يمكن بها اختبار شرعية مثل هذه المسائل ، ومع ذلك لم يوكل جميع المفكرين السُنيين مهمة الإجماع إلى جميع العلماء ، حيث أوكلها البعض إلى الأمة الإسلامية جمعاء ، وقصرها آخرون على الفقهاء وهم الرجال الذين تدريبوا بشكل خاص على التفكير طبقاً لمنهج الفقه الإسلامي ، كما اختلف المفكرون السُنيون بشأن طريقة التحقق عند التوصل إلى مثل هذا الإجماع ، هل كان بحاجة مثلاً للموافقة الصريحة من قبل الفقهاء ؟

وعندما كانت الهيئة التي تتألف من الرجال المعنيون بتطوير الفقه صغيرة نسبياً ومتركزة في المدينة وجنوب العراق وعواصم الخلفاء في القرنين الأول والثاني من التاريخ الإسلامي كان من الأسر تقرير الإجماع غير الرسمي " للفقهاء " ، وقد لعب هذا الإجماع غير الرسمي دوراً كبيراً في تحديد الخطوط العامة العريضة للمذاهب الرئيسية للفقه الإسلامي ، والواقع أن تشابه تلك المذاهب الرئيسية لا بد أنه يرجع بشكل كبير للمشاركة العامة لمؤسسيها في جماعة فكرية صغيرة نسبياً ، وبعد هذه الفترة أصبحت الجماعة الفكرية أكبر بكثير وأوسع انتشاراً ، لكن الضمير الجماعي لهذه الجماعة من " الفقهاء " كشف عن نفسه بصورة أكبر في جهودها للالتزام بالتقاليد الرئيسية للقرنين الأول والثاني عنه في الرغبة في " التشريع " للأمة الإسلامية بطريقة ابتداعية .

وبقدر ما قام العلماء بتطوير الفقه الإسلامي ( وهو ما فعلوه بالطبع في جميع القرون ) فقد كان هناك تعبير عن إجماعهم الإيجابي حول المسائل موضع الخلاف في قبولهم العام لبعض الأجوبة المقترحة للمسائل موضع الخلاف وذلك على مدى زمن طويل ، ولم ينظر إلى أولئك الذين أيدوا المواقف التي أسقطتها غالبية المسلمين في نهاية الأمر - سواء في حياتهم أم من قبل الأجيال اللاحقة - على أنهم قد تم استبعادهم من طبقة العلماء للسبب ذاته ، وكما ذكرنا فهذه العملية الجامدة للغاية التي كان العلماء يحسمون عن طريقها الخلافات لم يكن لها أي منهج محدد ، وهكذا أمكن لهذه العملية نفسها أن تحدد - بشكل غامض إلى أقصى درجة فقط - من كان ومن لم يكن له الحق في أن يشترك في مثل هذه القرارات .

ولذا فقد أعطى الإجماع ثقلاً ووقاراً لآراء العلماء لكنه لم يجعل من هيئة العلماء مؤسسة مثلاً تكون الهيئة التشريعية مؤسسة ، والتزمت غالبية العلماء بالتيارات الرئيسية للفكر الإسلامى ، وعادة ما وجدت الحكومات الإسلامية القليلة تلك التى حاولت إكراههم على تبني مواقف لم يقروها أنه من الصعب إكراههم على ذلك ، وكان السبب فى ذلك يرجع بشكل جزئى إلى أنهم لم يكونوا معروفين على نحو ضيق أو منظمين بشكل محكم بما يكفى كى يذعنوا للإكراه كرجال الدين المسيحى أو أعضاء نقابة مهنية ، وفى معظم الأحوال تركت الحكومة فى هذه الفترة مسائل الإجماع بشأن القانون الخاص والتجارى للعلماء ، وقد رد العلماء الجميل فى معظم الأحوال بتجنب أى إجماع إيجابى حول المسائل العملية المتعلقة بالقانون العام .

وكان العلم هو الصفة التى يُعرف بها العلماء الذين أُشتق اسمهم من هذا الجذر . وكما عبر ماكدونالد عن ذلك بقوله : " كان العلم فى المقام الأول هو العلم بالحديث وماتج عن ذلك من أحكام فقهية وعلم الدين " ، وكانت الأحاديث المتعلقة بأقوال وأفعال النبى المقوم الرئيسى للعلم فى الفترة التى ندرسها بشكل أكثر وضوحاً عما كانت عليه فى الفترات اللاحقة ، وقد شمل النقل الشفهي للأحاديث فى الفترة التى نتناولها أعداداً هائلة من الناس الذين كان مقدراً لهم أن يُعدوا من العلماء إلى هذا الحد ، وقد كرس بعض هؤلاء الناس جزءاً كبيراً من وقتهم لدراسة الحديث والعلوم الدينية الأخرى ، وكرس آخرون جزءاً أقل من وقتهم لذلك وربما اعتبروا من العلماء لبعض الأغراض دون غيرها ، أو تم قبولهم من قبل بعض رفاقهم دون غيرهم على أنهم علماء ، وعندما ظهرت المدارس التى كان يرعاها السلاجقة لتعليم العلوم الإسلامية فى غرب إيران والعراق فقد أعطت مثل هذه المؤسسات مظهراً من المهنية للعلماء الذين قاموا بالتعليم أو الدراسة فيها ، ولكن نظرة عجل على معاجم السير حتى فى العهد السلجوقى سوف توضح لنا كيف أن أعداداً كبيرة من الناس من خارج نظام المدرسة كانوا يعملون من العلماء .

ورغم كل هذا الغموض الذى عرفت به طبقتهم كان العلماء يشكلون طبقة ذات هوية تتسم بالوعى الذاتى ، وقد أوجدت صفتهم الرئيسية ممثلة فى علمهم بالحديث رابطة هامة بينهم ؛ فالطالب الذى كان له ارتباط طويل ووثيق بمعلم كان من شأنه أن يتمتع بنوع من العلاقة التى تربط بين المتدرب والمصطنع التى ذكرناها فى الفصل

السابق ، ورغم ذلك فقد استمد العلماء هويتهم من الاتصالات العرضية بصورة أكبر ؛ ذلك أن الرجال الذين كانوا مهتمين حقا بالحديث حاولوا سماع الحديث من أكبر عدد ممكن من ناقلى الحديث المؤهلين حتى وإن كان اتصالهم مع هؤلاء الناقلين قصير ورسمى ، وقد أوجد الحديث شعورا عميقا بالتواصل مع جميع الأجيال السابقة من المسلمين الذين جعلوا من الفهم الأعظم لمضامين الإسلام شاغلا رئيسيا لحياتهم ، وذلك منذ زمن صحابة الرسول .

وكتب الرامهورموزى وهو عالم أهوازى من علماء الحديث من العهد البويهى يقول : " إن الحديث ذكر لا يحبه إلا الذاكرين وسلسلة النسب المعروفة فى أى مكان ، ويكفى المحدث شرفا أن يقترب اسمه باسم النبى ويذكر كلما ذكر هو (أى النبى) وآله وصحابته ؛ ولهذا السبب فعندما قال شخص ما لأحد الأشراف ( نراك ترغب فى رواية الحديث فقال له : إن ما أريده فى المقام الأول هو أن يقترب اسمى باسم النبى فى سطر واحد ) " ، فمن أفضل صحبة يمكن أن يرغب فيها المرء من جماعة تضم على بن الحسين بن على ونسله الذين اتبعوه وآل النبى و أبناء المهاجرين والأنصار وكذلك الجيل الذى خلفهم فى التقوى والزهاد والفقهاء وأصحاب الشرف والفضيلة والمنزلة والشأن ؟ " (٤٣) .

ومما لاشك فيه أن المال الذى كان يدفعه الطلاب للعلماء الذين كانوا يعلمونهم الحديث قد عمل على تقوية الروابط التى أوجدها الحديث ، ونقرأ فى ملاحظة سيرية نموذجية لعالم نيسابورى توفى فى عام ٣٦٢ هـ أنه أثناء مقامه فى بغداد أنفق أكثر من عشرين ألف درهم على علماء الحديث . ومن الناحية النظرية لم يكن دفع هذه المبالغ من المال تلقى قبولا لكن مبالغ كبيرة من المال انتقلت إلى معلمى الحديث بطريقة ما أو بأخرى ، وغالبا ما كان الشباب الأثرياء يصفون على جولاتهم الكبرى فى أنحاء العالم الإسلامى أوجههم إلى مكة جلالة ومهابة بصورة أكبر بدراسة الحديث فى طريقهم ، ويبدو أن مثل هؤلاء قد أخبروا معاصريهم بمقدار ما أنفقوه من مال على العلماء الذين قابلوهم ، وذلك أن مصادرنا غالبا ما تشير إلى السجلات الخاصة بهذه المبالغ من المال بإعجاب .

ومع ذلك فقد عملت الهيبة والحس الأسريين اللذان ذكرهما الرامهورموزى على دعم وإبقاء رابطة الحديث على نحو يفوق السخاء العرضى من جانب المسافرين .

وعندما كان يظهر شخص ما يمكنه رواية الحديث بإسناد قصير على غير العادة من ناقل الحديث عن النبي أو بإسناد موثوق به على غير العادة من ناقل الحديث كانت أعدادا هائلة من الناس ترغب في القول بأنها درست معه الحديث ؛ وعلى سبيل المثال فعندما حضر أبو بكر جعفر بن محمد الفيريابي إلى بغداد قادما من خراسان استقبلته جموع غفيرة من الناس على نهر دجلة على ظهور المراكب أتوا للترحيب به وإكرام وفادته ، وإذا كان من الصعب تصديق ما نقلته إلينا الكثير من المصادر عن أن ثلاثين ألفا من الناس كانوا يحضرون المجالس التي كان يقوم فيها بإملاء الحديث فما زال من المعقول أنه كان لديه ثلاثمائة وستين مرددا ( مستمليا ) كانوا يقومون بنقل كلامه إلى أجزاء هنا وهناك من حشد الحضور الذين لم يكن يصلهم صوته ، ومع ذلك فمن المحتمل أن كثيرا من هؤلاء الذين كانوا يحضرون مجالسه كانوا يحضرون إليها حتى يتسنى لهم أن يعدوا الفيريابي واحداً من بين معلميه فحسب ، ويخبرنا أبو عبد الله بن بطة " أننا اعتدنا حضور مجلس أبي بكر النيسابوري (الفيريابي) الذي كان يحضره ثلاثين ألفا من الناس ومع كل واحد منهم دواته ، واستمر انعقاد المجلس على هذا النحو زمنا قصيرا ، وبعده كنا نحضر مجلس أبي بكر النجار الذي كان يدون فيه عشرة آلاف من الناس ، وقد ذهّل الناس لذلك ( التحول ) وقالوا : "لقد اختلف الثلثان في هذا الفاصل الزمني " (٤٤).

ونظراً لأن العلم الذي ميز العلماء كان متاحاً على نطاق واسع للغاية وموضع احترام عظيم للغاية ؛ لم يكن من الممكن أن يأتى إلا ببطء ذات ملامح محددة على نحو غامض وذات شكل باهت مطابق للرئاسة ، وشكل العلم رابطة حقيقية بين من اتبعوا طريقه ، لكنها كانت رابطة امتدت عبر حلقات وصل رقيقة أكثر فأكثر إلى القسم الأقل تعلما من المجتمع الإسلامي بدلاً من أن تحدد ملامح أية جماعة بشكل واضح ، ومما لاشك فيه أن نسبة كبيرة من كل أولئك الذين يقدرون بالألوف ممن كانوا يحضرون مجالس الفيريابي والنجار قد اعتبروا أنفسهم من العلماء ، وأغلب الظن أن الرجال الأكثر تعلما في تلك الفترة كان من شأنهم رفض الاعتراف بكون غالبية من كانوا يحضرون المجالس من العلماء ، واتخذ كثير من الناس مكانا ما وسطا بين من هم أكثر تعلما ومن هم بمنزلة الهواة ، وغالبا ما نصادف " أنصاف المحترفين " هؤلاء على صفحات معاجم سير العلماء في العهد الذي نحن بصددده ، وتجدر الإشارة هنا

إلى أنه عند إلقاء نظرة عامة على علماء نفس العهد فسوف نلاحظ اختلافاً كبيراً بين المعاجم التي قام بكتابتها عدة مؤلفين حول من ضمتهم من "أنصاف المحترفين" بين طياتها .

ولذا فالعلماء يشكلون واحدة من أهم الطبقات وإن كانت أقلها تقييداً للتعريف الذاتي في المجتمع الإسلامي في العهد البويهي ، وتتجلى طبيعتها غير المقيدة في عدد من الطبقات الأخرى التي تداخلت معها ، ولم يحدث أبداً - تقريباً - أن أصبح الكتبة جنداً أو العكس .

ولم يحدث أبداً تقريباً - أن أصبح التجار جنداً لكنهم كانوا يصبحون كتبة من حين لآخر فحسب ، وحدث أن أصبح الجند والكتبة والتجار وأفراد أية طبقة أخرى تقريباً نعرفها علماء ، ومن بين كل هذه الجماعات لم يقترب سوى الكتبة من أن تكون لهم هوية لم يكن من الممكن أن تتداخل مع هوية العلماء .

وفي القرون الثلاثة الأولى من التاريخ الإسلامي لم يكن عدداً كبيراً جداً من الكتبة من المسلمين ؛ واستمر إعجاب أولئك الذين اعتنقوا الإسلام بنماذج ثقافة الكتبة في فترة ما قبل الإسلام و التي تم الحفاظ عليها بين أوساط الكتبة ، ونظراً لأن الكثيرين من الكتبة قد انتقلوا مباشرة من خدمة الإمبراطوريات ما قبل الإسلامية في الشرق الأدنى إلى خدمة الدولة الإسلامية الجديدة فمن الطبيعي أن تحتفظ أدايبهم بروح الخدمة الإمبراطورية دون مرجعية قوية للدوافع والأغراض الإسلامية ، وكان هذا الافتقار الواضح للمرجعية الإسلامية في عملهم أمراً مشيناً لأولئك الذين درسوا القرآن والحديث ؛ أي لأولئك الذين اعتبروا أنفسهم علماء ، وهكذا فعلى مدى القرون الثلاثة الأولى من التاريخ الإسلامي كانت لدى الكتبة والعلماء توجهات ثقافية متباينة وعدائية - إلى حد ما - .

وعلى الرغم من أن هذا التباين كان لا يزال ملحوظاً بحلول القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي فقد كان قد أصبح أقل حدة بكثير؛ وعلى سبيل المثال فقد كان أحمد بن علي المزروعى من أسرة معروفة من الكتبة وقام هو نفسه بالإشراف على الخراج (ضريبة الأرض) في مصر لسنوات ، تخبرنا المصادر بأنه كان "مذهلاً" في كتابة الحديث ، ولكي يضيف مزيداً من الوقار والهيبة على المجالس التي كان يملأ

فيها الحديث كان الوزير العظيم ابن عباد يلحق مستمليا أو مرددا بكل جماعة مؤلفة من ستة أشخاص كانوا يحضرون مجالسه ، وعلى الرغم من أنه كان من أسرة اشتهرت بولعها بالأدب الدنيوية فقد كان جعفر بن الفضل بن الفرات (المتوفى عام ٣٩١ هـ/١٠٠١) (الذي يطلق عليه غالباً بن هذابة) يملئ الحديث في مصر حيث انتقل من العراق وهو شاب ، وكان بارزاً في دراسة الحديث حتى أن الدارقطني - وهو واحد من أعظم علماء الحديث - ذهب إلى مصر وأقام معه واستشهد بالأحاديث التي تعلمها من ابن هذابة في أعماله (٤٥) .

حتى الملوك و ضباط الجيش يبدون كطلبة جادين للحديث فقد كان خلف بن أحمد المنحدر من نسل الصفاريين - الذين حكموا سيستان زمن عضد الدولة - يذهب إلى المسجد في عاصمته ويقوم بإملاء الحديث أيام الجمع ، وقام أبو القاسم علي بن محمد بن سيمجور القائد الساماني الذي قاد حملات ضد البويهيين ، وفي إحدى المرات انضم إلى البويهيين بكتابة كتاب عن أفعال وزوجات وأعمال الرسول ، وعرف هذا الكتاب بين أوساط الأجيال اللاحقة من العلماء ، وقام محمد نائب الحاجب للخليفة المقتدر والذي كان والده قائد الغلمان بجمع وتدوين الحديث ، وكان عديد من الحكام العسكريين في أواخر العهد العباسي طلبة جادين للحديث ، وعلى سبيل المثال فقد كان المسمعي (المتوفى عام ٥٠٣ هـ) والذي كان حاكماً لفارس عالماً (أو بيساطة "متعلماً" - ليس هناك فرق) و "دون الحديث" ، وبالمثل قام بدر (المتوفى عام ٣١١ هـ) مولى المعتضد والذي كان حاكماً لفارس أيضاً بإملاء الحديث (٤٦) .

وكما كان حال الكتبة فمن المرجح أن ارتباط هؤلاء الجند بالحكومات الآثمة ومن ثم "الغاصية" قد أدى إلى جعل الكثير من فقهاء الحديث والمفكرين في أنحاء المجتمع المعاصر يعتبرون مثل هؤلاء الجند على أنهم رجال متساوون أخلاقياً ، وعلاوة على ذلك فمما لا شك فيه أنه كان بإمكان ضابط كبير أن يجمع جمهور كى يستمع إليه يملئ حول أى موضوع إذا ما استل سيفه من غمده ، ورغم ذلك لم يكن القادة والوزراء متساوين هكذا أخلاقياً إلى درجة أن ما كان يروى من أحاديث استناداً إليهم كان يقابل بالرفض تلقائياً .

ولذا فعندما أبدوا اهتماماً جاداً بالحديث تم ضمهم إلى قوائم علماء الحديث ؛ وقد تظهر أسمائهم في إسناد لاحق أو سلسلة من ناقلتي الحديث ، وإذا كان قد تم قبولهم

كعلماء من قبل بعض (أو ربما معظم) العلماء المعاصرين فمن الصعب أن نرى سبباً لرفضنا إياهم على نحو ذلك .

وبقدر ما كان الرجال المنشغلين بشكل جدى بدراسة الحديث يتمتعون بهوية عامة مشتركة أنتجوا رئاسة فى مجتمعهم الإقليمى كى تمثل هذه الهوية ، وعلى سبيل المثال فقد أصبح الحسين ابن الحسن أبو عبد الله الحليمى الذى ولد فى جرجان وتوفى كقاض فى بخارى فى عام ٣٠٤ هـ رئيساً للمحدثين فى تلك المدينة ، وكانت مثل هذه الرئاسة فى الأمور المتعلقة بالحديث تنطوى على علم عظيم وأحياناً تقوى عظيمة ، كان العلماء الآخرون يجالانها ويذعنون لهما طواعية ، كما أن ذلك كان يدل ضمناً على أن المرء قد عاش طويلاً بما يكفى لأن يكون واحداً من بين العلماء القلائل الذين لا يزالون قادرين على نقل الحديث من أفضل مراجعه من جيل سابق دون وسطاء ، وكان " العلو ( الامتداد التاريخى للمرء ) فى سلسلة المحدثين " ( علو السند ) صفة كان كل طالب حديث جاد يرجو أن يكتسبها ؛ ولذا فالرجل المسن الذى كان يسمع الحديث فى شبابه من جيل فنى منذ زمن طويل كان يكتسب هذا " العلو " الذى كان يمكنه من التفوق على الجيل الأحدث سناً فى الوصول إلى المحدثين السابقين والأخذ عنهم ، وعلى سبيل المثال يخبرنا ابن تغربردى - وهو يكتب بعد قرون من رحيل الرجل الذى يصفه - إن على بن إبراهيم أبو الحسن القزوينى القطان (المتوفى عام ٥٤٣ هـ) قد كثرت أسفاره واتسع نطاق رحلاته طلباً للعلم وسمع من كبار ثقات عصره ، و" انتهت إليه رئاسة العلم وعلو السند فى هذه الأقاليم " .

ويشيع استخدام عبارة "انتهت إليه الرئاسة" للرؤساء بين العلماء ، وهى تعنى حرفياً أنه قد عمر أكثر من أرجح المنافسين له على الرئاسة ؛ ولذا آلت إليه الرئاسة إذا استطعنا أن نصدق - كما يقول ابن تغربردى - أن القزوينى ولد فى عام ٢٥٤ هـ فلا بد أن امتداد حياته لـ ٩١ سنة قمرية قد جعلت منه الرجل الأوحى فى إقليمه الذى يمكنه نقل العلم بالسند المباشر لمعلميه البارزين (٤٧) .

وتصف المصادر نفس النوع من الرئاسة فى فروع أكثر تخصصاً بين العلماء مثل الفقه و علم الدين ، وفى الوقت الذى قام فيه جميع العلماء بدراسة القرآن والحديث فإن بعضهم فقط تابع طريقه واتجه إلى الدراسة المتخصصة فى مذهب ما أو فى آخر من مذاهب الفقه أو علم الدين ، وأتت هذه الجماعات الأصغر حجماً بين العلماء

برئاستها الخاصة ، وكانت هذه الرئاسة تقوم أيضا بشكل كبير على القدرة الفريدة للرؤساء على نقل نص موثوق للأعمال الكلاسيكية المعترف بها في كل مذهب الفقه وعلم الدين ، واعتبر نظام التعلم الإسلامي أن الطالب يكون قد درس مثل هذا النص حقا في نسخته الموثوقة فقط إذا كان قد درسه مع رجل كانت لديه إجازة "رخصة" لتعليم النص من المؤلف أو من سلسلة المحدثين التي تنتهي إلى المؤلف و التي يكون كل عضو من أعضائها قد حصل على "رخصة" .

و يعد أحمد ابن عمر بن سريج مثالا لهذا النوع من الرئاسة حيث يقول عنه ابن الجوزي إنه "انتهت إليه رئاسة أصحاب الشافعي (أي أعضاء ذلك المذهب الفقهي في بغداد ) ، و يتضح معنى هذه العبارة في الملاحظة الخاصة بوفاة ابن سريج لـ "أريب" المؤلف السابق بزمان بعيد و الذي كان معاصرا لـ "ابن سريج" ؛ فقد كتب يقول أن ابن سريج كان "أعلم من بقى بمذهب الشافعي" . و الحقيقة أن ابن سريج كان واسع العلم والمعرفة حتى أن البعض أطلق عليه "مجدد" الإسلام فيقرنه ، ومع ذلك يبدو أن رئاسته كانت ترجع لطول حياته بقدر ما كانت ترجع لعلمه، و نقرأ عن مثل هذه الرئاسة طوال العهد البويهي ، و على سبيل المثال فقد واصل أحمد بن علي أبو بكر الرازي (المتوفى عام ٣٧٠ هـ) (تدريس الفقه الحنفي) حتى انتهت إليه الرئاسة (في هذا الفرع في بغداد) (٤٨)

و يمكن أن يكون لهذا النوع من الرؤساء سلطة معتدلة للغاية فقط على أتباعه و ذلك على أحسن تقدير ، و من الممكن استخدام مثل هذا الرئيس كمتحدث باسم جماعته إذا أرادت الحكومة مخاطبتها أو عندما ترغب جماعته في مخاطبة الحكومة لكنه من غير المحتمل أن يكون بإمكانه عرض تقديم دعم جماعته في أي أمر يتعلق بالسياسة العامة ، و يمكن لمثل هؤلاء الرؤساء ادعاء حق التقدم على الغير بدلاً من السلطة أو القوة القسرية. وغالبا ما يُطلق على مثل هذا الرئيس ( مثل أبو بكر الرازي الحنفي المشار إليه بعاليه ) " إمام عصره " للعلماء الذين ينتمون إلى تلك الطبقة . ولكي تكون إماما فهذا يعني - كما توضح المناقشات القضائية لهذا المصطلح - أن تكون "الأفضل" أو "الأجدر" أي أن تكون لك رئاسة عن جدارة واستحقاق ، ومن بين أمثال هؤلاء العلماء محمد بن موسى أبو بكر الخوارزمي ( المتوفى عام ٤٠٣ هـ ) حيث تخبرنا المصادر أنه " آلت إليه الرئاسة " للحنفيين في عصره و " أصبح إماما لأتباع

أبى حنيفة " وكان " الملوك يُجلونه " . والأرجح أن نفوذه العملى فى تشكيل العالم فى عصره كان يرجع إلى هذا الإجلال الذى جعل الناس يحترمون شفاعته ويولون فتواه من الاهتمام ما يفوق اهتمامهم بفتاوى غيره من الفقهاء الشرعيين فى مذهبه الفقهى . ويصف ابن الجوزى أحد التعبيرات عن الإجلال لمثل هذا الرئيس عندما يخبرنا أنه فى أى محضر شرعى زمن الأبهري ( المتوفى عام ٣٧٥ هـ ) والذى آلت إليه الرئاسة " بين المالكيين فى بغداد فى عصره كان الأبهري المقدم فيه (٤٩) .

وقد خلط العلماء المحدثون بين هذا النوع من الرئاسة و"الرئاسة فى التقوى والرئاسة فى الطوائف المحلية المعروفة دينياً " ذاتا الصلة . وكان هناك تشابه بدرجة معينة بين " الرئاسة فى التقوى " ورئاسة العلماء ؛ نظرا لما كان يوليه كل منهما من تقدير عام للتقوى المعترف بها وكذلك التداعيات الأخلاقية للمعرفة الدينية ، وكما يخبرنا ابن قتيبة ولفيف من المؤلفين الآخرين أن الحسب الوحيد الباقي هو التقوى وتعنى حرفياً " خشية الله " .... وقد أبدى كثيرون ممن آمنوا حقا بهذا المبدأ أو أيوه كلاميا على الأقل احتراماً للرجال الذين عاشوا حياة نموذجية زاهدة ، وكان الملوك يقبلون أحيانا شفاعته مثل هؤلاء الرجال ؛ ولم يكن قبولهم لشفاعتهم بسبب إعجابهم بأولئك الرجال نوى التقوى البارزة فحسب ولكن لأن مثل أولئك الرجال كانت لهم جماعة معينة من الأتباع أيضا .

ومع ذلك فحتى مجئ الأخويات الصوفية بدت مثل هذه الجماعات من الأتباع على أنها أكثر تحديدا بصورة مطلقة من طبقة العلماء كجماعة ، فإذا توقفت عن الإعجاب برجل ما صالح فمن المرجح أنك لم تشعر أنك كنت تترك جماعة ما من المعجبين .

وعندما يخبرنا سبط بن الجوزى - وهو أحد المؤلفين المتأخرين - أن يوسف بن الحسين الرازى ( المتوفى سنة ٣٠٤ هـ ) كان " شيخ الرى والجيبال فى عصره " ، فهو يردد تقدير اثنين من المؤلفين الصوفيين من القرن الرابع هـ وهما السلامى والقشيري ، فقد تحدث هذان المؤلفان السابقان نفساهما بصورة أكبر عن " صدق " يوسف أكثر مما تحدثا عن علمه ، وفى هذه الحالة نحن نعلم أن ما عُرف عن يوسف كان قاصراً على رفاقه من الزهاد ؛ ذلك أن سبط يخبرنا بأن أحد المسافرين إلى الرى ممن طلبوا مقابلته قال له جميع من قابلهم " مالك أنت وذلك الزنديق ؟ " .

ويبدو أن المذهب الصوفي الذي كان يمارس على نحو فردي كان أخذاً في الانتشار في غرب إيران في العهد البويهى ، وعندما نقرأ أن إبراهيم بن شيبان أبو إسحق القرميسين ( المتوفى عام ٣٤٨ هـ ) كان شيخ الصوفية في جيبال فمن الإنصاف تخمين أنه كان ذا مكانة أكثر إجلالاً ووقاراً من مكانة يوسف الرازى ، وكانت الأخويات الصوفية التى أصبحت ذات شأن فى نهاية العهد البويهى فقط منظمات معروفة جيداً وذات تعريفات واضحة للعضوية وأحياناً الدخول الرسمى فيها . ولذا كانت مثل هذه الأخويات ملائمة تماماً للرئاسة الأكثر قوة وغالباً ما كان رؤساء هذه الأخويات رؤساء ذوى سلطة كبيرة ، ورغم ذلك كان المذهب الصوفى شكلاً خاصاً من أشكال التقوى . وبقيت التقوى المعروفة مطلقاً بصورة أكبر والتى ارتبطت غالباً بالزهد وأعمال العبادة النافلة كمثال أعلى فى المجتمع الإسلامى ، وكان " رؤساؤها " ذوى نفوذ محدود، وكان بعض رؤساء العلماء من كبار الصوفية (على الرغم من أنه غالباً ما كان هناك عداً بين الرجال ذوى العلم المكتسب وذوى المنزلة الروحية المكتسبة) . وكان كثير من كبار العلماء معترف بهم على أنهم رؤساء فى التقوى ، وذلك على نطاق واسع على الرغم من أن رؤساء العلماء الذين لم يكونوا زاهدين تحديداً كانوا معروفين أيضاً ، وكان بعض الرؤساء بين العلماء يلقى احتراماً كرؤساء من جانب الطبقات الثلاث جميعها: الطبقات التى حددها العلم الدينى ، والمذهب الصوفى ، والتقوى غير الصوفية ، وغالباً ما تتداخل هذه الطبقات لكنها مميزة فى تعريفها الأصلى ، واستمرت فى تقديم رؤساء متميزين فى مناسبات كثيرة (٥٠) .

كما شجعت التداعيات الأخلاقية للعلم الدينى أيضاً على الربط بين " الرئاسة فى التقوى " والرئاسة بين العلماء ، ويُقال للناس فى كثير من النظم الدينية إن الفهم " الصحيح " سوف يترجم نفسه إلى أفعال . وعلى هذا الأساس يكون الناس على استعداد أحياناً للتشكك فيما إذا كان الرجال " الأشرار " الذين يدرسون نظاماً دينياً مقنعة أخلاقياً يستطيعون حقاً فهم ما يدرسونه بشكل صحيح ، ورغم ذلك فإن ما وراء هذا فى النظام التعليمى الإسلامى الذى قمنا بوصفه كان ضمان " صحة " العلم الدينى ( والحديث على الوجه الأخص ) شخصياً من قبل من قاموا بنقل هذا العلم ؛ ولذا فإن كان المحدث كذاباً معروفاً كانت صحة ما حدث به موضع شك ؛ ولذا نجد فى الكتيبات التى تتناول الحديث مناقشة معقدة بشأن درجة الاستقامة والأمانة اللازمة لجعل المحدث " مقبولاً " .

وهناك سبب آخر أيضا للربط بين التقوى والعلماء وكلمة علماء استخدمت مرتان في القرآن مرة للإشارة إلى علماء بنى إسرائيل ، ومرة أخرى في العبارة الشهيرة إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (سورة فاطر آية ٢٨) وكثيراً ما يشار إلى هذه العبارة ، وعلى سبيل المثال ففي براءة لتقليد أحد العلماء منصب القاضي في جيلان عام ٣٩٠ هـ كتب الخليفة " إن خشية الله هي مزية العلماء " ولكافة هذه الأسباب مجتمعة يكون من المرجح أن رؤساء العلماء كانوا يأملون في أن يعدوا رؤساء في التقوى ، ورغم ذلك كان هناك دائماً رؤساء للعلماء لم يكونوا أتقياء على نحو بارز نظراً لأنه كما ذكرنا لم يكن هناك تطابق بين طبقة أهل التقوى وطبقة العلماء (٥١) .

ومن السهل أيضاً الخلط بين الرئاسة بين العلماء ورئاسة طائفة محلية ؛ نظراً لأن كثيراً - وإن كانت جميعها على الإطلاق - من طوائف الحياة السياسية المحلية سميت بأسماء المذاهب الفقهية أو حتى مذاهب علم الدين ، وسوف نتناول ولاء الطائفة المحلية فيما يلي ، وغالباً ما بلغ أفراد العلماء الرئاسة في طائفة ومن الضروري التمييز بين " رئيس العلماء " و" رئيس الطائفة الذي كان عالماً أيضاً " وتخبرنا المصادر أنه قلما تجتمع هاتان الرئاسة في نفس الشخص وبذلك فهي تشير إلى أن المعاصرين لم يأخذوا على عاتقهم مثل هذا الجمع بين الوظائف تلقائياً ؛ وعلى سبيل المثال يخبرنا الذهبي أن القاضي يوسف بن أحمد ابن كاج وهو فقيه عظيم بالمذهب الشافعي قد جمع بين الرئاسة في الفقه وشئون الدنيا وقتل على أيدي العيارين في الدينوار عام ٤٠٥ هـ ، ويفسر ما أورده سبط بن الجوزي عن ابن كاج هذه الرئاسة الدنيوية . فقد كانت هناك طائفتين في الدينوار وهما : " القصابون " و" أبوخلدية " ، وقد مال ابن كاج إلى أبي خلدية وانحاز إليها . ولا بد أن منصبه كقاضى وارتباطه بطائفة وعلاقته الوثيقة بأفراد البلاط البويهى والحسناويه قد شكلت جميعها رئاسته الدنيوية وجعلت منه هدفاً يستحق غضب " القصابين " ، وربما يكون البلاط وطائفته الخاصة قد اعتقدا أنه رئيس أكثر قيمة وأهمية لكونه واحداً من كبار علماء الفقه الشافعي ، ورغم ذلك فقد كان متوقفاً له أن يكون أحد كبار العلماء حتى وإن كان قد رفض هذه الراويط الدنيوية (٥٢) .

## رئاسة مدينة أو إقليم

فى موضع ما بين السلطة السيادية لرئيس حكومة مستقلة والاحترام المبهم المستحق لرئيس علماء الحديث تقع الرئاسة التى تمارسها إحدى الشخصيات التى نقابلها فى مصادرها على النحو الأكثر شيوعاً : رئيس ( الجمع رؤساء ) قرية أو مدينة إقليم - وتتحدث المصادر أحياناً كما لو كانت القرى والمدن لم يكن لها رؤساء عادة ، ولكنه يبدو من المحتمل أنه عندما تشير مصادرها إلى أن القرية أو المدينة لم يكن لها رئيس فهى تعنى بذلك أن رئيس القرية أو المدينة كان ضعيفاً ، وفى وصف لسوء إدارة ابن باقية وزير ملك العراق البويهى يخبرنا ميسكاويه أنه فى زمن هذا الوزير كان يظهر فى كل قرية رئيس من نفس المكان يأخذ بزمام الأمر فيها وكانوا ( أى الرؤساء ) يتنازعون مع بعضهم البعض " ورغم ذلك فلدنا إشارات إلى رؤساء ضواحي بغداد وإلى رؤساء القرى فى العراق حتى قبل زمن ابن باقية ، وينطبق نفس الشيء على الأجزاء المجاورة من الشرق الأدنى ، ويرى لنا التتوخى على سبيل المثال قصة عن رئيس بلدة إدهاج وهى بلدة ذات أهمية نسبية فى خوزستان فى زمن المتوكل ( المتوفى عام ١٤٧ هـ / ٨٦٣ ) ، ومن المفترض أن ميسكاويه يصف ظهور رؤساء القرى للتأكيد على أن الرئاسة التى يمكن أن تتصادم مع الحكومة وتؤدى إلى إثارة المنازعات بين القرى ضد إدارة الحكومة قد ظهرت تحت إدارة ابن باقية عندما - كما يزعم - زالت " هيئة السلطة " (٥٣) .

والحقيقة أنه من المرجح أنه كانت هناك اختلافات إقليمية كبيرة فى أهمية الرئاسة للقرى والمدن ، ونادراً ما يُشار إلى رئاسة المدن التى كانت مقراً للملك : شيراز ، بغداد ، الرى .. إلخ ، على الرغم من أنه كان هناك رؤساء جوار فى بغداد ، وبقدر ما كانت رئاسة المدينة تمثل تنظيم مفروض ذاتياً فقد كانت لدى المدن التى كانت مقاراً للحكم حاجة أقل لمثل هذا التنظيم . ومن المرجح أيضاً أن فرصتها كانت أقل لتشكيل مثل هذا التنظيم لأنفسها ، ورغم ذلك كان للقرى القريبة تماماً من الحكومات القوية رؤساءها ؛ وعلى سبيل المثال ففي عام ٣٨٨ هـ ، ٩٩٨ م كان لقرية الدودامان التى كانت تبعد مسافة محطتين فقط من شيراز رئيساً كانت له سلطة كافية لإلقاء القبض على الملك الهارب سمس الدولة وتسليمه لمطارديه أبناء عز الدولة ، وأوضح بهاء الدولة شقيق سمس الدولة أنه قد اعتبر جميع أهل القرية مسئولين عن فعلة رئيسهم ؛ ولذا

فعندما استولى على فارس فى العام التالى أمر بحرق القرية وقتل جميع أهلها ، وإذا كان بمقدور قرى الوادى الجبلى لفارس إنتاج رئاسة بهذه الأهمية فقد أنتج السهل الخصب لإقليم مدينة جرجان بشكل طبيعى تماماً أسر حاكمة للرؤساء التى تكررت الإشارة إلى أهميتها فى مصادرتنا ، وغالباً ما كان حكم جرجان ينتقل من حاكم لآخر فى هذه الفترة حتى أننا لنجد ثلاثة حكام مختلفين فى عام واحد ، ومن المحتمل أن رئيساً بالوراثة قد أتاح الاستمرارية فى الحكم التى كان أهل سهل جرجان و حكامهم يرغبون فيها (٥٤) .

ويمكن الحصول على فكرة ما عن الوظيفة العملية للرئيس من قصة أوردها التنوخى ، فى النصف الأول من القرن الثالث هـ / التاسع م توجهت جماعة من ملاك الأراضى من خوزستان فى جنوب غرب إيران إلى بغداد لمناقشة الحكومة بشأن ضرائبهم ، وفى الحكاية أنهم يقومون باستدعاء رئيس البلد ( من المفترض أنه رئيس إقليم مدينة الأهواز ) " فهو المتكلم عنا " ، ومن المؤكد أنه كان جديراً بهذا الوصف . وفى البداية رفض الخليفة طلب ملاك الأراضى - رفضاً باتاً - وبعدها توجه الرئيس للقاء العامل السابق على بيت المال الذى كان مسئولاً عن الإقليم مؤخراً ، وعلم هذا المسئول أن العامل الحالى كان يلقي بمطالب ظالمة على عاتق ملاك الأراضى لكنه رفض أن يشهد نيابة عنهم ، وقال الرئيس للعامل السابق إنه إذا عاد فريق ملاك الأراضى من العاصمة صفر اليمين فإن هذا سوف يعنى " ضياع جاهنا وسعى عمال بيت المال وراء ثروتنا ، وأنت تعلم مقدار ثروتك وعدد ممتلكاتك لدينا " ، وبعد ذلك أقسم الرئيس بزواجه من زوجته و "بأيمان البيعة " أنه إذا لم يشهد العامل السابق نيابة عن ملاك الأراضى فسوف يقوم - أى الرئيس - بإطلاع الخليفة على اختلاسات العامل السابق ، وكيف قام العامل السابق أثناء توليه منصبه بالترتيب لتقدير الضريبة المستحقة على أملاكه الخاصة على أساس تقديرات منخفضة لقيمتها على نحو زائف ، وقال الرئيس " إننى سوف أجنى الكثير عن طريق مثل هذه الفضائح ؛ ذلك أن الوزراء والمسؤولين المهمين سوف يعرفون أننى كنت السبب فى خزيك " ؛ وهكذا شهد العامل السابق لبيت المال نيابة عن الرئيس عند المناقشة الرسمية للقضية فى حضور الخليفة ونجح ملاك الأراضى فى التسبب فى عزل العامل الحالى من منصبه وتم قبول معظم مطالبهم (٥٥) .

ومن الواضح فى هذه القصة وقصص مشابهة - حيث تصدر التهديدات الفعالة بالفضيحة - أنه سوف يكون من المحتمل لمثل هذه التهديدات أن يكون لها أثر إذا صدرت عن جماعة - وكان من الملائم أن تتوجه جماعة من ملاك الأراضى ذوى الشأن إلى بغداد معاً للدفاع عن قضيتهم ، وقد أكسب عددهم قضيتهم هيبة وجلالاً وجعل من الواضح أن مسألة تتعلق بالسياسة ، وليست مجرد كراهية شخصية كانت موضعاً للنقاش والبحث ، ومع ذلك فعندما تعين استخدام الضغط مع العامل السابق تم استخدامه على النحو الأمثل من جانب شخص واحد وفى التفاوض خصماً لخصم أمكن للعامل السابق أن يقيس مدى جدية خصمه - وهو ما كشف عنه القسم الفردى لخصمه بشكل صحيح وأمكنه الوصول إلى نوع ما من التعهد الذى شعر هو وخصمه أنه ملزم لهما ، وعلاوة على ذلك فقد كان بإمكانه أن يشعر ببعض الثقة من أن المعلومات الضارة التى هدد خصمه بكشف النقاب عنها لم يكن من المحتمل لها أن تتسرب نظراً لأن التهديد صدر عن شخص واحد فقط ؛ ولذا فقد كان رئيس هؤلاء الرجال الكبار المرشح المنطقي لعرض مطلبهم .

كما تكشف القصة أيضاً الكثير عن وضع الأعيان كوسطاء بين سلطة الحكومة المركزية وأنصارهم المحليين ، وكان متوقعاً للأعيان أن يفقدوا الهيبة فى مجتمعهم المحلى وأن يكونوا أقل قدرة على الدفاع عن أنفسهم ضد المسئولين فى أقليمهم إذا ما كان قد تم ردهم إلى بلدهم صفر اليدين ، وقد قال الرئيس هذا للعامل السابق لبيت المال كى يوضح له أنهم فى أمس الحاجة إلى الحصول على بعض التنازل ، وقد أصبح العامل السابق شريكاً فى المصالح المالية للإقليم ، ولا بد أنه كان من الشائع بالنسبة لعمال بيت المال أن يحصلوا على أملاك فى الأقاليم التى كانوا يشرفون عليها ، وكانت هوية المرء ككاتب أقوى من هويته كمالك أرض ؛ ولذا فعلى الرغم من وجود الكثير من الكتبة ذوى الأملاك الواسعة إلا أن هؤلاء الكتبة أصحاب الأراضى يظهرون لنا فى المصادر على أنهم كتبة أكثر من كونهم ملاك أراضى ، ومع ذلك فكما رأينا فقد كان بإمكان ملاك الأراضى القادرين على نحو غير عادى - مثل السوسى - الانتقال إلى الإدارة المركزية حتى وإن كانوا يفتقرون إلى التدريب التقليدى للكتبة ، وفى النهاية هدد الرئيس بالوقوف إلى جانب خصوم العامل السابق ونيل الحظوة لديهم عن طريق فضح أمر هذا المسئول ، ولنع مثل هذه الفضائح أو التحديات كان من صالح الكتبة أن يكونوا على وفاق مع الأعيان .

ونحن نعلم أن الحكومة قامت بتعيين الرئيس فى بعض المدن فى العهد السلجوقى وكانت "وساطة" الرئيس معترف بها رسمياً ، ويبدو أن رئيس الإقليم فى العهد البويهى كان يتولى ذلك المنصب عن طريق الإجماع غير الرسمى لأعيان ذلك الإقليم فى أغلب الأحيان ، ولا يبدو أن الرئيس على جميع الجماعات الإقليمية كان لحرفة واحدة بشكل موحد ، ويوصف رئيس جرجان فى مطلع القرن الرابع هـ / العاشر م على سبيل المثال بأنه "فقيهها الشرعى ورئيسها" ، وكان رئيس إدهاج فى القصة المذكورة بعالية "أحد كبار شهودها" ، ولا بد أن مثل هذا التنوع كان يمثل العرف المحلى إلى حد ما لكنه من المحتمل أيضاً أنه أقر بأن الرئيس ذلك الرجل ذو النفوذ الأكبر بين الأعيان ربما قد جمع هذا النفوذ عن طريق الرئاسة فى أى (أو كثير) من الطبقات التى أتت بالأعيان : ملاك الأراضى وكبار التجار والفقهاء الشرعيين - وهلم جرا- ومع ذلك فنظراً لأن الحكومات الإسلامية ؛ أظهرت سلوكيات أفضل بوجه عام عند التعامل مع رجال العلم الدينى فقد أذعن كثير من الجماعات لمثل هؤلاء الرجال الذين قاموا بدور المتحدثين بأسمائها (٥٦) .

ولذا فقد كانت هناك أشكال كثيرة للرئاسة تنوعت من الرئاسة الضعيفة المرتبطة بالإعجاب والأسبقية بين الزهاد إلى الرئاسة القوية لرؤساء القبائل ، وهناك أشكال أخرى للرئاسة سوف نتناولها فيما له صلة بالطبقات المذكورة فيما يلى ، ويجب التأكيد على أن مصطلح رئيس كان قاصراً إجمالاً على رؤساء الطبقات المعترف بها فى المجتمع ولم يكن يُستخدم للرئيس فى الروابط المؤقتة المكتسبة بالطرق المذكورة فى الفصل السابق . والواقع أن هذه الروابط المؤقتة غالباً ما كانت تستخدم داخل هذه الطبقات من قبل الرجال الذين كانوا يسعون إلى رئاسة طبقتهم ، وقد لعب الشكل القوى للرئاسة دوراً سياسياً مباشراً فى العلاقات بين الطبقات يفوق دور الشكل الضعيف للرئاسة . وكان بمقدور الرئيس القوى أن يحمل طبقته على الخضوع له فى حين لم يقدر الرئيس الضعيف على القيام بذلك ، وعندما سمع بأن أحد أفراد القبيلة العقلية قد ألقى القبض عليه لعمل حقير للغاية من أعمال اللصوصية كتب عضد الدولة إلى الرؤساء العقلانيين يهددهم ، ويتوعددهم بإنزال أشد صنوف العقاب : "إذا لم يضمن الكبار بينكم (سلوك) من هم دونهم" ، وهكذا كانت الرئاسة القوية فحسب تتعرض للحساب والمساءلة على هذا النحو (٥٧) .

ولم نذكر حتى الآن سوى الفوارق العامة للمستوى ( أو الطبقة ) كالخاصة والعامة ، ولقد كانت الفوارق الدقيقة لا حصر لها من ناحية وليس لها وجود من ناحية أخرى ؛ فقد كان لا حصر لها ؛ نظراً لأنه كان يمكن زيادة عددها لترتيب جماعة ذات أى حجم حسب المرتبة ؛ ولم يكن لها وجود بمعنى أن أى من هذه الفوارق الأدق المشار إليها فى مصادرنا كان نتاج طريقة تصنيف الرجال حسب مراتبهم ، وكانت المراتب نفسها تعبيرات عن تلك الطريقة وعبرت عن المرتبة النسبية للرجال عندما ينظر إليهم على أنهم أعضاء جماعة معينة ، ولم تكن مراتب التصقت بالرجال فى جميع أوحى معظم الجماعات التى قد توجد فيها ، وفى الوقت الذى كان يمكن فيه - بشكل عام - القول بأن أحد الرجال من العامة أو الخاصة فإن مرتبته الفعلية فى - أو فى موضع وسط بين - هذه الجماعات سوف تتوقف على الرفاق الذين كان ينظر إليه معهم ؛ وعلى سبيل المثال لم يكن من " الطبقة المتوسطة الدنيا " على نحو يتعذر محوه وكان لدى الرجال فى تلك الفترة مقاييس متشابهة - ولكنها متطابقة بأية حال - للمعايرة كان يمكنهم بواسطتها قياس مراتبهم الخاصة ومرتبة الآخرين فى أى جماعة كانت بحاجة إلى ترتيب داخلى ، وكان هذا النظام أو الترتيب الهرمى المرتبط بالعلاقات ملائماً تماماً لأفكار الحسب والنسب ، والواقع أن الرجال كانوا يصنفون بعضهم البعض وفقاً لتقديراتهم النسبية لنسب وحسب بعضهم البعض .

ويوجد رأى نموذجى يتعلق بهذا النظام فى فقرة فى تفسير القرآن للعالم الشيعى المعروف الطوسى "شيخ الطائفة" (المتوفى ١٠٦٧ / ٧٦٠١) الذى عاش الجزء الأكبر من حياته فى سن البلوغ فى ظل الحكم البويهى فى العراق ، وتفسير العبارة القرآنية **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىكُمْ** (سورة الحجرات الآية ١٣) ، يستشهد الطوسى بالعالم البلوخى الذى قال **إِنَّ النَّاسَ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُ إِذَا تَسَاوَى شَيْخٌ وَشَابٌ فِي الْفَضِيلَةِ وَالتَّوَدُّعِ تَعطى الأفضلية للشيخ على الشاب ويحظى بالمزيد من التبجيل والتكريم ، وهكذا يكون الحال مع الأب والابن والسيد وعبد ، وهذا شئ لا يختلف عليه العقلاء ، وبالمثل فإذا تساوى رجلان فى التدين وكان لأحدهما روابط قرابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسوف يكون لزاماً إعطاء الأسبقية لمن لديه روابط مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبالمثل فإذا كان لأحد شخصين آباء عرفوا بالفضيلة وحسن الخلق والأعمال النبيلة والكرامة والشجاعة والأدب والعلم - فسوف**

تعطى له الأسبقية على الآخر وفقاً لطبيعة البشر ، وإذا قيل "إن الأسبقية تعطى للأثرياء وفقاً للطبيعة البشرية وهي الحالة (إذا كانت حجتك صحيحة) التي سوف يتعين فيها اعتبار الثروة والغنى شرفاً" فسوف نجيب بقولنا "هكذا تماماً ، فنحن لا ننكر أو نرفض هذا . . . على الرغم من أن الرجل الأكثر فقراً الذي يتفق ماله على نحو ملائم أفضل من الرجل الذي لا يتفق ماله . . . وبالمثل فإن الرجل التقى الذي تتجلى فيه تلك الصفات (للتقوى) سوف يكون أفضل من الذي لديه حسب و شرف عن طريق آبائه ومع ذلك فهو نفسه فاسق وأحمق فقط ، وسوف يكون حسب ذلك الرجل الأحمق شئ يزيد العواقب الوخيمة لأفعاله السيئة (٥٨) .

وهذا الاستشهاد له قيمته أيضاً حيث إنه يتناول بشكل واضح و صريح الدور المهم للسن في إعطاء الأسبقية والرئاسة ، وقد رأينا كم مرة تكرر استخدام كلمة المشايخ بالتبادل مع كلمة الأعيان ، كما رأينا أيضاً أن الرئاسة بين العلماء آلت إلى الشيوخ

على الرغم من أنها لم تكن تعطى على أساس السن ؛ وذلك نظراً للطريقة التي كان ينقل بها العلم الإسلامى ، وكان السن مهما حتى بين الجماعات مثل الجند المحترفين ، حيث لم يعد للمعرفة بالجيل السابق أو الإنجازات السابقة لرجل مسن تأثير مباشر على مهارته كرجل مقاتل ، وعندما غادر القائد المسن ياقوت بغداد بسبب نزاعه مع الحكومة وصلته رسائل من أفواج الهجاري التابعة للقصر في بغداد تعبر عن الإخلاص لياقوت ، وكان ياقوت هجاريًا قديمًا على الرغم من أنه من المحتمل أنه كان قائداً لقطاع من هذه الأفواج ورغم ذلك يبدو أن الهجاريين أحسوا بأنهم معرضون للخطر بدون ذلك أنهم كتبوا يقولون إنه لم يعد لديهم شيخ عدا ياقوت ؛ ونظراً لأن السن والرئاسة غالباً ما كانا متلازمين ، فعندما كانت للرؤساء كالأعيان مصالح جماعية كان يمكن أن يطلق عليهم مشايخ وينظر إليهم على أنهم يشكلون طبقة ؛ ولكن كثير من هذه القياسات الدقيقة والقابلة للتعديل للطبقة يبدو أن السن بحد ذاته أقل احتمالاً لأن ينشئ جماعة تعي ذاتها من أن يرشد الناس في اختيار رؤساء لجماعات تعي ذاتها (٥٩) .

## الأحداث أو العيارون

كان الأحداث " الشباب " طبقة أخرى في المجتمع على الرغم من أن هذا المصطلح لا يتعارض ببساطة مع المشايخ ، وغالباً ما كان مصطلح الأحداث يعني ما هو أكثر بكثير من الشباب ، وغالباً ما كانت مرادفاً لك (عيارين) (المفرد عيار) وهم جماعات من الرجال كانت تربط بينهم إرادتهم الخاصة وليست الحكومة وذلك في عصابات تدفعهم مثل عليا معينة للفروسية ، وكانت مثل هذه العصابات أكثر جذباً للشباب ممن هم أكبر منهم سناً ، ومن المرجح أن أفرادها كان يُطلق عليهم أحداثاً لسبب ما ، ورغم ذلك فأننا لم أقر أن أى شيء فى أوصاف نشاطهم تشير بوضوح إلى أن أفراد هذه العصابات كانوا من الشباب فحسب ، ويشير التعارض المتكرر بين الأحداث/ العيارين والأشراف إلى أن هذه طبقة مختلطة محددة بشكل جزئى عن طريق كل من السن والمثل العليا للفروسية والمركز الاجتماعى ، ومن المرجح أن الشباب الذين كانوا ينتمون لأسر طيبة لم يصبحوا من الأحداث/العيارين ، وبقدر ما كانت جماعات الأحداث/ العيارين عصابات اختار المرء الانتماء إليها وأتاحت للمرء الانضمام إليها كانت رابطات تقوم على الولاء المكتسب وورد ذكرها فى الفصل السابق ، ولسوء الحظ فنحن لا نعرف سوى النذر القليل عن الكيفية التى وصل بها المرء إلى أن ينظر إليه على أنه أحد الأحداث فى الفترة المبكرة ، ويبدو أن النذر القليل الذى نعرفه يشير إلى أن الأحداث/ العيارين يشغلون حيزاً فى المجتمعات المختلفة وفى إدراك المؤلفين المختلفين ، حيزاً يشمل كلاً من العصابة وجميع شباب العامة الأشداء الذين ينتمون لطائفة معينة .

وكان الأحداث / العيارون متواجدين فى غرب إيران كما يوضح مثال من الدينوار ، لكننا نجد الوصف الأكمل لنشاطهم فى ظل الحكم البويهى فى تاريخ بغداد فقد كان يطلق عليهم هناك العيارون وسوف يعطى وصف موجز للعيارين فى تلك المدينة فكرة ما عن بعض المظاهر المختلفة التى انتحلها الأحداث/العيارون ، وفى بغداد لم يقتصر الأمر على كل حى من أحيائها بل يبدو أن الجماعات الأخرى كان لها عياروها، وكان العنصر الذى أعطى النزاعات الطائفية أنياباً حقيقية ، وفى الوقت ذاته كانوا عنصراً يمكن أن يصبح قويا بما يكفى لتهديد رؤساء الطوائف التى قاتلوا من أجلها؛ ففي عام ٣٦١ هـ - على سبيل المثال - قام القائد العام لجيوش عز الدولة

بدعوة المسلمين لحمل السلاح ضد البيزنطيين ؛ وتقدم عدد كبير من العامة بأسلحتهم ولكن بدلاً من إمدادهم بالضباط و التدريب احتفظ بهم كاحتياط لنفسه ، ورغم ذلك فسرعان ما بدأوا يقاتلون بعضهم البعض ومن ثم أصبحوا سبباً في إثارة قلاقل خطيرة . ويخبرنا ميسكاويه أن " كثيراً من الرؤساء ظهروا بينهم حتى ظهر عدد من رؤساء العيارين في كل حي حيث أخذوا في حماية أحيائهم وجمع الأموال من أهالي الأحياء ومحاربة أولئك الذين كانوا في الأحياء المجاورة " (٦٠) .

ولا يشير ميسكاويه بوضوح إلى أن جميع الرؤساء الذين ظهروا بين العامة ممن حملوا السلاح كانوا رؤساء العيارين ، لكن الواضح أن بعضهم كان كذلك وهؤلاء كانوا إما قدامى رؤساء العيارين الذين اتخذوا أهمية جديدة أو رؤساء جدد للعيارين أوجدتهم حاجة كل جوار لحماية نفسه ، وبقي العيارون طوال العهد البويهي لجباية ضريبة الحماية على جيرانهم عندما كان يحل الضعف بالحكومة المركزية ، وتوضح مثل هذه النفقات غير المرغوب فيها أنه على الرغم من الاستقلال الذي جمع بين الأثرياء المحليين وجيرانهم العياريين في مثل هذه الظروف ، فقد ظل هناك بُعد اجتماعي بين الجماعتين حال دون حدوث تطابق كامل للجوار عبر حدود الطبقة .

## الطوائف

لقد لعب الأحداث والعيارون - كما ذكرنا - دوراً مهماً في النهج الطائفي المحلي الذي كان شبه عام في الشرق الأدنى في العهد البويهي ، وفي الوقت الذي يبدو فيه أن الأحداث والعيارين قد تم انتشالهم من الطبقات الدنيا بشكل جارف يبدو أن الطوائف نفسها قد ضمت أناساً من كافة المراتب ، وعادة ما ظهرت الطوائف أزواجاً وربما كان الثبات والنشاط النسبيين للنهج الطائفي عندما كان يتم ترتيب الطوائف زوجياً مقابل بعضها البعض مدينين بالكثير للتزاوج المتكافئ تقريباً في تشكيل الجانبين ؛ ولذا فالطائفة تكمن في طبيعة الصنف ويطلق على الطائفة أحياناً اسم فريق ولكن يطلق عليها في الأغلب طائفة (٦١) .

وغالباً ما كانت الطوائف تتمتع بتطابق ديني ؛ ففي بغداد - على سبيل المثال - كان الشيعة والسنة يمثلان الطائفتين الكبيرتين ، وكانت الطوائف تقوم في كثير من

الأماكن على مذاهب الفقه الدينى ، ورغم ذلك فهناك عدد كاف من الأماكن التى يوجد بها طوائف غير دينية للدلالة على أن المذهب الفقهي أو الفرقة لم تكن الأساس الحقيقى للطائفة حتى وإن أعطت بؤرة ملائمة للولاءات الطائفية ، ويبدو أن النهج الطائفى كان أداة للحماية أكثر من كونه أداة للعون المتبادل ، ونقرأ كثيراً أن طائفة تأثرت لنفسها من خصمها لأذى الحق بها لكننا نكاد لا نقرأ أبداً أن أفراد طائفة ما ساعدوا بعضهم البعض على النحو الذى انتهجه القصابون أو الكتبة على سبيل المثال فى مساعدة بعضهم البعض فى الأمثلة المشار إليها سابقاً .

وأنا أعرف مثلاً واحداً فقط للعون المتبادل داخل طائفة من هذه الفترة ؛ ففي عام ٤٤١ هجرية قام أهل حى الكرخ الشيعى فى بغداد ببناء حائط قبالة حى سوق القلايين السننى لحماية أنفسهم ، وردا على ذلك قام السنة ببناء حائط حول سوق القلايين ، وقام الجانبان بإجراء استعراض محكم لطرق العمل الخاصة بكل منهما حيث ارتدوا أكثر الأقمشة المقصبة والمطرزة أنيقة وراحوا يحملون الأجر على قرع الطبول وأصوات المزامير والأبواق والدفوف ، بينما أغدق ماء الورد على الأساسات ، ويذكر ابن الجوزى تقييماً ( تقسيط ) لنفقات البناء التى يفترض أنها شكل ما لفرض الضرائب ذاتياً من قبل كلا الحيين ، وتشير إمكانية فرض مثل هذه الصّريّة الذاتية إلى أنه عندما كان يتم حث طائفة مجاورة على ذلك كان لدى هذه الطائفة طريقة ما لفرض التزامات مالية على أفرادها ، وكان هناك تقسيط مماثل فى قزوین فى عام ٣٥٨ هـ على الرغم من أنه استخدم فى هذه الحالة لدفع غرامة فرضتها الحكومة المركزية ، وربما شارك المسئولون المحليون فى التقسيم والجباية ، ومع ذلك فمن المهم لأغراضنا الحالية ملاحظة أن المثال الوحيد الذى سقته للتعاون البناء والمتولد ذاتياً بين أفراد طائفة يأتى فى سياق منافسة ذات أسلوب معين ، ولا يؤكد هذا المثال بحد ذاته أن مثل هذا التعاون كان قائماً عندما لم تكن هناك إثارة للمشاعر التنافسية ، وقد ورد ذكر أمثلة للتنافس فى تشييد المساجد فى إيران وفق أسلوب معين فى مصادرنّا الخاصة بالعهد السلجوقى والعهد التالى .

كما شجعت الحكومة المنافسة ذات الطقوس واستخدم معز الدولة العدائين كى يبقى على اتصال بركن الدولة فى الرى كطريقة للاتصال البريدى عبر المسافات الطويلة لم تُعرف حتى الآن ، لكنها كانت طريقة معتادة منذ ذلك الحين فصاعداً ؛ ولذا كان

هناك تشجيع لأحداث وفقراء بغداد - كما تخبرنا المصادر - لأن يصبحوا عدائين حتى يتسنى لهم أن يلتحقوا بالخدمة الحكومية بوصفهم هذا كعدائين . وسرعان ما أصبحوا منشغلين بالرياضة الجديدة ، وعلاوة على ذلك فقد شجعهم معز الدولة بإقامة مباريات بمصاحبة الموسيقى حيث كان الفائز يُمنح جائزة كبيرة . وبدأ السكان المحليون في إقامة المباريات في أنحاء مختلفة من بغداد وسرعان ما كان هناك رئيس عدائين للطائفة الشيعية وآخر للطائفة السنية . وهكذا عادت مثل هذه المنافسة ذات الطقوس لتؤكد وحدها من جديد وعلى أقصى تقدير- أن النهج الطائفي كان ولاءً " سلبياً " ، ولاء لم يكن مبعثه سوى إمكانية تفوق الجانب المعارض عليها سواء طقسياً أو عن طريق الشغب (٦٢) .

وكانت بعض ولاءات الطبقة التي ورد ذكرها في هذا الفصل بمثابة بلورات بذرية تشكلت حولها الطوائف، وقد أثر وجود مثل هذه البلورات البذرية على طبيعة الطوائف، ذلك أنه حتى إذا كانت الطوائف قد أنشئت للتعبير عن الولاءات السلبية إلى حد بعيد فلا بد أن الولاءات الإيجابية التي احتوت عليها قد أكسبتها بعض التماسك ، وعلى سبيل المثال فقد كانت هناك حرف بأكملها تدخل أحياناً ضمن طائفة واحدة ؛ ولذا فربما أخذت طائفة ما اسمها من إحدى هذه الجماعات الحرفية كما كان الحال بالنسبة لطائفة " القصابين " في الدينوار بغرب إيران ، ولدينا وصف للفتنة التي وقعت في الموصل في عام ٣١٧ هـ ، والتي بدأت بجماعة حرفية كهذه ونجحت في تحويل جزء كبير من السكان إلى طائفتين متقابلتين ، وقد بدأ " بائعوا الطعام " ( أهل الطعام ) ومن المحتمل أنهم أولئك الذين كانوا يبيعون الطعام المُعد التشاجر مع أهل الحي الذين كان يطلق عليهم المربعة وتجار القماش ( البزازين ) ، وقد شجعت الفتنة أولئك الذين تطلق عليهم مصادرها " الأشرار " على المشاركة فيها ، وسرعان ما انضم تجار الأسماك البالية ( أصحاب الخلقان ) إلى الأساكفة ضد بائعي الطعام ، وعجز الحاكم الحمداني عن إخماد الفتنة التي أحرق فيها أحد الأسواق وكان متوقفاً لها أن تحدث دماراً أكبر ، " ثم تدخل بعض العلماء ورجال الدين وعقدوا الصلح بينهم " ، وهنا نرى عداءً يقوم على الولاء الحرفي الذي ينتشر ليشمل الحرف الأخرى ، ونحن لا نعرف ما إذا كان هذا العداء الأوسع نطاقاً قد أصبح تطابقاً راسخاً ودائماً للطوائف في الموصل .

ومن المؤكد أن الطريقة التي امتلكت بها إحدى الحرف حلفاء ذوي درجات متفاوتة من التقارب والتي كانت تستغل في القتال مع ازدياد جديتها تشبه الطريقة التي كانت تستغل بها الوحدات الأكبر فأكبر للنسب في المعارك في المجتمع العربي في فترة سابقة ، وكما رأينا ففي القرن الرابع هـ / العاشر م كانت طائفتا : مضر، والربيعة ، الموجودتين في البصرة لاتزالان تسميان حسب التمييز العربي التقليدي للنسب ؛ ولذا كان النسب بلورة أخرى يمكن للطوائف أن تتشكل حولها ، ومن المؤكد أن جماعات النسب غالباً ما كان يتم ضمها داخل الطوائف دون المساس بها حتى في الأماكن التي كانت تسمى فيها الطوائف بأسماء الحرف على سبيل المثال . كما كانت الطوائف تسمى أحياناً بأسماء المناطق المجاورة ، ولكنها كانت تسمى بأسماء الطوائف الدينية ( السنية ، الشيعية وهلم جرا ) أو المذاهب الفقهية ( الحنفي ، الشافعي ، وهلم جرا ) ولذا يمكن لكل من العقيدة المشتركة ومحل الإقامة المشترك أن يقوم بدور البذور التي يمكن أن تتبلور الطوائف حولها ، وسوف نناقش فيما يلي مشاعر الولاء التي أثارتها كل منهما (٦٣) .

وتعد العاطفة بين أعضاء مذهب فقهي مشترك أو عقيدة طائفية مشتركة شيء ما تشهد به كثير من مصادرنا ، وكتب المسلم الإسباني ابن حزم ( المتوفى عام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م ) في بداية بحثه عن الحب يقول : " إن أفضل أشكال الحب يكون بين الناس الذي يحبون بعضهم البعض في الله - فهو العظيم المجيد - أما عن طريق بعض الجهاد ( المشترك ) للقيام بأعمال التقوى ، أو عن طريق اتفاق ما على مبادئ العقيدة ( أصل النحلة ) وعلى المذهب أو بفضل درجة ما من المعرفة التي تمنح للناس " ، وبالمثل يشير الجاحظ إلى أن الطائفيين الذين يطلق عليهم الخوارج أتوا من أقاليم مختلفة وحرف مختلفة وجماعات عرقية مختلفة . وهكذا " ، فعندما نجد ... كل هؤلاء يقاتلون ( معاً ) برغم تفاوت أنسابهم واختلاف بلدانهم فنحن نعلم أن الديانة هي التي ساوت بينهم وأصلحت بينهم في هذه الناحية " (٦٤) .

وقد زاد الاصطناع من قوة الحب المتبادل بين أصحاب العقيدة المشتركة ، وأدى الارتباط الوثيق لهذا الاصطناع بأمور الحياة اليومية إلى جعل المذاهب الفقهية والجماعات الدينية أكثر جذباً كبؤرة يمكن للطوائف أن تنشأ حولها ، ويخبرنا ابن الجوزي أن الناس اعتادوا أن يأتوا بزكواتهم وصدقاتهم إلى أبي حامد الأصفاريني

(المتوفى عام ٤٠٦ هـ) والذي كان كبير علماء الشافعية في عصره في بغداد ؛ وذلك حتى يمكنه إعادة توزيع الأموال ، وقام بتوزيع مائة وستين ديناراً في الشهر على أصحابه الفقراء وأعطى المال لقافلة الحج ، ولم تكن هناك مبالغ كبيرة من المال ضمن ذلك نظراً لأنه كانت هناك صدقات تطوعية ، ويجب عدم الخلط بينها وبين الضرائب التي كانت تفرضها الحكومة ؛ ومع ذلك فإن بعضاً من إعادة توزيع الثروة هكذا عن طريق الإحسان كان على الأرجح داخل جماعة معروفة دينياً من كونه بين جماعات (٦٥) .

وعلاوة على ذلك كان يتم حجز بعض المناصب لرجال العلم الديني ، وقد أمدت السيطرة على هذه المناصب من قبل أحد هذه المذاهب الفقهية أو غيره المذهب الفقهي المسيطر بمصدر مهم للاصطناع ، وكان لدى القاضي كاتباً و أمين سجلات و خدم آخرين ملحقين بالخدمة في مجلس قضائه ؛ وإضافة إلى ذلك كان يقوم بتعيين نواب كان لهم خدمهم الخصوصيين ، وكان مجلس القضاء والمعينون به يقومون بدور الأوصياء بالنسبة للأيتام والمنفذين لوصاياهم ، وكان الشهود أناساً ذوي شهادة هامة في الكثير من المسائل الشرعية بما فيها المسائل المتعلقة بالقانون التجاري . وغالباً ما كانوا رجالاً ذوي علم بالفقه الديني . وكان الخطيب الذي يلقي خطبة الجمعة مسئولاً ذي راتب وعادة ما كان واحداً من العلماء . وقد امتد الاصطناع أيضاً إلى تعيين أئمة المساجد على الرغم من أن كثيراً من هؤلاء كانوا هاشميين أي منحدرين من نسل عشيرة محمد ، ولكن مهما كان إعطاء أسماء دينية للطوائف ملائماً من الناحية العاطفية أو النفسية ومهما كان مقدار استفادة الطائفة الدينية الفائزة من الاصطناع الذي كان تحت تصرفها فإن الطوائف لم تكن تسمى بأسماء الجماعات الدينية في كل مكان كما اعتقد بعض العلماء ، وتوضح الاستثناءات الكثيرة أن أساس النهج الطائفي ليس مذهب فقهي أو طائفة ، لكن المذهب الفقهي أو الطائفة كان أكثر الكيانات التي تبلورت حولها الطائفة شيعياً (٦٦) .

وكان الجوار نقطة بداية أيضاً يمكن للطوائف أن تنشأ عندها ، وقد سميت بعض الطوائف في تلك الفترة بأسماء المناطق المجاورة مثل المناطق التي كانت موجودة داخل مدن أبيوارد في خراسان ونصيبين في العراق ، والغريب أن هذا الشعور بالتضامن بين الجيران نادراً ما يتم التعبير عنه بوضوح في مصادرنا ، ومع ذلك تتكرر التعبيرات العامة عن حب المرء لوطنه بشكل أكبر؛ وعلى سبيل المثال فقد

كتب الرزراوى يقول : " إن حب الناس لوطنهم و اختيارهم البقاء بين أسرهم وأشقائهم أمر غريزى ويبدو أن الوطن يعنى أحيانا ملكية المرء الخاصة كما يقول ابن الرومى فى إحدى قصائده : " أن لى وطن أقسمت ألا أبيعته أو أرى غيرى يملكه مادام موجودا " (٦٧) .

وعلى الرغم من أن ولاء المرء لبلده و الإقليم المجاور له مباشرة ليس الأساس للنهج الطائفى، فالنهج الطائفى بين البلاد أمر شائع بشكل معقول ويمكن النظر إليه على أنه تعبير أكبر و أرحب عن الولاء للوطن . و لم تكن أبيوارد وحدها مقسمة إلى طوائف تقوم على كل حى من أحياء المدينة - كما أشرنا سابقا - لكن سكانها كانوا منهمكين أيضا فى نزاع طائفى مع نيسابور ، ويطلق أحيانا على هذا الولاء للبلد بلدية والإشارات الصريحة إلى هذا الشعور بالبلدية هى واحدة من بين كثير من الأدلة على أن مدن الشرق الأدنى فى هذه الفترة لم تكن مجرد محصلة لإحياء المناطق المجاورة التى كانت تتألف منها ، و يروى التنوخى قصة أعطى فيها الوزير العباسى الراحل على بن عيسى الأسبقية لأحد القضاة على قاض آخر كان أصلا من الأنبار ، ويقول راوى القصة الذى كان من الأنبار أيضا إن القاضى الذى أعطى الأسبقية " كان مسرورا أننى عرفت شخصيا وكنت شاهداً على ما حدث ؛ نظراً لأننا كنا أبناء بلد واحد (لأجل البلدية) " ، و حدث فى العهد البويهى أن أصبح الواثقى و هو فرد حقير الشأن من أفراد الأسرة العباسية شاهداً فى نصيبين ، ولكن ؛ نظراً لسوء خلقه وسمعته تم حمله الى بغداد وإلقاؤه فى السجن فى نهاية الأمر ، وتشفع له الشاعر الببغاء "باعتباره من أبناء بلده (البلدية) " . و رغم ذلك فالولاءات الإقليمية للوحدات الأكبر من البلد ليست شائعة وعادة لم يكن لدى الغازين الذين أتوا إلى الرى بالآلاف فى طريقهم من خراسان إلى سوريا فى عام ٣٥٥ هـ أى رئيس عموماً ولكن هناك رئيس لأهل كل بلد أتوا منه (٦٨) .

وكما أشرنا فقد كان السبب فى قيام الطائفة يرجع إلى حد بعيد إلى الحماية التى كانت تقدمها مثل هذه الرابطة، وعلى الرغم من أن الولاءات الخاصة بهذه الرابطة يمكن وصفها بأنها سلبية ؛ باعتبارها ولاءات ضد تهديد خارجى ما ، فقد كانت الطائفة تلقى دعماً من داخلها عن طريق الولاءات الإيجابية التى كانت تضمها ، وتم الإبقاء على النهج الطائفى حياً ؛ نظراً لأنه كان يستخدم من قبل الأعيان و الحكومة ،

وكان من المرجح للحاكم الضعيف أو الحاكم الذى كان يحاول أن يحكم منطقة نائية أو حدودية أن يلجأ إلى استخدام مثل هذا النهج أكثر من الحاكم القوى فى أقاليمه الداخلية . لكن استخدام النهج الطائفى كان محفوقاً دوماً بالمخاطر فى غياب حكومة مركزية قوية . وكان مقتل القاضى يوسف بن أحمد بن كاج - الذى أشرنا إليه سابقاً - إلى حد ما نتيجة لافتتضاح أمر هذا القاضى عندما حاول استخدام النهج الطائفى أثناء حكم ملك ضعيف للغاية هو شمس الدولة ، وكان ابن كاج - قاضياً فى أقاليم الملك الحسناويى بدر وكان يعد فقيهاً بارزاً للمذهب الشافعى ، وبعد وفاة بدر توجه إلى همذان ولجأ إلى زوجة شمس الدولة التى كانت صاحبة أعلى صوت فى سياسة زوجها آنذاك ، واستقبل شمس الدولة ابن كاج باحترام عظيم ورتب لعودته إلى بلدة الأم الدينوار ، وكانت هناك طائفتين بين العامة فى الدينوار وهما : طائفة القصابين والقصابين وطائفة إلى خلدية ، وكتب سبط ابن الجوزى يقول : " وبين الاثنين كان يوجد ( نوع ما ) القتال والعصبية التى لم ينخرط فيهما سوى السفهاء ، وانحاز القاضى لطائفة أبى خلدية ، وقد منعت هيبة السلطة التى أحاطت بدر كلتا الطائفتين من تجاوز الحدود ، ( لكن ) بدر توفى بعد ذلك ، وخوفاً من القصابين دعم القاضى موقفه بالاعتماد على علاقته بشمس الدولة ، وفى إحدى الليالى من عام ٥٠٤ هـ قام أناس يطلق عليهم سبط بن الجوزى "القصابون" و يطلق عليهم ابن الجوزى العيارون ويطلق عليهم ابن الأثير ببساطة العامة بمهاجمته وقتله (٦٩) .

وهناك مثال مثير لحاكم قوى أثار الفتن بالفعل ؛ نظراً لأنه كان يسيطر على كلتا الطائفتين ، ولذا كان بإمكانه استخدام الفتن لصالحه ، فعندما قدم عضد الدولة إلى البصرة فى عام ٣٦٦ هـ أصلح بين مضر وربيعة اللتين كانتا فى عداوة على مدى قرابة مائة وعشرين عاماً حسبما يخبرنا ابن الأثير ، وفى عام ٣٦٩ هـ استخدم عضد الدولة التفاهات التى كان قد توصل إليها من قبل مع رؤساء ( وجوه ) الطوائف بالبصرة للترتيب لقلقل طائفية سورية فى المدينة لاذ بعدها أعضاء الحكومة المحلية بالفرار وقد تظاهروا بالخوف ، وعند ذلك قام الوجوه - حسب التعليمات التى أعطيت لهم - بتسليم المدينة للمستول السابق لعز الدولة ، والذى كان عضد الدولة عاجزاً عن إلقاء القبض عليه ؛ نظراً لأنه لم يكن من الممكن الوصول إلى هذا المستول فى أهوار جنوب العراق ، وكما كان متوقعاً فقد استسلم المستول لإغراء الخروج ، وألقى القبض عليه وانتهت التمثيلية التحذيرية (٧٠) .

وحتى عندما لا نجد من يخبرنا عن الطوائف الراسخة التي ربما ربط الأعيان ( أو الوجوه ) أنفسهم بها فنحن نرى الحكومة تستخدم الأعيان أنفسهم لإيجاد طوائف خاصة لأغراضها الخاصة ، ففي عام ٣٦٨ هـ حاصرت قوات عضد الدولة ضابطاً للحمدانيين في بلدة مايفاريقين في شمال سوريا ، وما كان لهذا الضابط أن يستمر في المقاومة لولا مساعدة قاضي البلد الذي جرت العادة أن تتولى أسرته أمر القضاء في مايفاريقين وكان لها نفوذ عظيم على سكانها؛ ونظراً لأن مايفاريقين كانت تقع في منطقة خالية من الحماية نسبياً مما جعلها عرضة لهجوم البيزنطيين والفاطميين والقرامطة والحمدانيين والبويهيين ، فقد كان من الطبيعي تماماً أن يكون للبلد بأكمله متحدث باسمه له مثل هذا النفوذ ، ورغم ذلك فقد كان القائد المحاصر للبلد ذكياً بما يكفي لأن يعرف أن المنافسات كانت قائمة دوماً بين الأعيان ، وكتب إلى شيخ جليل ذي نفوذ (كان أحد أقارب القاضي عن طريق المصاهرة) يحثه على أن يجعل الناس ينفضون من حول القاضي ويلتقون حوله ، وتمكن الشيخ من القيام بذلك وعندما شعر الشيخ بأنه قوى على نحو كافٍ قام أنصاره بمهاجمة الحمدانيين وألقوا القبض على القاضي وسلموا البلد (٧١) .

وتوضح قصة الرئاسة المتنازع عليها في بداية القرن الخامس الهجري في مايا فاريقين أنه حتى إذا كان يمكن استخدام الأعيان أحياناً للسيطرة على العامة ، وحتى إذا كانوا غالباً ما يربطون أنفسهم بطائفة ما أو بأخرى في مجتمعهم فمن الممكن للفارق الأفقى بين العامة والأعيان أن يعاود الظهور دائماً ويفصل بين الجماعتين . وفي عام ٢٠٤ هـ أو بعد ذلك بوقت قصير تمكن شاروا من السيطرة على مايفاريقين عن طريق قتل الحاكم المرواني ، وقام أبو نصر - شقيق هذا الحاكم - بالزحف على البلد حيث عسكر على بعد فراسخ منها فحسب ، ونظراً لأن كثيراً من العوام كانوا يؤيدون أبي نصر فقد أُجبر شاروا وأتباعه على اللجوء إلى القلعة والاحتباء بها ، لكنه ناشد شيوخ البلد في الوقت ذاته تقديم العون لهم ، ووافق الشيوخ على ضمان سلامة شاروا بشرط أن يقوموا بدور وسطائه عند أبي نصر ، وهكذا غادر شاروا القلعة وأقام في منزل أحد الشيوخ وبعد ذلك ناشد العوام أبي نصر الذي كان يُغير على ضواحي البلد الرجوع عن بلدهم لكنه كان قد اقترب أكثر من البلد وطلب تسليم شاروا إليه فرفض الشيوخ إجابة طلبه .

وفى هذه المرحلة أصبحت الفوارق بخلاف تلك التى كانت قائمة بين الشيوخ والعامّة ذات أهمية ، وانقسم البلد إلى طوائف وحدث بعد ذلك أن اتفقت الطوائف على رئيس واحد لها يتحدث بأسمائها جميعاً ، لكنه انسحب بعد بضعة أيام ، وبعد ذلك لقي ابن واصف - وكان تاجر محلى - الدعم والتأييد من صديقه المقرب أبوريحان وكان رجلاً له ( عشيرته وأتباعه ) لتولى دور الرئيس المحلى لمايفاريقين ، ويبدو أن ابن واصف كان يتظاهر حتى هذه اللحظة بأنه يعمل لصالح أبى نصر ، لكن هذا الادعاء سقط الآن ودخل ابن واصف فى قتال معلى وصريح مع أبى نصر وكان شاروا لا يزال مختبئاً بمكان ما بالمدينة فى كنف الشيوخ فى إشارة واضحة إلى استمرار وجود بعض الفرق بين الشيوخ والعامّة طوال الهرج والمرج الناتجين عن هذه الأحداث ، وبعد ذلك قام الشيوخ بإجراء مفاوضات بشأن تسوية : حيث كان يمكن لشاروا بموجبها أن يرحل فى سلام ، ويتم تولية ابن واصف حاكماً على البلد المجاور ، ويتولى أبو نصر حكم مايفاريقين ، وتم قبول هذه التسوية ، وبالمناسبة فهذا ليس مثلاً للانتقال الناجح من طبقة التجار إلى طبقة الأمراء ، ولا يبدو أن قفزة ابن واصف المذهلة من التجارة إلى الحرب قد أوجدت وضعاً دائماً له ؛ حيث انتهى به الحال إلى ترك منصبه الجديد كحاكم وذهابه إلى العراق (٧٢) .

## الجنس

وإضافة إلى الولاءات التى تقوم على الطبقة والصنف كان هناك كثير من الولاءات للأسرة وامتدادها وهو الجنس ، واتخذ بعض دارسى الشرق الأدنى من الأسرة تفسيراً يصلح لكافة الأغراض ؛ ولذا فقد ظلت أهميتها فى جميع الفترات موضع نقاش وبحث على نطاق واسع ، وبطبيعة الحال كانت الأسرة والجنس التفسير الاجتماعى المباشر للنسب ، وكما هو مفهوم بلغة الزمن فقد كان الجنس أساساً لجميع النظم الحاكمة تقريباً التى كانت تمثل الورثة المباشرين للعباسيين ، ذلك أن هذه النظم الحاكمة تولت السلطة كرؤساء للجيش المترابطة عرقياً للديلم أو الأتراك ، وأحياناً الرؤساء التقليديون للقبائل العربية أو الكردية أيضاً ، ومن المؤكد أن النظام الحاكم فى هذه الفترة شجع كل عنصر فى جيوشه على حفظ تماسكه العرقى حتى إذا كان للنظام الحاكم نفسه ( كالفاطميين ) هوية عرقية مختلفة ، ووفقاً لذلك كانت

الحكومة تعتبر كل وحدة عرقية في الجيش مسئولة أحياناً - بشكل جماعي - عن مسلك أفرادها ، وقد اعتاد عماد الدولة على بن بويه أن يروي قصة كيف أنه عندما كان في خدمة الساماني - في شبابه - منع أحد الديلم من الانضمام إلى الحاكم الساماني غير الديلمي نصر ؛ نظراً لأن جميع الديلم كانوا سيقتلون أخذاً بالثأر ، وكما رأينا فقد كانت الحكومة تعتبر كثيراً من الوحدات ذات الولاء القائم على العضوية في طبقة مسئولين أحياناً بشكل جماعي على هذا النحو (٧٣) .

وإذا كان المؤرخون المعاصرون قد بالغوا أحياناً في أهمية الروابط الأسرية فقد كانت ماثلة رغم ذلك دائماً أبداً في أذهان الناس في هذه الفترة عندما كانوا يدرسون تعهداتهم والتزاماتهم ، ويخبرنا ابن الجوزي أن الراضى الشاعر العلوى البارز في أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى درس القرآن مع إبراهيم الطبرى عندما كان شاباً يعيش في بغداد ، وكان الأخير فقيهاً مالِكياً وشيخ الشهود ، كما كان لقبه المقدم يعنى ضمناً " من كانت له الأسبقية " بينهم ، وعندما علم الطبرى أن الراضى مازال يقيم في بيت أبيه عرض على تلميذه إعطاءه بيتاً كى يقيم فيه ، ورفض الراضى قائلاً : " لم أقبل أبداً أى شىء من أى شخص سوى والدى " ورد عليه الطبرى قائلاً : إن حقى عليك أكبر لأننى علمتك (أن تتلو) كتاب الله عن ظهر قلب " ، وما كان لأى حق أن يسوغ للشباب قبول مثل هذه العطية القيمة سوى حق ذو شأن عظيم - مع ما يصاحب هذه العطية من مديونية - خارج نطاق الأسرة ؛ وتؤكد هذه القصة بشكل عارض الطبيعة شبه الرسمية لروابط النعمة التى ناقشناها فى الفصل السابق وتستخدم لغة مشابهة فى وصف ثورة الأمير الحسنائوى هلال ضد والده بدر ، وفى مسعاها للوساطة بين الاثنين قالت والدته هلال لابنها " إنك تتعامل مع والدك وحقه عليك واجب " ، وتأثر هلال لذلك تأثراً عميقاً وقام من فوره ببعض التنازلات لوالده . وهكذا كانت عواقب إنكار حق الأسرة خطيرة للغاية. ويخبرنا ابن الأثير أن ابن حاكم سيستان الياس بن محمد بن إلياس مات ميتة بائسة فى المنفى بسبب " سوء الحظ ( شؤم ) نتج عن الثورة ضد والده التى ( كانت ) ثمرة كفره بالنعمة " ، ونلاحظ من هذه الأمثلة أن العلاقات الأسرية كان ينظر إليها على أنها موارد مقدرة وليست مكتسبة للنعمة ولذا فغالباً ما توصف من خلال النعمة . ووفقاً لذلك فكما رأينا فى الفصل السابق فالروابط المكتسبة عن طريق النعمة للصنيعة أى الاصطناع توصف أحياناً من خلال الأبوة بالتربية (٧٤) .

وقد تم عرض جميع ولاءات الطبقة هذه كما لو كانت أهميتها النسبية ثابتة نسبياً، وكما لو كانت هذه الولاءات قد منحت أفرادها وضعا ثابتاً نسبياً في المجتمع وهذا غير صحيح ، ففي القرن الرابع هـ / العاشر م - على سبيل المثال يبدو أن أهمية الطائفة نفسها قد ازدادت ، ومما لا شك فيه أن الطائفة كان لها وجود في القرون السابقة لكنها لم تكن مهمة بالقدر الكافي كي تلعب دوراً سياسياً أساسياً ، وقد أصبحت الحكومة غير مركزية بصورة أكبر في العهد البويهي ، ويبدو أن الحكومات المركزية قد حاولت تسيير إدارتها عن طريق استخدام الجماعات الموجودة على نحو يفوق لجوءها للتدخل المباشر ، وقد شجع انهيار الحكومة المركزية القوية والبيروقراطية ذات الترتيب الهرمي التي لازمتها على حدوث هذا التغيير .

كما شجعت الناس أيضاً على عدم تركيز ولائهم بشكل مباشر أكثر من اللازم على النظام الحاكم الذي يرأسهم ، وكانت غالبية السكان آخذة في التحول إلى الإسلام ، وكان الفارق الأفقي الحاسم سابقاً بين المسلمين وغير المسلمين حيث كان للمسلمين مجتمع ذي مصالح مشتركة مع حكامهم المسلمين آخذاً في فقد أهميته ، وكان الفارق الرأسي للطائفة حيث غالباً ما كان للطائفة ارتباطاً إسلامياً ذي مبادئ سامية بمذهب فقهي أو فرقة يوفر بناء جديداً للدفاع عن النفس .

واتفقت النظم الحاكمة الجديدة على النمط الجديد ، وكما رأينا فقد استخدم الحاكم النزاعات الطائفية والاصطناع المرتبط بها. كما توقفوا أيضاً عن ربط أية جماعة واحدة بنظامهم الحاكم بشكل وثيق عدا الجند وأخفق الكتبة في أواخر العهد العباسي في مسعاهم إلى كسب السيطرة الدائمة على ضباط الجيش ، ومنذ ذلك الحين كان يُنظر إلى معظم الكتبة على أنهم خدم غير مسئولين أمام النظام الحاكم الجديد عن أنشطتهم في ظل النظام الحاكم السابق .

وحتى إذا لم تكن الطبقات التي ورد ذكرها في هذا الفصل قد تأرجحت من حيث أهميتها النسبية فإن العضوية في هذه الطبقات لم تكن لتمنح المرء وضعا ثابتاً في المجتمع بعد ، وظلت هناك إمكانية دائماً للانتقال إلى طبقة جديدة رغم تناقص هذه الإمكانية - إلى حد ما - في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، وأصبحت المناصب كمناصب القضاء أو رئاسات المدن في عدد متزايد من الأماكن في هذه الفترة وراثية ، وكان الميل إلى جعل المناصب وراثية والتأكيد على الحقوق الوراثة مقابل الحقوق

المكتسبة في المنصب ملائمين تماماً لأسلوب الإدارة اللامركزية بصورة أكبر في الفترة ما بعد العهد العباسي .

وبعد فإذا كانت هناك أيضاً حاجة أكبر لرجل " عصامي " أو لرجل تحول إلى طبقة مختلفة عن طبقة أباؤه لإثبات ذاته فقد كان بعض الرجال قادرين على القيام بذلك طوال هذه الفترة ، كما كان هناك انتقال إلى أسفل ؛ نظراً لإخفاق الرجال في الارتقاء إلى ما كان لحسبهم ونسبهم الموروثين من ثقل ، لكن إمكانية الانتقال كانت نابعة من الاتجاه القابل للتوسع أو التقلص ، حيث كان ينظر إلى المرء على أنه عضو في أي من هذه الطبقات ، ومن النجاح الذي أحرزه المرء في استغلال عضوياته المختلفة المحتملة عن طريق اليمين والنعمة وكافة الوسائل الأخرى لنيل الولاء الذي ورد ذكره في الفصل الثاني .

وكان التوسع و التقلص بقدر انتماء المرء إلى طبقة من الطبقات نابغاً في المقام الأول من حريته في تطوير عضويته في إحدى الطبقات على حساب عضويته في طبقة أخرى ، وعلى سبيل المثال فبعد سفره للقاء العلماء الآخرين استقر المقام أخيراً بـ "خلف بن محمد الواسطي" (المتوفى عام ١٠٤هـ) وكان عالماً ضليعاً في الحديث في إقليم الرملة حيث " اشتغل بالتجارة وتخلّى عن دراسة العلم ( علم الحديث ) " ، وتوضح حالته التي تشبه سيرة حياة كثير من أشباهه على نحو عارض مدى صعوبة الزعم بأن جماعة من ناقلي الحديث (المحدثين) تمثل قطاعاً مميزاً وقابل للتحديد من المجتمع (٧٥) .

ومع ذلك فإن إمكانية التوسع في عضوية المرء المحتملة وتقليصها تتبع أيضاً من الاتجاه الأساسي الذي كان الشخص عضواً فيه ولم تكن العضوية المشاركة في تنظيم محدد بالنسبة لمعظم هذه الطبقات ، لكنها كانت تعني فقط دوراً محتملاً للعضو والتوقعات الناتجة للمجتمع فيما يتعلق بما يمكن أن يكون العضو قادراً على القيام به كما أن نظام الترتيب الهرمي للطبقة الذي قمنا بدراسته لم يكن يعني بشكله الكامل والدقيق أن للمرء " منزلة " ثابتة في الحياة .

ونعود فنكرر أن مقياس المرء كان يتحدد - إلى حدٍ ما - عن طريق الصحبة التي اختار أن يلزمها وليس عن طريق تصنيف ما ثابت خصص له منزله معينة في نظام كان يضم جميع أفراد المجتمع وبالطبع لم يكن بمقدور المرء أن يقحم نفسه في طليعة

أية جماعة ، وكان بإمكانه أن يرتبط بالجماعات المختلفة التي كان ينتمى إليها وأن يعاير منزلته في كل منها ، ورغم ذلك لم تكن أهليته لتقدر بنفس الطريقة في كل من الجماعات التي كان ينتمى إليها، وإذا كانت العضوية تنطوي على الدور المحتمل فإن الترتيب الهرمي كان يقوم على معايير متقلبة دوماً ، ونظراً لأن المرء كانت له عضوية في الكثير من الجماعات المتداخلة ذات المصلحة المشتركة ؛ فقد كانت هناك إمكانية كبيرة للتحرك دون الانتقال إلى جماعات جديدة ، وكان عبد الله بن أحمد ( المتوفى عام ٤١٧ هـ ) من مدينة مرو صانع أقفال ؛ وكرس نفسه للعلم فقط عندما بلغ سن الثلاثين ؛ وأصبح شيخاً للشافعية في خراسان ؛ ورأس فريقاً كبيراً من الغازين وهم المقاتلون المتطوعون لبسط الحكم الإسلامي عن طريق الحرب المقدسة ، ومن الواضح أنه لم يتجمد في أي مركز اجتماعي ثابت في الحياة (٧٦) .

وكانت بعض الأدوار المتداخلة مقيدة ، وبعضها الآخر أكثر وضوحاً من غيره ، وكان كثير من الكتبة يملكون ضياعاً ولكنه كان من غير المؤلف بصورة أكبر أن تكون كاتباً من أن تكون صاحب أرض ، وعلاوة على ذلك فمن المرجح أن أصحاب الأراضي لم يرغبوا في الارتباط بالحكومة بشكل وثيق كما كان حال الكتبة ، ولذا فإن تكون كاتباً كان دوراً أكثر وضوحاً ، وعادة ما يتم التعرف على أصحاب الأراضي من الكتبة على أنهم كتبة وليسوا أصحاب أراضي ، وأن تكون كاتباً كان أيضاً دوراً مقيداً أكثر إلى حد ما نظراً لأن الكتبة كانوا يفخرون بأنهم كانوا مميزين بأسلوب ثقافي خاص تعلموه بجهد عظيم و كان بإمكانهم الكشف عنه في كتاباتهم وفي طريقتهم في إدارة الأعمال العامة ، ورغم ذلك فقد تم قبول بعض الكتبة كعلماء - كما رأينا - وإذا كان الكاتب قد قبل في مكتب المحاسبة الخاص به وجهة النظر الساسانية الزائفة حول المجتمع فقد قبل أيضاً وجهة نظر إسلامية مثالية في صلواته ككون التضارب جزء من خبرة كل مجتمع ، وبعد كل هذا فقد ظل المسيحيون الغربيون - برغم معتقداتهم - أناساً ذوي مزاج هادئ أحياناً فقط ، وكانت الغالبية العظمى من الأدوار مقيدة بصورة أقل بكثير من دور الكاتب ؛ ولم يكن هناك تعارض يفتقر إلى التعبير عنه في الاحتفاظ بالعضوية في العديد منها في آن واحد ، وكما رأينا فقد كان يتم التعرف على كثير من الجماعات عن طريق المصلحة المشتركة وكان كل شخص يشترك فيها طبقاً للأولوية التي يوليها لكل مصلحة من مصالحه ، وكان متوقفاً لكل امرئ أن

يقوم بما يمكنه القيام به من خلال مجموعة من الأدوار الخاصة به ، وهنا كانت قدرته على القيام بالمهمة التي حدد لها الدور و موهبته السياسية تقومان بعملهما ، وكما ذكرنا فقد كانت العضوية في هذه الطبقات مجرد علامة افتراضية على القدرة ؛ ويمكن إثبات صحة أو خطأ هذا الافتراض بدرجات مختلفة ، كما كان يمكن للمرء أيضاً أن يستخدم حسه السياسى فى خلق وتقبل التزام وفقاً للطرق التي ورد ذكرها فى الفصل الثانى ، وكان بإمكانه أن يظل صاحب أرض مثل يحيى السوسى ورغم ذلك يقوم بإيجاد علاقة خاصة مع الحكومة وأصحاب الأراضي الآخرين فى منطقته، وعندما لم تكن الرئاسة وراثية على نحو صارم فأغلب الظن أنها كانت تذهب إلى رجال نوى موهبة سياسية لها هذه الطبيعة ، وكان يعتقد أن عدداً من الطبقات كطبقة الكتبة لا غنى عنها للمجتمع ، وكان التنقل بين الطبقات بطيئاً؛ وهكذا فيقدر ما كان المجتمع أو الحكومة بحاجة إلى التعامل مع أية طبقات أو من خلالها فقد كانت تقوم بذلك عن طريق تشجيع تقدم مثل هؤلاء الرجال الطموحين كما كان الحال بالفعل فى الطبقة المطلوبة ، ولكن إذا كانت الطبقة لاغنى عنها فقد كان الأفراد قابليين للنفاد كما رأينا حيث يبدو أن مثل هؤلاء الرجال الطموحين قد عرضوا أنفسهم لمخاطر كبيرة من أجل القيام بذلك .

ولذا لا يمكن تفسير الاستقرار النسبى لمجتمع الشرق الأدنى و أسلوبه الاجتماعى عن طريق استقرار " مؤسساته الأساسية " على النحو الذى كان ينظر به مؤرخ أوروبا الغربية إلى مثل هذه المؤسسات ، وقد نشأ بعض هذا الاستقرار من تكامل التصنيف الذاتى فى نظام قوى و مقنع للعقيدة ، ويقدر الإنسان المعاصر أهليته الشخصية على أساس إنجاز الشخصى المنظور إلى حد بعيد -الحسب الذى ناله هو وحده ، ولم تكن لدى المسلمين فى العهد البويهى مزايا الأسبيرين ، والعلوم النفسية الحديثة . لكنهم كانوا يمتلكون ميزة وجود شىء ما يؤازرهم ويقويهم أكثر من إنجازاتهم الشخصية ، وشعور حى بالعلاقة التى تربطهم بعالم الغيب، وقد أعطى النسب والحسب الخاص بآبائه - دون النظر إلى مدى ضعفه - للمرء مكانة فى المجتمع قد لا تتاح لرجل ذى نسب آخر وضع ، وعلاوة على ذلك يبدو أن كثيراً من الناس قد شعر شعوراً عميقاً بأن " التقوى هى أفضل حسب " ، وأنشأوا علاقة مع الله لم يتوقعوا بالضرورة من غيرهم الاعتراف بها ، ومع ذلك فلا بد أن هذه العلاقة قد عززت شعورهم

بأنهم قد نالوا حسب دينى ثابت بصرف النظر عن الوضع غير المستقر نوعاً ما الذى احتلوه فى الطبقات التى تم ربطهم بها (٧٧) .

كما نشأ استقرار المجتمع الإسلامى فى الشرق الأدنى وأسلوبه أيضاً من الفهم الذى يتسم بالوعى الذاتى أن المجتمع كان بحاجة إلى حكومة ، ورغم ذلك لم يرد أن يأتى بأية حكومة خاصة به ، ولم تبشر الطبقات التى ذكرناها بالتوسع كى تصبح حكومات كاملة ذات سيادة ، ولم يكن متوقفاً لها القيام بذلك ، ولم تكن الطائفة - على سبيل المثال - فاتحة المدن المستقلة ؛ فكانت ولاءً سلبياً ، وكان لأفرادها عشرات من الولاءات الأخرى والواقع أن أكثر ما كان يخشاه الناس هو تغلب أى ولاء دون غيره على الولاءات الأخرى فى وعى أنصاره ، وبعد ذلك كان من شأن أفراد الجماعة المعروفة بهذا الولاء الغامر أن يتفاوضوا عن مصالحهم المتداخلة ويشرعون فى ممارسة " الظلم " عن طريق إكراه المجتمع على إعطاء أصحاب هذا الولاء نصيباً غير متناسب . ولنع هذا التجمد للمصالح المميزة كان مجتمع الشرق الأدنى فى الفترة التى نتحدث عنها بحاجة إلى حضور " خارج الطبقة " ، وهو حضور لم يقبله المجتمع ؛ نظراً لأن إحدى طبقاته الخاصة كان باستطاعتها الحفاظ على التوازن و الانتقال الناتجين عن تداخل الطبقات - وذلك بفضل بعدها - وكانت الحكومة أو الملكية على نحو أكثر تحديداً تمثل هذا الحضور ، وهذا هو موضوع فصلنا القادم .

## الفصل الرابع

### العدالة والملكية وشكل المجتمع

جرى العرف حديثاً وعلى نحو واسع الانتشار على افتراض أن التوق للاستقلال كامن داخل قلب كل إنسان وأن هذا التوق : إما أن يكون مقيداً بشكل صحيح بالواجب نحو تحقيق الصالح العام ، أو مقيداً بشكل خاطئ بالظلم ، واقترض الناس فى العهد البويهى أن التوق للاستقلال يهدد حقوق كل إنسان ومن شأنه تشجيع الناس على ظلم بعضهم البعض ما لم يتم كبحه من جانب السلطة ، ويعكس الفرق بين هذين التقليدين فهمهما المختلف للتهديد بالظلم الذى سوف يواجه المجتمع إذا ما انهار حس الالتزام بين الناس واعتقد الناس فى العهد البويهى أن الشعور العام بالالتزام المتبادل سوف يتم الحفاظ عليه إذا تم الحفاظ على الولاءات للطبقات المتعددة التى كانوا ينتمون إليها، ورغم ذلك فإذا تغلب الولاء لإحدى الطبقات على مشاعرهم الأخرى المتعلقة بالالتزام كان من شأن المصلحة التى أوجدت ذلك الولاء أن تغذى نفسها على حساب بقية المجتمع التى سوف تتعرض للظلم ،واقترص الأمر على الولاء غير الملزم فقط تجاه أى من هذه الطبقات فى التحرر من الارتباط بهذه الطبقات ؛ ولذا كان من المرجح الحفاظ على الحيادية فى التعامل مع هذه الطبقات، وكان نور الحكم هذا البعيد عن المجتمع الذى يحكم فيه و الذى عرف بعيشه من أجل مصلحته الخاصة إلى حد بعيد وليس لأية مصلحة فى المجتمع هو نور الملك ، وكان الملك الذى يقوم بهذا الدور ويتحرى نيل كل مصلحة ما تستحق من الاهتمام وليس أكثر مما تستحق ملكاً " عادلاً " .

ويفسر هذا المفهوم للملكية والعدالة السبب فى أنه فى كثير من المواقف التى قد يتوقع فيها المؤرخون المحدثون لمجتمعات الشرق الأدنى فى هذه الفترة أن تتوق للتحرر أنها كانت تتوق لأن تخضع للحكم بدلاً من ذلك ، وعندما هزم الفتكين من عضد الدولة زحف على دمشق حيث كان الحاكم الفاطمى قد أجبر على الرحيل عنها لتوه وبسط

الأحداث سيطرتهم على المدينة و « لم يستطع الأعيان ممارسة أية سلطة عليهم ، كما لم تستطع الحكومة حملهم على الطاعة » ، وإذا فعندما اقترب الفتكين من المدينة توجه الأشراف والشيوخ إليه وطلبوا منه البقاء معهم ، وأن يتولى حكم مدينتهم ، وأن « يخلصهم مما حل بهم من بلاء على أيدي الأحداث » ، وبإيعوا الفتكين الذى أقسموا « له يمين الطاعة والوقوف إلى جانبه ؛ وأقسم أن يحميهم من التعرض للأذى من جانبه أو من غيره » ، وقام باستئصال شأفة « العناصر المدمرة » وطرد البدو « وهابه جميع الناس وأطاعوه راضين قرحين » (١) ،

وقد أتيح لقليل من المجتمعات التى كانت تعيش فى الأرض الحرام الواقعة بين الممالك والتى كان بها جماعة من الأحداث العدوانيين بشكل غير عادى ما أتيح لدمشق من طلب الاستقلال ، ولم يحقق أهل دمشق أى تفوق واضح على مهاجميهم الخارجيين بقبولهم الفتكين حاكما عليهم ؛ نظرا لأن الفتكين لم يكن بمعيته عدد كبير من الجند ، كما أنه أقر باعتماده على " أقوات وثروات " الدمشقيين ؛ ولذا فهم لم يكونوا يسعون إلى تبرئة أنفسهم فى أعين مهاجميهم لمعارضتهم للفتح أو يبحثون عن جيش من المدافعين بقبولهم الفتكين ، لكنهم كانوا ينصبون شخصا غريبا رئيسا لمجتمعهم الذى لم يكن بمقدوره القيام بوظائفه بدونه .

ولم تتح للكثير من المجتمعات التى حكمها البويهيون فرص مماثلة للاختيار بين الحكم المتولد من داخل هذه المجتمعات أو شخص غريب يتم اختياره أو قبوله ملكا ، وعندما واجهوا مثل هذه الاختيارات اقتدوا بالدمشقيين ؛ وعلى سبيل المثال فى عام ٣٨١ هـ جاءت الرسائل إلى بغداد من أهل الرهبة والركه تطالب الحكومة البويهية بإرسال شخص ما يمكن للسكان تسليمه أراضيه فى شمال العراق و التى كانت - نظرا للفوضى التى خلفها تغير النظم الحاكمة فى تلك المنطقة - بلا حكومة بصورة مؤقتة ، والواقع أنه تبادر إلى الأذهان تلقائيا أن البلد لم يكن له نظام للحكم يمكن أن يملأ الفراغ الذى خلفه الحاكم المنصرف ؛ ولذا فإذا ظل البلد بدون حاكم من خارجه حتى وإن كان ذلك لفترة قصيرة لكان ذلك أمرا مثيرا للدهشة .

وعندما رحلت قوات ماردانويج عن أصفهان فى مقابل اعتراف الخليفة بالزياريين كتب ماردانويه عن ذلك يقول إن البلد ظل مدة سبعة عشر يوما بدون حاكم ، شاغرة

جبالية من مدبر" حتى وصل الشخص الذى عينه الخليفة ، ومصطلح شاغر الذى استخدمه ماردأويه فى العبارة الأخيرة هو مصطلح فنى يناسب بلد خاو وأعزل كهذا تماماً ، وفى حين تؤكد كافة المعاجم أن مثل هذا البلد كان معرضاً لهجوم خارجى لكونه " خالياً من أى شخص لحمايته " فإن تعريف الفيروز بادی ( المتوفى عام ٨١٦ هـ) للأرض الشاغرة يوضح أن كون هذا البلد " عرضة للهجوم " كان يرجع بصورة جزئية إلى افتقاره لإدارة تلم شمله من الداخل ، وكتب فى قاموسه أن الأرض المكشوفة " هى " الأرض التى لم يبق بها أحد للدفاع عنها وإدارة شئونها بحكمة أو حذر أو رأى سديد " (٢) .

ويفسر ميسكاويه - بصورة غير مباشرة - دور الملك فى منع المصالح الحزبية من اكتساب الصلابة أو التجمد للإضرار بالآخرين وظلمهم ؛ فى وصفه لعواقب ظلم الوزير ابن باقيه وسوء إدارته وإهمال كافة أشكال العمل الحكومى من جانب مستخدمه عز الدولة ، و عندما بلغت الأمور مثل هذا الحد كتب يقول إن " هيئة السلطة قد ضاعت وشق العامة عصا الطاعة وهاجموا بعضهم البعض ، و ظهرت الأهواء والمطامع وشاعت الجريمة ... وقطعت موارد الثروة ودمرت الأقاليم النائية ومعها العاصمة ، وظهر فى كل قرية رئيس من نفس المكان وأمسك بزمامها وتنازعوا مع بعضهم البعض ، وخرج السلطان صفر اليدين وحل البلاء بالرعية و أصبحت الديار مهجورة ونقصت موارد الطعام وعم التمرد و الفوضى صفوف الجيش ، " وكانت "هيئة السلطة " التى أخفق عز الدولة فى بعثها - ويجب أن يكون ذلك ماثلاً فى الأذهان - هى نفسها ما نجح ألفتكين فى بثه فى قلوب الدمشقيين (٣) .

ولذا كانت عدالة الملك تكمن فى منع الجماعات ذات المصالح المتداخلة والمتعددة فى المجتمع من التجمد كوحدات منفصلة ومستقلة ، ونظراً لأن المجتمع ارتضى لنفسه نظاماً لتدرج العلاقات قام بمعايرة المرتبة على نحو مختلف حسب الجماعة التى كان ينظر الى المرء بمعيتها ؛ فقد كان من الصعب بالنسبة للجماعات ذات المصالح المشتركة التى تقوم على المراتب أن تتجمد على طول حدود الطبقة ؛ وإذا كان الإبقاء على الناس فى مراتبهم جزءاً مهماً من دور الملك كما قالها عضد الدولة صراحة ، وبذلك حافظ الملك على النظام الذى ضم الكثير من المراتب بقدر ما كان يضم من الناس والكثير من نظم الترتيب بقدر ما كان يضم من الجماعات .

ومع ذلك لم يُبق الملك عليهم فى مراتبهم بفضل وضعه على قمة الهرم الاجتماعى ولكنه قام بذلك كشخص غريب ، كرجل فوق الطبقات والتصنيفات المرتبطة بها ، ونظراً لأن الجيش كان الطبقة الوحيدة التى اشترك فيها الملك ( وقام بذلك فى خطوات عدة نظراً لأن لقبه كان يقوم بصورة جزئية فقط على قيادته العسكرية ) وتعين على الجيش أن يتألف من رجال كانوا منفصلين عن المصالح الخاصة وغير مرتبطين بالطبقات الموجودة فى الأمة شأنهم فى ذلك شأن الملك ، وكانت الجيوش التى تم تجنيدها من السكان الذين استقروا فى الشرق الأدنى فى هذه الفترة نادرة وذات شأن ضئيل للغاية ، وعن طريق من كان تحت إمرته من غرياء توفرت للملك أداة جبرية أتاحت له أن يكون حكماً عادلاً كما أراد المجتمع ، و الواقع أن الملك قد لا يثبت كونه عادلاً فى استخدامه للسلطة القسرية ، لكن معظم الناس فى العهد البويهى كانوا سيتفقون مع ماكولى على أنه إذا كان ظالماً " فإن اهتمام الحاكم بحماية رعيته ضد كافة أعمال السلب و النهب والانتهاكات عدا ما اقترفت يداه هو نفسه شديد للغاية ، والوسائل التى تستخدم لبلوغ هذه الغاية واضحة وبسيطة للغاية إلى درجة أنه من المرجح أن يكون الناس أفضل حالاً فى ظل أسوأ حكومات فى العالم من أن يكونوا فى حالة من الفوضى " (٤) .

وكما وصفناها فقد كانت طبقات المجتمع البويهى من ذلك النوع من الطبقات الذى لم يكن من المرجح له أن يأتى حتى " بأسوأ الحكومات " ؛ فإذا ما ترك أمرهم بأيديهم أتوا بالفوضى ولم يكن ليتوقع إلا لشخص غريب فقط يفصل نفسه عن مصالح المجتمع أن يجد أن من مصلحته الخاصة بشكل واضح بحد ذاته ألا يحابى طرفاً ما بشدة بحيث يتاح له أن يدمر أو أن يقهر الأطراف الأخرى بشكل دائم ، وطالما كانت مصالح رعيته غير متقاربة ولكنها متداخلة كان لديه بين هذه المصالح المتزاحمة وسيلة فعالة للتعامل مع رعيته ومنع الفوضى التى من شأنها جعل مملكته عقيماً لا خير فيها بحيث تستحق السلب والنهب .

وتوضح التعريفات السابقة للظلم أيضاً أن الناس فى العهد البويهى لم يعتقدوا بأنهم يواجهون الاختيار بين " الحرية " و " الظلم " ، والظلم طبقاً لما ذكره معظم المعاجم العربية الأولى يعنى " وضع شئ فى غير موضعه المخصص له " ؛ ومن ثم التصرف كما يحلو للمرء للتخلص من ملكية شخص آخر " ؛ وكذلك " تجاوز الحد

المناسب ، "ولذا كان وضع الأشياء فى موضعها الصحيح ومنع الناس من التبعدى على بعضهم البعض خاصة ملكية بعضهم البعض مقابلا للظلم ، وأكثر الكلمات شيوعاً للتعبير عن العدالة كلمتا عدل وإنصاف ، وكلتاهما تعنيان اشتقاقيا ، وفى الاستخدام الفعلى " التوازن " بحيث لا تكون هناك أية زيادة أو قصور يقضى على التوازن ، وغالباً ما كانت الحكومة فى العهد البويهى " ظالمة " بمعنى أنها تجاوزت الحدود المناسبة واستولت على ممتلكات رعييتها وأضرت بهم ، لكن الحكومة وحدها كانت فى وضع يمكنها من الحفاظ على التوازن الذى كان من المرجح للطبقات الموجودة أن تقضى عليه إذا ما تركت لها الحرية كي تتجرف ، وأحس الناس بأنه من الأفضل لهم تحمل الظلم المحدود (الذى لم يشعروا بأية مسئولية أخلاقية عنه ) من جانب الملك طالما كان وجود الملك يمنع الناس من ظلم بعضهم البعض بلا حدود (٥) .

وكانت الحكومة فى العهد العباسى تأمل فى أن تشكل شيئاً ما أكثر من مجرد ضرورة ملحة ، وقد تولى العباسيون الحكم فى منتصف القرن الثانى هـ/الثامن م كزعماء لحركة غيبية ، وكانت شيعتهم تعبيرا عن الفرقة الناجية التى من شأنها أن تجمع شمل الأمة فى ظل الحكم الإسلامى الصحيح فى آخر الزمان طبقا للاعتقاد الشائع ، كما أتاح هذا الدور لرعييتهم أيضاً إمكانية الارتباط بالحكومة بشكل وثيق عن طريق الانضمام إلى " الفرقة الناجية " ، ورغم ذلك فسرعان ما كان واضحاً أن " العباسيين " لم يكونوا شخوصاً نوى نقاء مسيحي ، وأن كثيراً من رعاياهم لم تكن لديهم الرغبة أبداً فى قبول العباسيين على هذا النحو ، ولم يعد العباسيون يزعمون أنهم يستطيعون إنقاذ رعاياهم بطريقة مباشرة لكنهم زعموا أن لهم دوراً كبيراً فى إرشاد المجتمع الإسلامى لإنقاذ نفسه ، وحاولوا توجيه تطور الفقه الإسلامى وعلم الدين عن طريق الاصطناع وإصدار المراسيم ؛ وحاولوا جعل الطاعة للعباسيين جزءاً مكملًا للعقيدة الإسلامية .

وحتى وإن لم يقبل رعاياهم هذا الزعم الأخير فقد توافق مجتمع الواجبات والالتزامات الذى اشترك فيه المسلمون مع مجتمع السلطة السياسية فى القرن الأول من الحكم العباسى ، وكان يمكن للخلافة التى شجعت على التعريف المتزايد بهذه الحقوق والالتزامات أن تدعى لنفسها مكاناً راسخاً فى النسيج الذى شكلته ، وقد ساعد الصغر النسبى للمجتمع الإسلامى فى بداية العهد العباسى على هذا التوافق الوثيق ولكنه كان وقتياً ، وكذلك ما كان من شبه تطابق بين المجتمع الأخلاقى

والسياسى وكان المسلمون أقلية ونوعا من الطبقة الحاكمة بفضل ارتباطهم الأكبر بالخلافة ، ونظرا لأن الروابط كانت بين الأفراد بشكل كبير ولم تكن بين الجماعات المحددة بشدة ؛ فقد كانت هذه الطبقة الحاكمة ما تزال صغيرة بصورة كافية ولديها مصلحة مشتركة كافية ذات امتياز الحفاظ على وحدتها بالاشتراك مع الدولة .

وقد جعلت قوى الطرد المركزية التى كانت موجودة فى أية إمبراطورية والحقائق المستعصية والبغيضة للحكم العباسى وتوسع المجتمع المسلم من الواضح أن تطابق المجتمع الأخلاقى والسياسى لن يستمر ، وتوقف المجتمع المسلم عن القيام بدور الطبقة الحاكمة وذلك عن طريق التحول والاستيعاب ، وشعر المسلمون بأن كثيراً من الروابط الرئيسية والأفقية للهوية التى ورد ذكرها فى الفصول السابقة تتجاذبهم ، وعلاوة على ذلك فقد بدا الخليفة العباسى على أنه يحافظ على السلطة لصالح الخليفة العباسى دون سواه ، ومع تهاوى الحكم العباسى وانهيائه تمت إزالة إحدى الجداول المركزية التى ادعت بأنها الجديلة المسيطرة من نسيج المجتمع الأخلاقى للواجبات والالتزامات التى وحدت المسلمين ، وكان جزء من مهمة المجتمع ما بعد العباسى إعادة تعريف المجتمع الأخلاقى الإسلامى على نحو سوف يعلل الظروف الجديدة ، ولم يكن بمقدور الحكومات الجديدة بعد ذلك كله أن تدعى الشرعية كجزء مكمل لهذا المجتمع الأخلاقى ولم تتفق من حيث امتدادها الجغرافى مع هذا المجتمع .

وتبنت الحكومة البويهية التى كانت وريثا للحكم العباسى فى قلبه تماما نظاما لا مركزياً للحكم ، وقد أثرت هذه اللامركزية على الطريقة التى اتبعتها مجتمع الالتزام الأخلاقى والحكومة لإعادة تعريف علاقاتهما ، وكانت اللامركزية مفروضة على البويهيين الى حد ما نظرا لضعفهم العسكرى والمالى والتى شجعت بدورها التطور السريع للممارسات الإدارية فى أوساط البويهيين والتى سوف تتم محاكاتها فى أجزاء أخرى من العالم الاسلامى فيما بعد ، وتنازلت الحكومة عن نسبة كبيرة من حقوقها المالية بإستادها لموظفيها كإقطاعات (حيث تم إسناد تحصيل الإيرادات الحكومية والاحتفاظ بها لأناس تعيينهم الحكومة)، وكان يتم السماح للقبائل بالسيطرة على المناطق المستقلة بشكل متزايد حيث كانت تدفع لهم الخفارة ( " أموال الحماية " ) ومن المفترض أن ذلك كان فى مقابل طاعتهم لكن ذلك من الناحية العملية غالبا ماكان بقصد منعهم من نهب رعايا الحكومة المستقرين ، وحافظ الملوك على الخلافة ، ذلك

المنصب الحكومى غير القابل للاقتسام ، وذلك لإضفاء الشرعية على الحكومة الفعلية حيث اعتبروا ممالكهم وألقابهم قابلة للاقتسام بشكل مطلق ، وأصبحت أهوار جنوب العراق والأقاليم القبلية مناطق للملاذ وأصبحت حدود الخلافة بمأمن من الوقوع فى قبضة الملك .

وأصبحت الإدارة أقل تدرجاً وظهر الفئاض فى الوظائف فى جميع مستويات الإدارة من ازدواجية الوزارات إلى إدارة الوحدات المحلية ، وكان من المرغوب فيه فى الحكومة اللامركزية أن تكون لها خيوطا بديلة لجذبها (كما كان يحدث بسهولة وبشكل متكرر) فى حالة اختفاء أى خيط ، واستفادت المناصب الوسطى والدنيا فى الإدارة من الأسلوب اللامركزي للإدارة البويهية لإيجاد علاقات خاصة مع القبائل ، وأصحاب الإقطاع والقادة المحليين ومن شابههم ، وأدت هذه الروابط الخاصة إلى جعل المبدأ التدرجى فى الحكومة أكثر ضعفاً .

وفى الوقت الذى أصبحت فيه مهمة كل منصب إدارى أقل تحديداً وتسلسل السلطة أكثر انتشاراً أصبح عالم الوضع الإدارى لا مركزياً بصورة أكبر ، وكانت الألقاب مثل رئيس ووزير حكراً دائماً على الرجال الذين بلغوا هذه المنازل وأخذت المنزلة ترتبط بالمرء بشكل متزايد ولم يكن باستطاعة الحكومة تجريدهم منها ، وكان هناك ميل متزايد فى الوقت ذاته فى أنحاء المجتمع لاعتبار المقدرة وراثية وإسناد المناصب على هذا الأساس ؛ ولذا أخذت قدرة الحكومة على منح المنزلة تتناقص ويقدر اكتساب الرجال للمنزلة أخذت قدرة الحكومة تتضاؤل على انتزاع مثل هذه المنزلة المكتسبة .

وإذا كانت الإدارة قد أصبحت أقل مركزية وأقل تدرجاً فإن الحكومة المركزية لم تضعف وتتحول إلى مجرد حلية على قمة المجتمع أو حكومة استبدادية بعيدة فرضت على المجتمع ضد إرادته، ولم يخرج الناس للبحث عن ملك فحسب عندما كانوا " عرضة للخطر " لغياب الملك ولكن كان بإمكان الملوك أيضاً إكراه رعاياهم وخاصة جيوشهم بتهديدتهم بالتخلى عنهم ، وفى أواخر العهد البويهى أرادت الحامية التركية فى بغداد من الملك البويهى الضعيف جلال الدولة القدوم إلى بغداد ؛ نظراً لأن المدينة وإقليمها كانا يتعرضان للتدمير بسبب " طموحات " العامة والأكراد والعرب و " لم يكن لديهم سلطان يجمع كلمتهم " ، ورغم ذلك فقد يئس جلال الدولة فى نهاية

الأمر من إمكانية قيامه بذلك نظرا لعجزه عن السيطرة على الترك أو حتى إطعام جياده هو نفسه حتى أنه قام فى عام ٤٢٢ هـ بطرد جميع رجاله وأغلق أبواب مدينته ، ونتيجة لذلك فقد اندلعت الفتنة حيث حارب الجيش العياديين ، ولم يسرع أبو كاليجار وكان أحد أقارب جلال الدولة ذوى السطوة والنفوذ إلى بغداد كى يحل محله على الرغم من أن كلا هذين البويهيين كان خصماً للآخر ؛ وكان ذلك لما ذكره صراحة من اعتقاده بأن الضعف المتزايد دوما للترك سوف يزيد من حاجتهم اليه ، وفى نهاية الأمر أتى الترك لنصرة جلال الدولة ، ولم يكن لديهم أى جواب على حجته أنهم عندما أصبحوا بدون ملك لم يتمكنوا من الإتيان بملك من بنى جلدتهم أو الحفاظ على التوازن فى المجتمع (٦) .

وقد حافظ الملك على التوازن وأبقى على الولاءات متداخلة ومنع المصالح من التجمد ويرجع السبب فى ذلك بصورة جزئية إلى التنوع الكبير للولاءات الشخصية التى حصل عليها بالطريقة التى ورد ذكرها فى الفصل الثانى ، ومع ذلك فقد كان الشاغل اليومى الرئيسى للملك سلطته العسكرية التى منحتة السلطة الجبرية على رعيته ، ومن المدهش مدى ندرة استخدام هذه السلطة الجبرية بشكل فعلى؛ لكن وجودها الحقيقى والتهديد الدائم باستخدامها كان أساسياً للحفاظ على النظام الاجتماعى المقبول بصفة عامة .

وكانت الروابط بين الحكومتين المركزية والمحلية تتحدد - الى حد ما - من خلال الطريقة التى تكشف بها عن نفسها ( والطريقة التى ينظر بها إليها ) - كراع ملكى وكشخص غريب بيده القصاص ، والواقع أن كلا من هذين الوجهين للحكومة المركزية كان متفقاً مع الآخر ويعتمد عليه على نحو ما لتحقيق أثره الملائم ، وقد تعلمت الجماعات المحلية كيفية الارتباط أو عدم الارتباط بالحكام المختلفين بسرعة تتناسب مع مواقفهم غير المؤكدة ، ورغم ذلك فقد أدركوا هم والحكام التبعية بين الحكومة المحلية والحكم المركزى وأن " الكل " الذى يتألف من الحكومة المحلية والمركزية كان مختلفاً على الأقل - إن لم يكن أكبر- عن مجموع أجزائه ، وساعد التهديد باستخدام السلطة الجبرية على خلق شكل الكل حتى عندما لم تكن هذه السلطة تُستخدم ، وكما رأينا فالرئيس لم يكن معيناً من قبل الحكومة بالنسبة للكثير من الجماعات ؛ لكن الحاجة للرؤساء - وبصورة عامة أكثر الحاجة إلى طبقة محددة على نحو يتسم بالوعى الذاتى

للأعيان - كانت مشروطة بالتهديد باللجوء للإكراه ، ومن ناحية فقد وجد الناس تشجيعاً على الفصل في النزاعات دون اللجوء إلى الحكم الملكى وقبول نتائج مثل هذا التحكيم ؛ نظرا لرغبتهم في الإتيان بالتحكيم الجبرى للحكومة كملجأ أخير فحسب ، ومن ناحية أخرى أقرت الحكومة المركزية والمجتمع المحلى كلاهما بميزة تسوية النزاعات عن طريق روابط الاصطناع الشخصى التى أوجدها الأعيان عن طريق رعاية من هم دونهم فى المجتمع المحلى ومن هم فوقهم فى البلاط الملكى ، وكان ارتباط الحاكم بالسلطة الجبرية لجيش دخیل - كما رأينا - أقوى فى العهد البويهى منها فى العهد العباسى حتى أن الكتبة - على سبيل المثال - كانوا أقل ارتباطا بالنظام الحاكم وتم الدفع بهم الى أسفل داخل المجتمع كطبقة أخرى .

وغالبا ما كان يطلق على هذه " البرهبة " النافعة التى كانت تحيط بالسلطة الملكية بفضل تهديدها باستخدام السلطة الجبرية " الهيبة " ، فكما رأينا فقد كانت هيبة الملك الحسنائويه بدر التى منعت الطوائف من " تجاوز الحد " فى حياته ، وعندما تردد الخليفة فى عام ٣٠٦ هـ فى قبول حميد بن العباس وزيراً ؛ نظراً لأنه تلقى قدراً ضئيلاً من التدريب على المهارات الفنية للمنصب أقنع الخليفة بقبول حميد ؛ نظراً لأنه من بين أشياء أخرى فقد كان " عمال بيت المال يشعرون بهيبة حميد ، " وعلى النقيض فعندما تمادى العيارون وأسرفوا فى إيذاء أهل بغداد بشكل رهيب فى عام ٤١٦ هـ ولم تستطع الحكومة التصدى لهم تخبرنا المصادر أن هيبة الحكومة قضى عليها (٧) .

ومهما كان وجود الملك ضروريا فقد كان يتعين تفسيره من خلال القيم العامة للمجتمع الإسلامى فى العهد البويهى ، وبعد كل هذا فقد كانت الملكية سمة بغیضة أخلاقيا للنظام القديم الذى حل الإسلام محله ، وكان المراد للإسلام من وجهة نظر الأغلبية الساحقة من أتباعه ألا ينشئ ممالك ولكن أن ينشئ أمة ذات حكومة معينة إلهيا تقوم على القانون الإلهى تدوم إلى يوم الدين ، وكلمة ملك فى اللغة العربية مرتبطة بالفعل ملك و كان أى شخص يدعى ملكيته للعالم أو جزء منه غاصبا ببساطة ، وكما يقول القرآن مرارا فالله وحده هو " الملك الحق " وله ملك (أو السيادة) على السموات والأرض " كما أنه " مالك يوم الدين " ، والله وحده هو الذى يعير هذا الملك للناس لكن لقب الملك الدائم يبقى لله ؛ وكما يقول القرآن . قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلُوكِ تُؤْتِي الْمُلُوكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلُوكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ( آل عمران الآية ٢٦ ) ولم يكن الخلفاء

الحقيقيون ملوكاً بل كانوا مستخلفين أداروا ما استخلفهم الله فيه على علم تام بأنهم لا يملكون شيئاً ؛ ذلك أن العالم والحكم على مسلكهم فيه كان يخص الله وحده .

ولم يكن هناك سبيل إلى التمييز بين الخلفاء و الملوك من الناحية العملية بالطبع ؛ لكن ادعاءاتهم التي كانت تقوم على هذه الحجة ضد الملكية لم يتسنى نقلها إلى البويهيين ومعاصريهم ، ويبدو أن وجود هؤلاء الحكام الجدد قد تم تفسيره من البداية من خلال الدولة وهي الدور الممنوح إلهياً في تولى السلطة وهي فكرة متفقة تماماً مع الآية القرآنية المذكورة بعاليه ، وقد ادعى العباسيون أن دولتهم كانت مرادفاً لدولة الإسلام وأن السلطة سوف تظل معهم إلى يوم البعث .

وقد أثبتت الأحداث أن هذا الادعاء كاذب وفتحت الطريق أمام تفسير أكثر مرونة للدولة ؛ ويبدو أن الناس قد فسرُوا حكم البويهيين من البداية على أنه دولة جديدة ، وظل البويهيون يدعون رسمياً أنهم يعيشون في دولة العباسيين ؛ ولذا فقد قبلوا الألقاب كمعز الدولة وعماد الدولة " والمقصود بالدولة هنا الدولة العباسية " ، ورغم ذلك فقد أقر الناس بشكل غير رسمي بأن دور الدولة العباسية كموضع للسلطة المستقلة قد انتهى ، وقال المهلبى الوزير ذو التعليم العالى للبويهيين الأوائل فى العراق " سوف أكون أول من يخلد ذكره فى دولة الديلميين ؛ لأننى نجوت من أن أصبح آخر من يخلد ذكره فى دولة العباسيين " ، ومهما كان ارتباط الخلافة بالرموز الرئيسية للإسلام وثيقاً فقد أثبتت الظروف أن الحكم الفعلى سوف يكون مرتبطاً بها بشكل وثيق ولكن بدرجة أقل ، واستخدم المقتدر وهو واحد من آخر الخلفاء العباسيين الذين حكموا وملكوا حقاً عصا الرسول و عبايته و كل رمز فعال تحت تصرفه فى اختباره للسلطة مع قائده مؤنس و استشهد أحد الكتبة كان حاضرا بقصيدة تقول " عندما أعمل القدر مخالبه لم يعد هناك نفع لكل التمايم " (٨) ،

وبعد مرور قرن على ذلك كان من المتفق عليه على نطاق واسع أنه سوف تكون هناك منح جديدة متواصلة للملك و السيادة و أن - كما أصبحت كناية شائعة - قميص الملكية سوف ينتزع بالقوة من أحد الرجال أو إحدى الأسر الحاكمة ويعطى لغيره بما يتفق مع حكمة ما إلهية أعمق ، وقال المقتدر " سوف أفعل ما فعله (الخليفة الثالث) عثمان بن عفان ؛ فلن أسلم الحق الذى عهد به الله إلى ولن أجرد نفسى من قميص قد ألبسنى الله إياه " ، ولكنه بعد مرور قرن على ذلك يفسر البيهقى وزير

مسعود الغزناوى ( المتوفى عام ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م ) سلطان سادته الغزناويين بقوله " إذا قال أى شخص مفتر أو حسود أن هذا البيت العظيم جاء من أصل وضيع أو مجهول فالإجابة عليه هى أن الله منذ أن خلق آدم قدر انتقال الملك من إحدى الأمم الدينية إلى أخرى و من جماعة إلى أخرى ، وأعظم شاهد على ما أقول كلمات الخالق : **قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ** (آل عمران الآية ٢٦) ، وهكذا يجب إدراك أن نزع الله لقميص الملك من إحدى الجماعات ولباسه لجماعة أخرى هو حكمة إلهية بذلك المعنى وإصالح البشرية ، فهى حكمة تفوق فهم البشر ... ( والله وحده يعلم ) أنه فى مكان ما سوف يظهر رجل ما يظفر الناس عن طريقه بالسعادة وحسن الحظ ، وعندما كتب مسعود رسالة تهديد إلى السلجوقي طوغرل بيج وذلك قبل وقت قصير من تعرضه لهزيمة ساحقة على أيدي السلاجقة قلب طوغرل الحجة على الغزناويين بنفس الآية القرآنية ( آل عمران الآية ٢٦ ) (٩) ،

ولم يفسر الفهم الجديد للدولة الملكيات الجديدة فحسب بل أعاد توزيع المسئولية الأخلاقية المرتبطة بالحكومة أيضا ، وكان لدى الديلميين خبرة ثرية بطاعة وخيانة الملوك ضعاف الشأن والخلفاء المناوئين عندما قاموا بفتح غرب إيران والعراق ، وكان البويهيون من الشيعة لكنهم أبقوا على مذهبهم الشيعى غير محدد وقابل للتكيف مع منافع حياتهم السياسية ، ولم يزعموا - كما فعل العباسيون - أنهم أتوا إلى رعاياهم بحقيقة أخلاقية ما كى يعلموهم إياها ، ولم يدعوا كما يفعل القادة الديمقراطيون المحدثون أنهم يأملون فى معرفة أية حقيقة أخلاقية قد يرغب ناخبوهم فى تعليمها ، والحقيقة أنه حتى عندما كانوا فى أوج مجدهم فقد كان ينظر إلى العباسيين بعدم اكتراث أو حتى عدا من قبل الكثير من رعاياهم ، لكن العباسيين حاولوا إقامة الدليل على أن النجاة يمكن أن تأتى عن طريق الطاعة للمجتمع الإسلامى الحقيقى الذى كانوا يحاولون بناءه ، وكان البويهيون - على أقصى تقدير - أناس منحت لهم الدولة لأسباب لا يعلمها غير الله ، واستطاع البويهيون الظهور بمظهر الحماة فقط للمحاولات التى قام بها المجتمع لانقاذ نفسه ، وتعكس الألقاب الكاملة للبويهيين المتأخرين هذا الموقف المتغير للحاكم ؛ والواقع أنه على غرار اللقب الموحد ب " الدولة " فقد اتخذ جميع البويهيين المتأخرين ألقابا أطلقت عليهم حماة الأمة ، والملة ( المجتمع الإسلامى ) ، والدين نفسه ، وكانت الحكم عملا لأقلية صغيرة منحت لها دولة ، وتعين أن يكونوا غرباء وأقلية كى يقوموا بأداء عملهم ؛ ولذا لم يتمكنوا من الظهور

بمظهر أداة للنجاة بالنسبة لرعاياهم ولم يتمكنوا من دعوة رعاياهم للارتباط بحكمهم بهذه الطريقة ، واستطاعوا على أقصى تقدير الزعم بأنهم يحمون المجتمع الذي ربما أدرك فيه رعاياهم قيمهم الأخلاقية والدينية .

وأدت إعادة التوزيع هذه للمسئولية إلى تحرير الأمة من بعض المسئوليات الأخلاقية تجاه الدولة و بالمثل فقد حررت الدولة من بعض المسئوليات الأخلاقية تجاه رعاياها ، ويستشهد الرزراوى فى معرض تعليقه على الضرائب غير الرسمية التى فرضها عضد الدولة بالحديث الشهير " من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ؛" ولذا فقد شعر الرزراوى بالصدمة لما ألحقه عضد الدولة من خزي وعار بـ " إبراهيم الصعبى " رئيس مستشاريه عز الدولة لكتابته رسالة نيابة عن عز الدولة بعبارات تسيء إلى عضد الدولة ، ويقول الرزراوى " هب أن عضد الدولة قد أمره بالقيام بما أمر به بختيار ( عز الدولة ) ؛ فهل كان بمقدور الصعبى أن يقاوم عندما يكون خاضعاً لسلطانه ؟ "

وكان معظم الحكام البويهيين أكثر تفهما من عضد الدولة ، وكان جلال الدولة يرغب بوضوح فى لقب ملك الملوك على الرغم من أن (النبي) محمد ( ﷺ ) أطلق على هذا اللقب فى حديث متفق عليه على نطاق واسع أنه " أبغض الأسماء عندي " ، وسأل الخليفة الفقهاء عما إذا كان مثل هذا اللقب جائزا وكان المواردي الفقيه الوحيد ذو الشأن الذى خالف الرأى ، وفى أول مرة رأى فيها جلال الدولة المواردي عقب مخالفته قال له " إن الجميع يعرف أنك أعظم الفقهاء ثراء وجاهاً وأنت من المقربين عندي ، وقد خالفت الآخرين بمعارضتك رغبتى ؛ لكنك لم تفعل ذلك إلا لحاجتك إلى الانحياز ولزوم الحق " (١٠) .

وكنتيجة طبيعية للفهم الجديد للدولة والمسئولية الأخلاقية المخففة للمجتمع تجاه الحكومة ومسئولية الحكومة تجاه المجتمع ؛ أن شعر الناس بأن العواقب الوخيمة لطموحاتهم السياسية التى لم تشكل ممارسات راسخة تقع عليهم هم وحدهم ، وكان هذا دافع للمدققين لأن ينحوا الطموح السياسى جانبا ، وكان تشجيعا لمن هم أقل تدقيقا للأخذ بزمام المبادرات السياسية ، وفى نهاية القرن الرابع الهجرى كاد مغامر يدعى أبورخوه أن ينجح فى الإطاحة بالفاطميين ، وعندما وقع فى الأسر فى نهاية

الأمر كتب الى الخليفة الفاطمي يقول " لقد أخطأت لكننى لم أظلم بذلك إلا نفسى وقد أوردنى سوء تصرفى مورد الهلاك ، " وتبعاً لذلك فغالبا ما كان الناس يرفضون تنفيذ أوامر ملك متوفى ( كانت سلطته شخصية بدرجة عالية على أية حال ) ؛ نظراً لأن المسؤولية الأخلاقية لم يعد بالإمكان القائها على عاتق الملك ، وعلى سبيل المثال فعندما سمع حاكم سيراف الذى أمره شرف الدولة بإذهاب بصر المدعى البويهى السجين سمس الدولة أن " شرف الدولة " قد توفى رفض تنفيذ العمل الذى كان شرف الدولة قد كلفه به ؛ نظراً لأن " سلطة القيام بذلك قد توقفت ب وفاة شرف الدولة " (١١) .

كما جعلت المسؤولية الأخلاقية المخففة بين الملك والرعية الملك حراً أيضاً كي يطبق نوعاً من القانون الذى كان المجتمع يأمل فى حمله على تطبيقه ؛ والواقع أن ذلك كان أمراً أساسياً لوضعه كحكم فوق مستوى الطبقة ، وفى إحدى قصائده لسيف الدولة الحمدانى قال شاعر القرن الرابع الهجرى البيهقى " إن من لم يجمله العدل لفرط جموحه متى يظلم يتجمل ، " وقد مارس الخلفاء وكذا الملوك العدالة الجزئية ؛ لكن المجتمع شعر بمسؤولية أخلاقية أقل تجاه الملوك و كان يأمل فقط فى فوائد وظيفية معينة من وجودهم ، وكما ذكرنا فإن إحدى هذه الفوائد كان منع أية مصلحة بعينها من الاستحواذ على انتباه أولئك الذين اشتركوا فى تلك المصلحة ؛ ولذا فقد وجد الملك تشجيعاً - إلى حد ما - على التغاضى عن " الحق " كما حدده القانون الإلهى وتطبيق الحلول الاحتمالية والمتعلقة بالصالح العام ، وعندما نشب القتال بين الشيعة والسنة فى بغداد أمر الملك بإغراق أحد الأفراد من كلتا الطائفتين فى نهر دجلة ، وكان مثل هذا العقاب النموذجى أساسياً لهيئة الملك وفرض التسوية (١٢) ،

وعن طريق التحرر من قيد الحكومة والأعباء الأخلاقية للحكومة وإعطاء سلطة هائلة للحكومات فى الوقت ذاته حرر المجتمع الإسلامى فى العهد البويهى نفسه ، كي يحافظ على مجتمع الواجبات والالتزامات فى مستويات الحياة دون مستوى الحكومة ، ويفسر ابن الأثير أنه على الرغم من فقد قابوس لمملكته بتقديمه العون للملك البويهى فخر الدولة لم يقيم فخر الدولة - عندما أصبح ملكاً - بإعادة جرجان إلى قابوس المشرد ؛ نظراً لأن " الملك عقيم " كما يقول المثل ، وتوقع الناس أن يكون الملوك فوق الطبقة وأن يقدموا شئون الدولة حتى على الولاءات الهامة المكتسبة كالنعمة ، ومع ذلك ظل هيكل الالتزام سليماً وقام بالوظائف التى لم تكن الحكومة المركزية مهتمة بالقيام

بها. أو قاذرة على القيام بها ، وقد شجعت الحكومة بتهديدها البعيد وروابطها الخاصة بالاصطناع الشخصى المجتمعات المحلية على الحفاظ على هيكل الالتزام والرئاسة الذين قمنا بدراستهما (١٣) .

وجتى خارج حدود المجتمع المحلى فقد تم الإبقاء على مجتمع " بولى " نى امتياز وقانون ، وتم إنشاء مجتمع أخلاقى نوولاءات شخصية بصورة كبيرة - وإن كانت متداخلة إلى ما لا نهاية - أخذ على عاتقه القيام بالكثير من وظائف الحكومة ، وكأفراد فى هذا المجتمع تشبث الكثيرون جدا بومم الخلافة الإسلامية العالمية ، وقد تعلم هذا المجتمع خلال القرنين العاشر والحادى عشر كيفية تحديد علاقاته بالحكومات الفعلية حتى يتسنى له الصمود فى وجه التغييرات المتكررة للحكومة المركزية ، وأدرك هذا المجتمع حدوده وإمكاناته تماما حتى أنه لم يختلف كلية أبداً فى واقع الأمر .

## هوامش الفصل الأول

- (١) Alexis de Tocqueville, De la Democratie en Amerique ( Paris, 1951), 1, 466
- (٢) "Muslim Cities and Islamic Societies," Ira M. Lapidus, في كتاب حرره نفس المؤلف : Middle Eastern Cities (Berkeley and Los Angeles, 1969) ص ٤٩ ،
- (٣) جاءت هاتان المقولتان لحمد في شكل تحليلي ، وهما تختلفان اختلافاً كبيراً في صياغتهما الأصلية، ويستشهد مالك بن أنس على سبيل المثال في موطأه (القاهرة ١٣٧٠) المجلد الثاني ص ٨٩٩ بقول محمد "تركتم فيكم ما إن تمسكتكم به لن تضلوا بعدى أبداً: كتاب الله وسنة نبيه" ، ويعطى أحمد بن حنبل في مسنده ( القاهرة ١٣١٣ ) المجلد الثالث ص ٢٦ إحدى الروايات الكثيرة التي يطلق فيها محمد على ميراثه (شيثان هامان" وهما " كتاب الله... " في هذا الاستشهاد، وأحياناً كما في سنن بن ماجه توضع العبارات التي لها هذه الطبيعة في سياق خطبة محمد لأتباعه في منى أثناء الحج ، لكن هذه العبارات ترتبط على وجه الحصر بهذه المناسبة.
- (٤) تعطى هذه الفقرة والفقرات التالية شرحاً للسنة كما يفهمها المسلمون سواء في الفترة التي يتناولها الكتاب أو في سائر الفترات اللاحقة، وفي كتابه :
- The Origins Of Muhammadan Jurisprudence (Oxford, 1953) يحاول جوزيف شاشت أن يبرهن على نحو مقنع على أن السنة بالنسبة للأجيال الأولى من المسلمين كانت عادة المجتمع المسلم ككل ولم تكن مرتبطة بأقوال محمد أو تتحدث عنه .
- (٥) هذا الحديث استشهد به C. Van Arendonk ، " شريف " في : Shorter Encyclopaedia Of Islam ( Leiden, 1953)
- (٦) " J. W. Fuck بن ماجه " Encyclopaedia Of Islam الطبعة الثانية ( ليدن ١٩٧١ م ) المجلد الثالث ص ٨٥٦ .
- (٧) أنظر هـ، لاوست "الباريهارى" Encyclopaedia Of Islam الطبعة الثانية ( ليدن ١٩٦٠ م ) المجلد الأول ص ١٠٣٩ - ص ١٠٤٠ .
- (٨) ميسكاوييه - " تجارب الأمم " (القاهرة المجلد الأول ١٩١٤ م ، المجلد الثاني ١٩١٥ م ) المجلد الأول ص ٣٢٢ وقد ترجم D.S.Margoliouth هذا التاريخ وتتمته التي كتبها الرزواوى وجزء مما كتبه هلال الصعبي في كتابه ( 1920 - 1921 ) The Eclipse of the Abbasid Caliphate ( Oxford, 1920 - 1921 ) وقد أعطيت نسخاً منقحة قليلاً من ترجمة مارجوليوت الممتازة عند الاقتباس من هذه المصادر، وقد ورد ترقيم صفحات النص العربى في ترجمة مارجوليوت ولذا فقد أعطيت إشارات إلى النص العربى فحسب .
- (٩) A.J.Wensinck " الأشعرى " Shorter Encyclopaedia Of Islam ص ٤٧
- (١٠) أبو حيان التوحيدى " كتاب الإمتاع " (القاهرة ١٣٧٣ ) المجلد الثالث ص ١٩٤ - ص ١٩٥ .

(١١) ميسكاويه " تجارب الأمم " المجلد ٢ ص ١٩٢ - ص ١٩٣ (حلب) ، الذهبى فى حاشية لميسكاويه المجلد الثانى ص ٢٠٠ (الاضطراب) ، بن تغريبرى ، حويات (ليدن ١٨٥٥) المجلد ٢ ص ٣٦٥ (المقاتلون المتطوعون) .

(١٢) الهمذانى ، تكملة تاريخ الطبرى (بيروت ١٩٦١ م) ص ١٩٠ (طرسوس) ، ميسكاويه تجارب الأمم المجلد ٢ ص ٢٢٣ (ركن الدولة) .

(١٣) كان فقهاء السنة متواجدين فى جيش المحاربين المتطوعين الذين مروا عبر الرى فى عام ٣٥٥ هـ ، أنظر ميسكاويه تجارب الأمم المجلد ٢ ص ٢٢٣ .

(١٤) أمل أن أتناول التاريخ السياسى للبويهيين فى كتاب لاحق سوف يتناول أيضاً محاولاتهم تبرير حكمهم من خلال الأفكار الإيرانية القديمة المتعلقة بالملكية.

## هوامش الفصل الثانى

(١) ميسكاويه - تجارب الأمم المجلد الأول ص ١٩١ ، وهناك استشهاد بأجزاء من الرسالة مع اختلافات فى العديد من الروايات التاريخية ، ولم يستشهد بها سوى الهمذانى فى تكملة تاريخ الطبرى (بيروت ١٩٦١ م) ص ٥٩ بنفس القدر الذى استشهد به ميسكاويه تقريباً .

(٢) ميسكاويه تجارب الأمم المجلد ٢ ص ٧٤ ( القسم "بالقرآن - المصحف - والإيمان المغلظة (الأخرى) ) ، وهذا الكتاب معنى فقط بالاستخدام الفعلى للإيمان ، ولدراسة المادة النظرية الثرية (وبخاصة الشرعية) حول الإيمان أنظر مقال J.Pedersen " القسم " Shorter Encyclopaedia Of Islam من ٢٢٤ - ص ٢٢٦ وكتابه Der Eid bei den semiten ستراسبورج ١٩١٤ م .

(٣) ميسكاويه تجارب الأمم المجلد الثانى ص ٦٧ - ص ٧٢ ، والعيون والحدائق (مجهول المؤلف) (برلين ms ١٩٤٩) f. 219A .

(٤) العيون (مجهول المؤلف) ff.216B-217A,f.221B (استشهاد) ، ابن الجوزى المجلدات ٧ و٨ (حيدرآباد ١٣٥٧ ، ١٣٥٨ ، ١٣٥٩) والمجلد ٦ ص ٣٤٣ ، ويعتقد أن الحكام الآخرين قد ماتوا بسبب حنتهم بقسمهم كما فعل سعد الدولة الحمدانى على سبيل المثال فى عام ٣٨١ هـ ، أنظر ابن الأثير الكامل (المجلدات ٨ ، ٩ ليدين ١٨٦٢م) ص ٩ ، ويختلف ترقيم الصفحات من نسخة لأخرى من طبعة ليدين للكامل .

(٥) بن الأثير ، الكامل المجلد ٩ ص ٣٢ (شرف الدولة) ، سبط بن الجوزى - مرآة الزمان (إسطنبول ms.,Koprulu 1157 المجلد ٩) ، ص ٤٧٧ وقد حنت مسعود بقسمه فى نهاية الأمر نظراً لأنه تزوج إحدى قريبات الملك البويهى (ومن ثم من الديلم) أبو كاليجار ،

(٦) هلال الصابى - تاريخ (القاهرة ١٩١٩م) ص ٤٣١ .

(٧) الرزداوارى - ذيل تجارب الأمم (القاهرة ١٩١٦م) ص ٣٠٨ .

(٨) لتتوخى - نيشوار المحاضرة (بيروت ١٩٧١م - ١٩٧٢م) المجلد ٢ ص ١٩ ، ص ٢١٦ ، وميسكاويه تجارب الأمم المجلد ١ ص ٢٦٦ أيضاً .

(٩) ميسكاوية تجارب الأمم المجلد ١ ص ٢٤٢ (حيث استحلط الضباط أولا ، أى مطالبة المرشح حلف اليمين للخليفة) والمجلد ١ ص ٢٦٦ أيضا .

(١٠) Emile Tyan " البيعة " Encyclopaedia Of Islam الطبعة الثانية المجلد ١ ، من ص ١١١٣ - ١١١٤ .

(١١) ميسكاوية تجارب الأمم المجلد ٢ ص ٨٢ (بن شيراز) ، السولى ، أخبار الراخى بالله والمتقى لله (القاهرة ١٩٣٥م) ص ٢٣٧ ( البيعة للسامانيين ) ، بن الأثير الكامل المجلد ٣ ص ٣٠١ وص ٣٤٥ ، الطبرى تاريخ الطبرى (ليدن ١٨٩٠م) المجلد ٣ ص ٢٢٩٠ ، الرزداوارى ذيل ص ٧٨ (وفاة عضد الدولة) .

(١٢) بن الأثير- الكامل المجلد ٣ ص ١٤٢ (مارداويه) المجلد ٩ ص ٣٥٣ ( الملك العزيز ) ، ميسكاوية تجارب الأمم المجلد ٢ ص ١٠١ (بن المهتج) ، ص ١٠٢ ( بن المهتج يعاهد إبراهيم على طاعته عنما تقابلا ) ، الرزداوارى ذيل ص ٧٩ (شرف الدولة يأخذ البيعة من الأولياء) ، وعن المحتمل أنه فى كثير من الظروف عندما تشير المراجع إلى قسم أخذ من الجيش بون تحديد البيعة ، أو عندما استحلط الجند أن يلتزموا بأيمانهم ، والبيعة (التي أخذت فى المثال الأول أو "جددت " ) هى القسم الأساسى الذى نحن بصددده ، وعلى سبيل المثال بن الأثير الكامل المجلد ٩ ص ٣٧٤ ، الرزداوارى - ذيل ص ٢٣١ ، السولى أخبار ص ٨٧ - ص ٨٨ .

(١٣) الرزداوارى - ذيل ص ١٠٤ ( أبو منصور ) ، ص ٩٣ ( بن عباد ) ، ميسكاوية تجارب الأمم المجلد ١ ص ٢٦٢ وتفصيل المؤامرة فى ص ٣٢١ .

(١٤) بن الأثير- الكامل المجلد ٣ ص ٥٠٣ (سابوكتاكين) ، قارن ص ٣٣٦ ،

(١٥) ميسكاوية تجارب الأمم المجلد ٢ ص ٨٥ ص ١٠٥ - ص ١٠٦ ، بن الجوزى المنتظم المجلد ٦ ص ٣٤٠ .

(١٦) سبط بن الجوزى - مرآة (Koprulu) - ص ٣٤٩ وص ٤٨٣ ، بن الجوزى - المنتظم المجلد ٣ ص ١٤٨ والمجلد ٨ ص ١٩ (مشرف الدولة) ، وص ٧٢ (الخليفة يعرض الكتابة لأبى كالجار) .

(١٧) بن الجوزى - المنتظم المجلد ٨ ص ٦٦ ( ركن الدولة مذكور بالخطأ على أنه ركن الدين فى النص المطبوع ، وربما تشير حاشيته إما إلى حاشية الأمير بما فيها الوزير أو حاشية الوزير) .

(١٨) سبط بن الجوزى - مرآة (Koprulu) ص ٤٥٦ ، وبن الأثير الكامل المجلد ٩ ص ٤١٧ .

(١٩) ميسكاوية تجارب الأمم المجلد ٢ ص ٢٨٦ - ص ٢٨٧ (الشيرازى) ، ص ٣١٥ (القائد العام) ، ص ٣٥٦ (بن باقيه) .

(٢٠) على سبيل المثال المصدر نفسه المجلد الأول ص ٢٤٩ (مضالحة المسئولين فى ص ٣٢١) ، ص ٣٢٥ (الوزير الجديد يطلق سراح الوزير السابق بيمين فى ٣٢٢) ص ٣٣٢ ( إطلاق سراح قائد فى ٣٢٤ ) ، المجلد ٢ ص ١٢٤ (المهلبى) ، ص ٢٨٤ (القسم بين المسئولين فى ٣٦٠) ، الرزداوارى - ذيل ص ٣٠٨ (تصالح مسئول وأحد رجال الحاشية فى ٣٨٨) ، بن الأثير - الكامل المجلد ٨ ص ٢٢٣ .

(٢١) ميسكاوية - تجارب الأمم المجلد ١ ص ٢٨٦ ( ٣٢٢ ) ، المجلد ٢ ص ٢٨٢ (عز الدولة) ، الرزداوارى - ذيل ص ١٥٨ ، أنظر التنوخى - نيشوار المجلد ٣ ص ٢٨٤ (المسئولون يستحلطون الضباط الديلم على التمرد ويطالبون بعزل الوزير) .

(٢٢) ميسكاويه - تجارب الأمم المجلد ٢ ص ٢٩٩ - ص ٣٠٠ (البالوشيين) ، ص ١٩٩ (حاران) ، والمجلد ٢ أيضا ص ٣٦ .

(٢٣) الرزراواري - ذيل ص ٢٦ (بخاري) ، و ص ١٢٥ (طاري) ، وأمثلة أخرى لإيمان المعاهدة : ميسكاويه - تجارب الأمم المجلد ٢ ص ٣١٢ (كتاب الاتفاق موقع ومشهود) ، المجلد ١ ص ٣٨٥ ، المجلد ٢ ص ١٠٨ ، الرزراواري - ذيل ص ١٥ و ص ١٨٤ ، بن الأثير - الكامل المجلد ٩ ص ١٨٢ و ٣٠٩ و ص ٤٢١ .  
(٢٤) الهمذاني - تاريخ ص ٨٦ تقرأ جزئته بدلاً من جذبته .

(٢٥) ميسكاويه - تجارب الأمم المجلد ١ ص ٤١٢ (البريوي) ، سبط بن الجوزي - مرآة (Kopru) (١١ ص ٣٢٢ (هلال) .

(٢٦) هلال الصابي - تاريخ ص ٤٣١ (أبو علي بن إسماعيل) ، و ص ١٤٤ أيضا (ومرة أخرى يطلق عليه أمان) ، بن الأثير - الكامل المجلد ٩ ص ٣٩ (مثال للأمان للقلند الثائر الذي يعود للمبايعة) ، الطبري - تاريخ المجلد ٣ ص ٢٢١ (المنصور) .

(٢٧) ميسكاويه - تجارب الأمم المجلد ٢ ص ٢٢٨ .

(٢٨) نفس المصدر ص ١٤١ - ص ١٤٢ ، بن خالقان - وفيات الأعيان (المجلدات ١ و ٢ بيروت ١٩٦٨ و ١٩٦٩ و ١٩٧٠) ، والمجلد ٢ في ص ١١٩ استشهاد بالجزء الأكبر من القصة .

(٢٩) سبط بن الجوزي - مرآة (المتحف البريطاني ms. OR4169 المجلد ٢ f.107A-107B) .

(٣٠) الهمذاني - تاريخ ص ٨٣ (الراضي) ، Pedersen " القسم " ص ٢٢٤ (نمة الله وعهد الله في الإيمان) .

(٣١) الهمذاني - تاريخ ص ١٥٦ (علي بن عيسى) ، ميسكاويه - تجارب الأمم المجلد ٢ ص ١٦٥ (نهر روقيل) ، و لمثال آخر من بين كثير من الأمثلة للنذر والأعمال العامة أنظر بن الأثير - الكامل المجلد ٩ ص ١٥٤ و بن الجوزي - المنتظم المجلد ٨ ص ٢٤٦ .

(٣٢) بن حمدون - التذكرة - استشهاد بها ميسكاويه في تجارب الأمم - المجلد ٢ ص ٤١٦ الملاحظة ١ (والدة عضد الدولة) ، بن الأثير - الكامل المجلد ٨ ص ٩٧ - ٩٩ (حلم بويه) ، التنوخي - نيشوار المجلد ٢ ص ٢٤١ - ٢٤٢ (الطاهريين : كان الطاهريون متعاطفين على نحو يثير الشك مع العلويين كما حدث عندما رفض طاهر أن يقاتل بعض العلويين) ، الرزراواري - ذيل ص ٢٠٦ (القادر) ، حيث أكد الرزراواري أن القادر نفسه روى قصته (ص ١٤٧) ، وقد ثار أحمد المدعي الساماني عندما وعده النبي يوسف بالسلطة في الحلم ، أنظر بن الأثير - الكامل المجلد ٨ ص ٨٨ ، وللتعرف على أحلام سياسية أخرى بن الأثير المجلد ٨ ص ٤٨٣ ، التنوخي - نيشوار المجلد ٣ ص ٢٤٨ - ص ٢٤٩ .

(٣٣) أنظر السولي - أخبار المجلد ١ ص ١٢١ من أجل الأمان العام لأهل بغداد الذين ساعدوا ابن رافيه من أجل نذر معاقبة جماعة لم يسمى أفرادها ، أنظر ميسكاويه - تجارب الأمم المجلد ١ ص ٣٢٣ مرسوم الراضي في عام ٣٢٣ الذي ينتهي بـ "يمين مغلظ لابد أنه (أي الخليفة) رد عليه بالمثل بالتأكيد" أنه إذا أصر الحنابلة فسوف يعمل فيهم السيف والنار .

(٣٤) التوحيدى - مثالب الوزيرين (دمشق ١٩٦١م) ص ١٥ ، قارن قصيدة السولي في عام ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م (أخبار ص ٢٢١) حيث يقال أن سخاء موله كان عظيماً جداً إلى درجة أن "الزمان سوف يسدد كل

دين (فرضة سخاؤه) بجياة مديدة ومنحه الرئاسة " ، وبكلمات أوليسيس في مسرحية شكسبير تريولس وكريسيدا : " إن الزمن يحمل فوق ظهره حقيبة سفر / حيث يضع الصدقات من أجل النسيان ، وحش كبير الحجم للجحود " ( الفصل ٣ المنظر ٣ ) .

(٣٥) الرزداوى - ذيل ص ٥٤ (عضد الدولة) ، عضد الدولة ، ميسكاويه - تجارب الأمم المجلد ١ ص ١٥٦ (على بن عيسى) ، ويمكن للنعمة أن تعنى الحظ الشخصى نظراً لأن حظ الشخص يأتى بفضل الله أو الخليفة ، ونرى الكلمة بموضع ما بين هذين المعنيين فى عبارة ابن القاضى الذى عرض أن يدفع للخليفة إذا عين فى منصب القضاء الخاص بوالده : " إن نعمتى ونعمة والدى من أمير المؤمنين المقتدر ، ولذا قلن أحبس عنه أى شئ " (ميسكاويه المجلد ١ ص ٢٢٩) .

(٣٦) ميسكاويه - تجارب الأمم المجلد ٢ ص ١٦٩ - ص ١٧٠ .

(٣٧) الأريب - صله تاريخ الطبرى ( ليدن ١٨٩٧ ) ص ٢٠ رواية الأريب لهذا الحوار أفضل وأكمل كثيراً من رواية ميسكاويه فى تجارب الأمم المجلد ١ ص ٤ حيث كان للحوار نفس الأثر بالضبط على الرغم من أنه جرى عقب وفاة المكتفى ، وفى تاريخ هذه المفاوضات ، "سورديل" الوزارة العباسية " Le Vizirat Ab-baside (دمشق ١٩٥٩ - ١٩٦٠) ص ٣٦٦ .

(٣٨) ميسكاويه ، تجارب الأمم ، مجلد ١ ، ٣٤٤ ( ياقوت ، من المرجح أن مولاي تعنى الخليفة الذى لم يكن عدوه المباشر ولكن من سوف يتم تسليمه اليه كسجين لحق به الخزي إذا هزم ) ، ص ١٩٩ ( أبو الهيجاء بن حمدان) ، ابن الأثير ، الكامل ، المجلد ٩ ، ٧٦ ( سيمجريويين) ، ونظراً لأن البريويين كانوا أكبر كاذبين وعاقين فى القرن الرابع هـ / العاشر م فكثيراً ما كانت المراسلات معهم تتناول الجحود وكفر النعمة كما حدث فى عام ٣٢٥ عندما أخبرهم ابن رائق أنهم " قد أظهروا كفر النعمة وردوا الإحسان بالإساءة وشقوا عصا الطاعة " ( ميسكاويه ، تجارب الأمم ، مجلد ١ ، ٣٥٨ ) ، وبالمثل ما طلبه الوزير ابن مقله من البريويين فى عام ٣٢٣ من عدم الإصرار على " كفر نعمتى وإحسانى اليكم ) ، نفس المرجع ، ص ٣٢٩ .

(٣٩) آدم ميز Die Renaissance des Islams (هيدلبرج عام ١٩٢٢) ص ٣٢١ حيث الفقرة التى تم الاستشهاد بها من ياقوت و الثعالبي ، وكذلك ص ٢٣٧ - ص ٢٢٨ لفقرة مماثلة من رسائل الهمدانى .

(٤٠) ميسكاويه ، تجارب الأمم ، مجلد ٢ ، ٣٠٢ (الوزير وشكر النعمة) ، التتوخى ، نيشوار ، مجلد ٢ ، ص ٢١ (المنجم) ، وحول أسلوب الولاء التجارى الذى ورد وصفه هنا أنظر كليورد جيرتز Peddlers and Princes (شيكاغو ١٩٦٣) .

(٤١) ميسكاويه ، تجارب الأمم ، مجلد ٢ ، ص ١٦ (البريوى) ، مجلد ١ ، ٢٧٧ (استشهاد عن سماحة على وترك البويهيين ماكان) ، ص ٢٧٨ ( بعد قضاء الله كان السبب الوحيد (لنجاح على) كرمه وسماحته ) ، ص ٢٨٠ (سماحة على) ، ابن الأثير ، الكامل ، مجلد ٣ ، ١٤٣ (أصفر) ، ص ١٦٧ (سماحة ماردويه) ، ص ٢٠٦ (هزيمة ياقوت) ، السولى ، أخبار ، ص ٢٥٤ .

(٤٢) ميسكاويه ، تجارب الأمم ، مجلد ١ ، ص ٢٣٥ (مؤنس) ، مجلد ٢ ، ص ٦٠ (البريوى) .

(٤٣) "An Arabic-English Lexicon" E.W.Lane (لندن ١٨٧٢) الجزء ٤ ص ١٧٣٤ .

(٤٤) S.M.Ster " يعقوب النحاس " فى إيران والإسلام ، حرره C.E.Bosworth (اينبرج

(١٩٧١) ص ٥٤٢ ، ص ٥٤٥ مستشهدا من إرشاد الأريب لـ "ياقوت" (لندن ١٩٠٧) المجلد ١ ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٤٥) الهمذاني ، تاريخ ص ٦١ ، ميسكاويه ، تجارب الأمم ، المجلد ١ ، ٣٤٣ (ياقوت) ، قارن ص ٣١٩ حيث يطلب ياقوت تجديد الصنيعة ، مجلد ٢ ، ص ٧ (باجكام) ، السولى ، أخبار ، مجلد ١ ، ص ١٩٧ (استشهاد من باجكام) ، قارن حزن محمود الغزنائى لوفاة السامى فى مرآة سبط بن الجوزى Koprulu ص ٤٧٥ ، والواقع أن باجكام كان فى الأصل مملوكًا لأبى على كاتب ماكان وأعطى لماكان بناء على طلب الأخير ، أنظر ميسكاويه تجارب الأمم ، مجلد ١ ، ٣٨٣ .

(٤٦) ميسكاويه ، تجارب الأمم ، مجلد ٢ ، ٣٨٤ - ٣٨٥ (الفتكين) .

(٤٧) نفس المصدر ، المجلد ١ ، ٢٩٨ (غلما ن أصحاب الأراضى) ، المجلد ٢ ص ٣٢٦ (القلما ن فى ٣٦٣) والهمذاني ، تاريخ ص ٣٣ ، الأريب ، صلة تاريخ ص ١٦٨ (غلما ن مؤنس) .

(٤٨) السولى ، أخبار ص ٤٦ (المؤنسيه) ، ص ٢٦٩ (توزون) ، الأريب ، صلة تاريخ ص ١١٥ - ص ١١٦ (يانيس) .

(٤٩) سبط ابن الجوزى ، مرآة ( المتحف البريطانى ) f. 103 A

(٥٠) الرزداوارى ، ذيل ص ٣٣٠ .

(٥١) ميسكاويه ، تجارب الأمم - المجلد ٢ ص ٣٣٢ (عز الدولة) ، ١٦٢ - ١٦٣ (معز الدولة) ، لم يستطع معز الدولة فى البداية أن يصدق أن الرزياهان قد خرج عليه نظراً لأنه اصطنع رزياهان ، ابن الأثير ، الكامل المجلد ٩ ص ٢٥٧ (جلال الدولة) .

(٥٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ترجمة Franz Rosenthal (برينستون ١٩٦٧) المجلد ١ ص ٢٧٦ (لم يرد ذكر المصطلحات العربية بين الأقواس فى الترجمة) ، الهمذاني ، تاريخ ص ١٨٥ (ابن أبرونا) .

(٥٣) الصعبى ، كتاب الوزراء (القاهرة ١٩٥٨) ص ٢٧٥ (ابن بستان) ، الهمذاني ، تاريخ ص ١٤٦ (على ابن عيسى) .

(٥٤) التنوخى ، نيشوار ، مجلد ١ ص ١٧ (ابن الزيات) ، قارن بـ "كتاب الوزراء" للصعبى ص ٣٢٤ ، ملاحظة نازوك رئيس الشرطة حيث أعفى نفسه عندما مرض الحسين بن الفرات تعذيب على بن عيسى : " لا أحب أن أشهد تعذيب رجل قبلت يده عشرين عاماً وأدين له بالاحسان والنعم ، وعلاوة على ذلك فهو شيخ تقى يصوم النهار " .

(٥٥) ميسكاويه ، تجارب الأمم ، المجلد ٢ ص ٣٢ ، السولى ، أخبار ص ٤١ - ص ٤٣ ،

(٥٦) ميسكاويه ، تجارب الأمم المجلد ١ - ٣٧٦ (باجكام) ، المجلد ٢ - ٤١٢ (محمد بن عمر) ، وأنظر ملحوظة عماد الدولة ص ١١٣ أن الحسن وأحمد " إخوتى الأشقاء ، عن طريق تربية أبنائى ، وبما تم توليتهم حكمه فهم صنائعى " ويطلق على إحسان معز الدولة للترك بدلاً من الديلميين اصطناع ، ص ١٦٦ ، السولى ، أخبار ص ٢٥٩ و ص ٢٧٦ (مصانعة) ، وكذلك ميسكاويه تجارب الأمم المجلد ٢ ص ٩٧ .

(٥٧) ميسكاويه تجارب الأمم المجلد ١ ، ٣٠٣ - ٣٠٤ (أبو سعد) ، ص ٣٦١ (ابن رائق) ، قارن نسخة هذا فى الكامل لابن الأثير المجلد ٨ ص ٢٤٧ : " ان له (أبى النبختى) حق عظيم على ، فهو من ناضل من أجلى حتى بلغت مقامى الحالى ولا أريد أن أبدله " الهمذاني ، تاريخ ، ص ١٠٥ (النظر فى إعادة تعيين النبختى) تاريخ ص ١٠٣ .

- (٥٨) التنوخي ، نيشوار المجلد ١ ص ٧٠ .  
 (٥٩) الصعبي ، الوزراء ص ١٣٢ (ابن الفرات) ، قارن السولي ، أخبار ص ٦٩ وميسكاوية تجارب الأمم المجلد ٢ ص ٣٣٤ .

### هوامش الفصل الثالث

- (١) الجاحظ - "مناقب الترك" ، رسائل (القاهرة ١٩٦٤) ص ٧٣ ، ابن قتيبة كتاب العرب رسائل اليلفاء حرره كرد على (القاهرة ١٣٦٥) ص ٣٥٨ - ص ٣٦٠ .  
 (٢) الجاحظ : "مناقب" ص ٢٣ .  
 (٣) نفس المصدر ص ١٢ ، ابن قتيبة "كتاب العرب" ص ٣٦٠ .  
 (٤) التنوخي ، نيشوار المحاضرة (بيروت ١٩٧١-١٩٧٢) - مجلد ١ ، ص ١١١ ، مجلد ٢ ص ١٠٠ .  
 (٥) المسعودي ، مروج الذهب ، حرره يوسف أ. داغر (بيروت ١٩٧٣) مجلد ٢ ، ص ٢٨ .  
 (٦) التنوخي - نيشوار المجلد ١ ص ٢٣ ، ابن الجوزي "المنتظم" (حيدرآباد ١٣٥٧) المجلد ٤ (١٣٥٨) والمجلد ٧ (١٣٥٠) والمجلد ٨ ، والمجلد ٦ ص ٢٥٩ (و ص ١٩١) حيث تنسب الملحوظة حول ابن الفرات لمصدر آخر) .  
 (٧) Cf. D. Sourdel Le Vizirat abbasid، (دمشق ١٩٦٠) ص ٦٨ حول أولاد الوزراء ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ (لیدن ١٨٦٢) المجلد ٩ ص ٢٨٧ .  
 (٨) التنوخي ، نيشوار المجلد ١ ص ٢٧٩ (الببغاء) ، أريب "صلة تاريخ الطبري" (لیدن ١٨٩٧) و ص ٤٥ (٣٠١ / ٩١٤) ، السولي ، أخبار الراضي بالله و المتقى (القاهرة ١٩٥٣) ص ١٤٢ (القاضي) .  
 (٩) السولي ، أخبار ص ١٥٤ (الراضي) .  
 (١٠) Edward William Lane ,An Arabic-English Lexicon (لندن ١٨٧٤) ج ٥ ص ١٨٢٧ (الشعور الأولى) D. Sourdel Vizirat المجلد ٢ ، ٦٧١ و ٦٨٣ (بلاط الخلافة) ، ابن الجوزي "المنتظم" المجلد ٧ ص ١٣٥ (طبقات البلاط في العهد البويهي)  
 (١١) أريب ، صلة ص ١٢٠ ، ميسكاوية ، تجارب الأمم (القاهرة ١٩١٤ و ١٩١٥) المجلد ٢ ص ١٠٣ (ركن الدولة) ، ص ٤١١ (المطهر) ، قارن المجلد ص ٨٣ .  
 (١٢) ابن منظور ، "لسان العرب" (بيروت - بدون تاريخ) المجلد ٢ ، ٦٨ التنوخي "كشاف اصطلاحات الفنون" (كالكويتا ١٨٦٢) المجلد ١ ص ٨٣٩ (المنطق) ، ابن الجوزي "المنتظم" ص ٢٩٢ (ثلاثة رؤساء) .  
 (١٣) ابن منظور ، لسان ، المجلد ١ ص ١٦ (عن الجنس كنوع بيولوجي) ، ابن الأثير "الكامل" ص ٢٩٢ المجلد ٩ ص ١٧٨ .

(١٤) ابن الجوزي "المنتظم" المجلد ٦ ص ٨٢ (ألقيت القوائم في نهر بجله) ، ميسكاويه "تجارب الأمم" المجلد ١ ص ١١ (محمد بن داود) ، ص ٢٧ (ابن ثوبه) ، كذلك ص ٤٠ لتقدير علي بن عيسى العظيم لمهارة ابن الفرات المهنية .

(١٥) ميسكاويه ، تجارب الأمم المجلد ١ ص ٣٦ (٣٠٦) و ص ١١١ (٣١١) .

(١٦) هلال الصغبي "تاريخ" (القاهرة ١٩١٩) و ص ٣٧١ (أبو علي بن إسماعيل) ص ٤١٣ (سابور إلى الأهوار) .

(١٧) العيون والحدايق - مجهول المؤلف (بيروت MS. رقم ١٩٤٩ f. 144A (ابن مقله) .

(١٨) E.ASHTOR, ESSAI SUR L'ALIMENTATION de diverses classes sociales dans l'Orient medieval Annales E.S.C. (١٩٦٨) ص ١٠١٧ - ص ١٠٥٣ ، محاولات إظهار أن الممالك كانوا عاجزين حتى عن مضاعفة عددهم .

(١٩) ميسكاويه ، تجارب الأمم المجلد ١ ص ١٧ و ١٩ و ٢٥ (جميعها عن سوبكرا) .

(٢٠) نفس المصدر ص ٤٧ - ص ٤٨ .

(٢١) هلال الصغبي ، "تاريخ" ص ٣٥٤ - ص ٣٥٥ (أبو علي بن إسماعيل) ، الرزراواري "ذيل تجارب الأمم" (القاهرة ١٩١٦) ص ٢٥٦ .

(٢٢) ابن الأثير "الكامل" المجلد ٩ ، ٢٣٨ (أبو كاليبجار) ، ميسكاويه "تجارب الأمم" المجلد ٢ ص ٢٣٦ - ص ٢٣٧ (عن الدولة) .

(٢٣) سبط بن الجوزي "مرآة الزمان" (المتحف البريطاني ms. Or.4619 f.78B ، ونسخ أخرى لهذه الملاحظة في تجارب الأمم لميسكاويه المجلد ١ ص ١٢٧ وكتاب الوزراء لـ "الصغبي" (القاهرة ١٩٥٨) ص ٧٠ .

(٢٤) الجاحظ "ذم" آثار (بيروت ١٩٦٩) ص ٥٩ ، سبط بن الجوزي "مرآة الزمان" (Koprulu ms. رقم ١١٥٧) و ص ٣٦٥ (الدينور) ، ابن الجوزي "المنتظم" المجلد ٨ ص ٦٢ (تاجر القماش) .

(٢٥) أريب ، "صله" ص ١٨٦ (مصر) ، السولي "أخبار" ص ٧٦ ، الهمذاني "تكملة تاريخ الطبري" (بيروت ١٩٦١) ص ٢١٢ (استشهاد) ، ابن الجوزي "المنتظم" المجلد ٦ ص ٦٠ (يؤكد أن كبير التجار يتحدث عن الحريق) .

(٢٦) ميسكاويه "تجارب الأمم" المجلد ١ ، ٣٢٦ (الموصل) ، السولي "أخبار" ص ١٨٧ (باجكام) .

(٢٧) التنوخي "نيسبور" المجلد ٣ ص ١٣٤ (دعاء) ، D. Sourdel ، الوزارة ص ٢٥٤ - ص ٢٥٥ (محمد الزيات) .

(٢٨) ميسكاويه "تجارب الأمم" المجلد ٢ ، ٢٦٠ (أبو قره) ، السولي "أخبار" (الراضي) .

(٢٩) ابن الجوزي "المنتظم" المجلد ٧ ، ٢٤٨ .

(٣٠) ميسكاويه ، تجارب الأمم المجلد ١ ص ٢٧ (٣٠٧) ، هلال الصغبي "تاريخ الطبري" ص ٣٨٧ (١٠٠٠ / ٣٩١) .

(٣١) الرزراواري "ذيل" ص ١٧٥ - ص ١٧٦ (الموصل) ، ابن الأثير "الكامل" المجلد ٨ ص ٨٠ (البصرة) .

(٣٢) ميسكاويه " تجارب الأمم " المجلد ٢ ص ٣٦ (أردابيل) ، ابن الأثير " الكامل " المجلد ٨ ص ٧٧ (سيستان) و ص ٥٠ عن استخدام الفاطميين للأعيان في طرابلس كرهائن ، ص ٣١٢ حيث يعاقب أحد الحمدانيين أهل الرقة بالتخلص من رؤساء مدينة حلب .

(٣٣) ابن الأثير " الكامل " ص ١٤٦ (أرزان) و ص ٣٤٦ (بخارى) .

(٣٤) ميسكاويه " تجارب الأمم " المجلد ١ ، ٣٨٣ و ٣٠٠ (على بن بويه) .

(٣٥) نفس المصدر ص ٣٢٠ و ٣٧٨ - ٣٧٩ (يطلق ميسكاويه على الأعيان المقبوض عليهم التوسترانيين ثم يطلق عليهم الأهوازيين في وقت لاحق ومن المحتمل أن ذلك بسبب وقوع توستار و سوسا في إقليم الأهواز - خوزستان) . ابن الأثير " الكامل " المجلد ٨ ، ٢٥٢ حيث يطلق على الناس الذين يطلق عليهم الوجوه عند ميسكاويه الأعيان وكلمات يحيى مختلفة نوعا ما ، ويقول على سبيل المثال " هل رأيت (ابن رائق) يسئ معاملة الجميع (أهل البصرة) ؟ لا والله ، فقد أساء معاملة بعضهم وغضب الجميع منه " .

(٣٦) ميسكاويه " تجارب الأمم " المجلد ١ ، ٢٨٢ و ٤١٢ .

(٣٧) التنوخي ، " نيشوار " المجلد ١ ، ٣١١ ، ابن الجوزي " المنتظم " المجلد ٧ ص ٧٢ .

(٣٨) ميسكاويه " تجارب الأمم " المجلد ١ ، ٣٥٣ (الرئيس القبلي للكوفس والبالوس) ، ص ٤٠٣ (عقب وفاة لشكاري في أذربيجان منح جيشه الرئاسة لابنه لاشكارسيقان) ، المجلد ٢ ص ١١٢ (معز الدولة) ، و ص ١٢١ (عماد الدولة) ، و ص ١٣٥ (توجه من بقي من جيش المرزيان إلى أذربيجان ومنح محمد بن مسافر الرئاسة عليهم) ، ص ٣٣٤ (أدت ثورة الترك ضد عز الدولة في عام ٣٦٤ إلى منح الرئاسة لألفتكين بين الترك) ، و ص ٣٠٠ (رئيس الكوفس والبالوس) ، ص ٢٨٢ (عز الدولة) ، ابن الأثير " الكامل " المجلد ٨ ، ٢٢٦ (واشماجير) ، الطبري " تاريخ الطبري " (ليدن ١٨٩٠) المجلد ٣ ، ٢٢٩٠ ، اسحق الثائر الساماني الذي دعى أهل سمرقند أن يأخذوا البيعة لرئاسته عليهم أي الاعتراف بحقه في الحكم المستقل .

(٣٩) ميسكاويه " تجارب الأمم " المجلد ٢ ، ١١٣ (عماد الدولة يحدد الرئاسة في عام ٣٣٦) ، ص ١٦٦ (المرزيان حاكم أذربيجان يكتب وصية يمنح بموجبها الرئاسة في الأسرة المسافرية لأخيه وأهسوزان) ، ص ٣٦٣ (أصقهان في ٣٦٥) ، يؤكد ابن الجوزي في المنتظم المجلد ٦ ص ٣٧٧ والهمذاني في تكملة تاريخ الطبري ص ١٧٠ ما ذكره ميسكاويه في المجلد ٢ ص ١٥٨ عن أن معز الدولة منح الرئاسة ومنصب أمير الأمراء لابنه بختيار لكن مصادر أخرى تعارض ذلك ، وقد يدل ذلك على أن بعض المعاصرين إعتقدوا أن أحد فروع الرئاسة انحدر بين أبناء معز الدولة والآخر بين أبناء ركن الدولة ، ووفقا لما ذكره ميسكاويه في المجلد ٢ ، ٣٦٤ فقد " حمل عز الدولة الخليفة على تعيين فخر الدولة في عام ٣٦٦ على أقاليمه مباشرة - رئاستها - لتأييده ضد عضد الدولة ، ومن المحتمل أن عز الدولة كان سيفعل هذا فقط لو أنه كان يتولى رئاسة إقليمه الخاص و نظرا لأننا لا نسمع بأنه منح هذا الامتياز عقب اعتلائه العرش فربما يكون قد تولى رئاسته تلقائيا خلفا لمعز الدولة ، وعلى أية حال فمن المؤكد أن الاختلاط بشأن المنصب الذي منح لمعز الدولة في عام ٣٤٤ يدل على فكرة الرئاسة كانت مبهمة وليست ذات أهمية كبيرة ، واما أن يكون التعيين في ٣٤٤ فهما مختلطا لتعيين ورثة شرعيين للعراق أو أن ذلك كان إيماءة غير هامة إلى درجة أننا لا نسمع أي احتجاج من الجانب الآخر للأسرة البويهية .

(٤٠) التنوخي ، نيشوار ، مجلد ١ ص ٢٤٦ (مثال لرئاسة القضاة) ، وميسكاويه في المجلد ٢ ، ٢٢٣ (السامانيون) ، الطبري " تاريخ " المجلد ٣ ، ٢٢٨٦ (كان القفال رئيساً لجيش سوبكرا وحاكما لفارس) .

(٤١) ميسكاويه " تجارب الأمم " المجلد ١ ، ٦٤ (على بن عيسى) ، المجلد ٢ ، ٢٦٣ - ٢٦٤ (قبل أن يصبح وزيراً كان يطلق على ابن فاسنجاس الرئيس و إما أن يكون ذلك بتوجيه ملكي أو بمبادرة خاصة منه بوصفه رئيساً لأهم ديوان في العراق ) ابن الأثير " الكامل " المجلد ٩ ، ٣٦٢ (الخليفة) ، ص ٣٥٩ (السلجقة) .

(٤٢) ميسكاويه " تجارب الأمم " المجلد ٢ ، ٣١٠ (ابن باقيه) ، التنوخي "نيسوار" المجلد ٣ ، ٦٩ (ابن تغريبردي " النجوم الزاهرة " (القاهرة ١٩٣٣ ) المجلد ٩ ، ١٤٥ يذكر أنه في المراسلات بين ابن سعدان وزير سمس الدولة وابن عباد عام ٣٧٤ كان الأخير يطلق على ابن سعدان الأستاذ رئيسي ، وهنا يمكن للرئاسة فقط أن تكون شكلاً تملق به ابن عباد ابن سعدان الذي لم يحدث أبداً أن كان أرفع منه مقاماً ولم يخدم حتى نفس الملك أبداً ،

(٤٣) ديب، ماكسونالد " العلماء " Encyclopaedia of Islam ( ليدن ١٩٣٤ ) المجلد ٤ ، ٩٩٤ ،

(٤٤) الرامهورموزي " المحدث " (بيروت ١٩٧١) ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٤٥) ابن الجوزي " المنتظم " المجلد ٧ ص ٢٦ (تم اتفاق عشرة آلاف درهم على الحديث ، المجلد ٦ ص ١٢٤ ) قيل هنا أن الفيريابي كان لديه ثلاثمائة وثلاثين مستملياً ) ، الهمداني "تكملة" ص ١٦ (الفيريابي) ، سبط بن الجوزي "مرأة" ( المتحف البريطاني ms. F. 113 B ) (نقلا عن أبي بكر بن بطة) ، وقد ذكرت تواريخ مختلفة بين عام ٢٠١ وعام ٤٢٣ لوفاة الفيريابي ،

(٤٦) Sourdel Vizirat ص ٥٧٠ ، ابن الجوزي " المنتظم " المجلد ٧ ص ١٨٠ (ابن عباد) المجلد ٧ ص ٢١٥ ( الدارقطني ) ، على أثر التعارض المتواصل بين الكتب والعلماء Die Renais- ,cf. Adam Mez sance des Islams (حيدر آباد ١٩٢٢) ص ٧٥ .

(٤٧) الرزداواري " ذيل " ص ١٨٩ ، هلال الصعبي " تاريخ " ص ٣٤٠ ، رقم ٤ ( نقلا عن الذهبي وإشارة إلى كشف الظنون حول ابن سيمجور ) ، أريب " صلة " ص ١٢١ (محمد نائب حاجب القصر) ، ص ٦٩ (المسغى) ، ابن الجوزي " المنتظم " المجلد ٦ ص ١٨٠ (بدر) .

(٤٨) ابن الجوزي " المنتظم " المجلد ٧ ص ٢٦٤ (الحليمي) ، ابن تغريبردي " الحوليات " المجلد ٢ ص ٣٢٤ (القزويني) .

(٤٩) ابن الجوزي " المنتظم " المجلد ٦ ص ١٤٩ (ابن سريج ) المجلد ٧ ص ١٠٥ (الرازي) ، سبط بن الجوزي "مرأة" (المتحف البريطاني ms F. 67 B ) نقلا عن الخطيب عن ابن سريج ) ، أريب " صلة " ص ٦٧ .

(٥٠) ابن الجوزي " المنتظم " المجلد ٧ ص ٢٦٦ (الخوارزمي) ، ص ١٣١ (الأبهري) .

(٥١) ابن قتيبة " كتاب العرب " ص ٣٥٦ ، سبط ابن الجوزي "مرأة" ( المتحف البريطاني ms.f. 64B (يوسف) ، ابن الجوزي " المنتظم " المجلد ٦ ، ٣٩٠ ، فردوس المرشيدية لـ محمد بن عثمان (طهران ١٣٣٣ ) حيث يصف نشأة المذهب الصوفي الرهباني في فارس البويهية .

(٥٢) ابن الجوزي " المنتظم " المجلد ٧ ص ٢٠٨ ( رخصة ) .

(٥٣) الرزداواري " ذيل " ص ٣٠٥ رقم ١ ، سبط بن الجوزي "مرأة" ( Koprulu ) المجلد ١١

ص ٣٦٥ .

- (٥٤) ميسكاويه " تجارب الأمم " المجلد ٢ ص ٣١٤ (ابن باقيه) ، التنوخي " نيشوار " المجلد ٢ ص ٧٧ (رئيس القرية في العراق ) ، المجلد ٢ ص ٩ (ادهاج) .
- (٥٥) الرزواوي " ذيل " ص ٣١٤ و ص ٣٢٧ (الدريمان) ، ابن الجوزي " المنتظم " المجلد ٧ ص ٢٣١ (الرئاسة الوراثية لجرجان) ، المجلد ٦ ص ٢٨٨ (جرجان) .
- (٥٦) التنوخي " نيشوار " المجلد ٢ ص ٩١ - ٢٠ .
- (٥٧) نفس المصدر ص ٩ (الشاهد) ، ابن تغربردي " الحوليات " ص ٢٧٩ (جرجان) .
- (٥٨) الرزواوي " ذيل " ص ٥٦ (استشهاد) .
- (٥٩) الطوسي " التبيان " (النجف ١٣٨٢) المجلد التاسع ، ٣٥٢ - ٣٥٣ ، ولناقشة هذه الفقرة وفقرات مماثلة لتفسير هذه الآية أنظر روى ب، متحدة " الشعرية " International Journal Of Middle Eastern Studies ، ٧ (١٩٧٦) ص ١٦١ - ١٨٢ .
- (٦٠) ميسكاويه ، " تجارب الأمم " المجلد ١ ، ٣٤٣ .
- (٦١) نفس المصدر ، المجلد ٢ ، ٣٠٥ .
- (٦٢) الرزواوي ، " ذيل " ص ٢٧٢ (حيث تستخدم الطائفة و الفريق بالتبادل) .
- (٦٣) ابن الجوزي " المنتظم " المجلد ٨ ص ١٤٠ - ص ١٤١ (سوق القلاين) ، المجلد ٦ ، ٣٤٠ (العداوين) ، ابن الأثير " الكامل " المجلد ٨ ، ٤٢٥ ، روى متحدة " الإدارة في قزوين البويهى " في الحضارة الإسلامية ٩٥٠ - ١١٥٠ ، حرره دزسزريتشاردز (أوكسفورد ١٩٧٣) ص ٣٧ (عن الطوائف ورئاستها) .
- (٦٤) ابن الأثير " الكامل " المجلد ٨ ص ١٥٧ ، ص ٨٩ يذكر الفتنة في الموصل بين بائعي الطعام والاسكافيين ، المقدسي " أحسن التقاسيم " (لیدن ١٩٠٦) ص ١٣٨ تعرف جزء من المربع .
- (٦٥) ابن حزم " طوق الحمامة " (الجزائر ١٩٤٩) ص ١٨ ، الجاحظ " مناقب " ص ١٥ (تقرأ وقفت بينهم بمعنى " أصلحت بينهم " ) ويؤكد أبو تمام شاعر مطلع القرن الثالث هـ / التاسع م على أهمية أخوة العقيدة عندما كتب يقول أنه قريبي (الحقيقي) في الرأي و العلم و المذهب حتى وإن بعدت مناسبتنا .
- (٦٦) ابن الجوزي " المنتظم " .
- (٦٧) أناقش هذه المسألة بمزيد من الأمثلة في مراجعة لـ R Bulliet The Patricians of Nishapur في Journal of the American Oriental Society ، ٥٩ (١٩٧٥) ص ٤٩١ - ص ٤٩٥ .
- (٦٨) المقدسي " أحسن " ص ٣٣٦ (أبيوارد ونيسا) ، الرزواوي " ذيل " ص ١٢٠ (استشهاد) ، ابن الأثير " الكامل " المجلد ٣ ص ١٦٤ (نصيبين) ، ابن الرومي السطر المقفى بـ " ملكان " .
- (٦٩) ابن الأثير " الكامل " المجلد ٩ ، ٢٩٦ (أبيوارد) ، التنوخي " نيشوار " المجلد ١ ص ٢٥٩ ، هلال الصعبي " تاريخ " ص ٢٩٤ (الوائقي) ، ميسكاويه " تجارب الأمم " المجلد ٢ ص ٢٢٢ (الغازين) .
- (٧٠) سبط بن الجوزي " مرآة " (Koprulu) ص ٣٦٥ ، ابن الجوزي " المنتظم " المجلد ٧ ص ٢٧٥ ، ابن الأثير " الكامل " المجلد ٩ ص ١٧٦ ، الرزواوي " ذيل " ص ٣٠٥ رقم ١ (نقلًا عن الذهبي) ، لفظ أبوخلدي غير مؤكد عندي .
- (٧١) ابن الأثير " الكامل " المجلد ٨ ، ٤٩٦ ، ميسكاويه " تجارب الأمم " المجلد ٢ ، ٤١٣ .

- (٧٢) ميسكاويه "تجارب الأمم" المجلد ٢ ص ٢٨٩ ، أنظر ابن الأثير "الكامل" المجلد ٩ ، ٥٠ للإشارة إلى شيخ البلد لمايافاريقين في الخمسينات من القرن الرابع .
- (٧٣) سبط بن الجوزي "مرآة" المجلد ٤ ، ٢٦١ عن شاروا ولفظ اسمه غير مؤكد عندى ، ابن الأثير "الكامل" المجلد ٩ ، ٥١ يروى قصة مماثلة عن عميد .
- (٧٤) ميسكاويه "تجارب الأمم" المجلد ٢ ، ١٢٢ .
- (٧٥) ابن الجوزي "المنتظم" المجلد ٦ ، ٢٢٣ (الطبرى) ، سبط بن الجوزي "مرآة" (Koprulu) ص ٣٢٣ (هلال) ، ابن الأثير "الكامل" المجلد ٨ ، ٤٣٤ (الياسا) .
- (٧٦) ابن الجوزي "المنتظم" المجلد ٧ ، ٢٥٤ .
- (٧٧) ابن تغريبدى "النجوم" المجلد ٩ ، ٢٦٥ .

## هوامش الفصل الرابع

- (١) ابن الأثير «والكامل في التاريخ» (ليدن ١٨٥٢) (المجلد ٨ ، ٤٨٣) (استشهاد) وكذلك ص ٤٣٦ والمجلد ٩ ، ٦ (عن القدرات العسكرية للأحداث الدمشقيين) ، ويلاحظ استبعاد الأشراف والأحداث في هذه المراجع الثلاثة جميعها وفي الرزداوى "ذيل تجارب الأمم" (القاهرة ١٩١٦) ص ٢٢٧ حيث تقابل القائد الفاطمى مع الأشراف ووجوه الأحداث عندما قدم إلى دمشق .
- (٢) الرزداوى "ذيل" ص ٢٣٩ (الرهبة و الركبة) ، ميسكاويه "تجارب الأمم" (القاهرة ١٩١٤ - ١٩١٥) ، المجلد ١ ، ٢٦٥ (اصفهان) ، an arabic-english Lexicon, e.w.lane ج ٤ (نيويورك ١٩٥٦) ، ص ١٥٦٦ (نقلاً عن الفيروزبادى) ، كان لدى الأحداث العيارون سلطة جبرية كانت أساسية لأى حكم لكنها لم يكونوا مصادر مقبولة للحكم لبقية المجتمع كما رأينا فى حالة دمشق ، فقد عملوا لمصلحة مستويات معينة فقط فى المجتمع و مصلحة طائفة أو أخرى من طوائفه ، ولذا فعندما يذكر ميسكاويه فى "تجارب الأمم" المجلد ٢ ، ٢٠٠ أنه حدث فى حاران فى الخمسينات من القرن الرابع أن أحد عمال الحمدانيين ترك البلد شاغرا دون سلطان فتسلط عليها العيارون "ومن الواضح أنه لم ير حكم العيارين على أنه مساو للحكم "الحقيقى" .
- (٣) ميسكاويه "تجارب الأمم" المجلد ٢ ، ٣١٤ ، وأنا شاكر لـ "مارك كوهن" من جامعة برينستون للفتة انتباهى إلى الإشارات المتكررة إلى الهيبة فى المصادر الخاصة بهذه الفترة ،
- (٤) ت.ب. ماكولى "Southey's Colloquies" فى مقالات نقدية وتاريخية (نيويورك ١٩٦٥) ص ٥٠ - ٥١ ، قارن دجونسون "خير لك أن يكون لديك ناهب واحد من أن يكون لديك كثيرون" .
- (٥) Lane Lexicon ج ٥ ص ١٩٢٠ (تعريفات الظلم) .
- (٦) ابن الأثير "الكامل" المجلد ٩ ، ٢٥٤ ، 268 A ابن الجوزي "المنتظم" (حيدرآباد ١٣٥٧ - ١٣٥٩) المجلد ٨ ص ٦٤ .
- (٧) ميسكاويه "تجارب الأمم" المجلد ١ ، ٥٨ (حميد) ، سبط بن الجوزي "مرآة الزمان" (اسطنبول ms,koprulu 1157 مجلد ٩) ص ٣٦٥ (بدر) ، ابن الجوزي "المنتظم" المجلد ٣ ، ٢١ (٤١٦) .

(٨) الطبري "الحواليات" (ليدن ١٨٧٩) المجلد ٣ ، ٢٩-٣٣ (عن الدولة العباسية)، الهمداني "تكملة تاريخ الطبري" (بيروت ١٩٦١) ص ١٨٦ (المهلبى) ، سبط بن الجوزي "مرآة الزمان" (المتحف البريطاني ms OR 4619 ) 11 f. 104A.

(٩) سبط بن الجوزي "مرآة الزمان" المجلد ٢. 92 A. f. البيهقي "تاريخ" (طهران ١٣٢٤) ص ٩٧ - ٩٨ ، ابن الأثير "الكامل" المجلد ٩ ، ٣٣٦ (طوغرل) .

(١٠) الرزواوي "ذيل" ص ٧٢ (الحديث في البخاري) ، ص ٢٣ (الصعبي) ، ابن الأثير "الكامل" المجلد ٩ ، ٣١٣ (المواردي) .

(١١) ابن الأثير "الكامل" المجلد ٩ ، ١٤٣ (أبورخوه) ، الرزواوي "ذيل" ص ١٥٠ (سيراف) ،

(١٢) التنوخي "نیشوار الحاضرة" (بيروت ١٩٧١ - ١٩٧٢) المجلد ١ ، ١٠٣ ، كما يوضح ر، برونشفيج في مقاله "البينة" Encyclopaedia of Islam (ليدن ١٩٦٠) المجلد ١ ، ١١٥٠ - ١١٥١ ، أن الفقهاء الإسلاميين أرادوا قبول الدليل الذي جعل القرارات الاحتمالية و الخاصة بالصالح العام أمراً ممكناً ، لكنها كانت محدودة في قدرتها على القيام بذلك .

(١٣) ابن الأثير "الكامل" المجلد ٩ ، ٩٨ (قابوس) .



## المحتويات

5	تمهيد .....
7	الفصل الأول : الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي الأول .....
41	الفصل الثاني : الولاءات المكتسبة .....
91	الفصل الثالث : ولأءات الطبقة .....
161	الفصل الرابع : العدالة والملكية وشكل المجتمع .....

## المشروع القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التي حققتها مشروعات الترجمة التي سبقته في مصر والعالم العربي ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية في المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التي أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعي في الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التي تضع القارئ في القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

## المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	أ : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضري
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إيفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغييرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عثمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صعد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبه
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الطوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصه إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٢٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٢٧ - واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٢٨ - نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٢٩ - الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحي / محمود ملجد
٤٢ - عالم ماك	بنجامين بارير	ت : أحمد محمود
٤٣ - الذهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت : المهدي أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تادرس
٤٥ - التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج١	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
٤٩ - الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الملود ويوسف الأملكى
٥١ - مسار الرواية الإسبانية الأمريكية	داريو بيانوبيا وخـ م بينياليستي	ت : محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسى التدميى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣ - الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ - ما وراء العلم	جون بواكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ - المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتن	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
٦٢ - لذة النص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ - فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ - العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهريدا محمد فهمى
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجت	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

- ٧٢ - السياسى العجوز  
٧٣ - نقد استجابة القارئ  
٧٤ - صلاح الدين والممالك فى مصر  
٧٥ - فن التراجم والسير الذاتية  
٧٦ - چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى  
٧٧ - تاريخ النقد الألبى الحديث ج ٣  
٧٨ - العولة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية  
٧٩ - شعرية التأليف  
٨٠ - بوشكين عند «نافورة الدموع»  
٨١ - الجماعات المتخيلة  
٨٢ - مسرح ميغيل  
٨٣ - مختارات  
٨٤ - موسوعة الأدب والنقد  
٨٥ - منصور الحلاج (مسرحية)  
٨٦ - طول الليل  
٨٧ - نون والقلم  
٨٨ - الابتلاء بالتغرب  
٨٩ - الطريق الثالث  
٩٠ - وسم السيف (قصص)  
٩١ - المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق  
٩٢ - أساليب ومضامين المسرح  
الإسبانيون أمريكي المعاصر  
٩٣ - محدثات العولة  
٩٤ - الحب الأول والصحة  
٩٥ - مختارات من المسرح الإسباني  
٩٦ - ثلاث زنبقات ووردة  
٩٧ - هوية فرنسا (المجلد الأول)  
٩٨ - الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى  
٩٩ - تاريخ السينما العالمية  
١٠٠ - مساملة العولة  
١٠١ - النص الروائى (تقنيات ومناهج)  
١٠٢ - السياسة والتسامح  
١٠٣ - قبر ابن عربى يليه آباء  
١٠٤ - أوبرا ماهوجنى  
١٠٥ - مدخل إلى النص الجامع  
١٠٦ - الأدب الأندلسى  
١٠٧ - مسرة الغدائى فى الشر الأمريكى المعاصر
- ت . س . إليوت  
چين . ب . توميكنز  
ل . ا . سيمينوفا  
أندريه موروا  
مجموعة من الكتاب  
رينيه ويليك  
رونالد روبرتسون  
بوريس أوسبينسكى  
ألكسندر بوشكين  
بندكت أندرسن  
ميغيل دى أونامونو  
غوتفريد بن  
مجموعة من الكتاب  
صلاح زكى أقطاى  
جمال مير صادقى  
جلال آل أحمد  
جلال آل أحمد  
أنتونى جينز  
نخبة من كتاب أمريكا اللاتينية  
باربر الاسوستكا  
كارلوس ميغيل  
مايك فيذرستون وسكوت لاش  
صمويل بيكيت  
أنطونيو بويزو بايخو  
قصص مختارة  
فرنان برودل  
نماذج ومقالات  
ديفيد روبنسون  
بول هيرست وجراهام تومبسون  
بيرنار فاليط  
عبد الكريم الخطيبى  
عبد الوهاب المؤيد  
برتول بريشت  
جيرارچينيت  
د. ماريا خيسوس روبيرامتى  
نخبة
- ت : فؤاد مجلى  
ت : حسن ناظم وعلى حاكم  
ت : حسن بيومى  
ت : أحمد درويش  
ت : عيد المقصود عبد الكريم  
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد  
ت : أحمد محمود ونورا أمين  
ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى  
ت : مكارم الغمرى  
ت : محمد طارق الشرقاوى  
ت : محمود السيد على  
ت : خالد المعالى  
ت : عبد الحميد شيحة  
ت : عبد الرازق بركات  
ت : أحمد فتحى يوسف شتا  
ت : ماجدة العنانى  
ت : إبراهيم الدسوقي شتا  
ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين  
ت : محمد إبراهيم مبروك  
ت : محمد هناء عبد الفتاح  
ت : نادية جمال الدين  
ت : عبد الوهاب علوب  
ت : فوزية العشماوى  
ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف  
ت : إيوار الخراط  
ت : بشير السباعى  
ت : أشرف الصباغ  
ت : إبراهيم قنديل  
ت : إبراهيم فتحى  
ت : رشيد بنحدو  
ت : عز الدين الكتانى الإدريسى  
ت : محمد بنيس  
ت : عبد الغفار مكوى  
ت : عبد العزيز شبيل  
ت : أشرف على دعدور  
ت : محمد عبد الله الجعيدى

- ١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي مجموعة من النقاد  
١٠٩ - حروب المياه جون بولوك وعادل درويش  
١١٠ - النساء في العالم النامي حسنة بيجوم  
١١١ - المرأة والجريمة فرانسيس هيندسون  
١١٢ - الاحتجاج الهادئ أرلين علوى ماكليود  
١١٣ - راية التمرد سادى پلانت  
١١٤ - مسرحيات حماد كوني وسكان المستنقع رول شوينكا  
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده فرچينيا وولف  
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق) سينثيا نلسون  
١١٧ - المرأة والجنوسة في الإسلام ليلى أحمد  
١١٨ - النهضة النسائية في مصر بث بارون  
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق أميرة الأزهرى سنيل  
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط ليلى أبو لغد  
١٢١ - الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية فاطمة موسى  
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان جوزيف فوجت  
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية نيل الكسندر وفنادولينا  
١٢٤ - الفجر الكاذب چون جراى  
١٢٥ - التحليل الموسيقى سيدريك ثورپ ديفى  
١٢٦ - فعل القراءة قولفانچ إيبر  
١٢٧ - إرهاب صفاء فتحى  
١٢٨ - الأدب المقارن سوزان باسنيت  
١٢٩ - الرواية الاسبانية المعاصرة ماريا دولورس أسيس جاروته  
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية أندريه جوندر فراذك  
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى) مجموعة من المؤلفين  
١٣٢ - ثقافة العولة مايك فيذرستون  
١٣٣ - الخوف من المرايا طارق على  
١٣٤ - تشريح حضارة بارى ج. كيمب  
١٣٥ - المختار من نقد س. إليوت (ثلاثة أجزاء) ت. س. إليوت  
١٣٦ - فلاحو الباشا كينيث كوني  
١٣٧ - مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية جوزيف مارى مواريه  
١٣٨ - عالم التلفزيون بين الجمال والعنف إيفيلينا تارونى  
١٣٩ - باريسقال ريشارد فاچنر  
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار هريبرت ميسن  
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية مجموعة من المؤلفين  
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل أ.م. فورستر  
١٤٣ - قضايا التطور في البحث الاجتماعى ديريك لايدار  
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة كارلو جولونى
- ت : محمود على مكى  
ت : هاشم أحمد محمد  
ت : منى قطان  
ت : ريهام حسين إبراهيم  
ت : إكرام يوسف  
ت : أحمد حسان  
ت : نسيم مجلى  
ت : سميرة رمضان  
ت : نهاد أحمد سالم  
ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال  
ت : ليس النقاش  
ت : بإشراف/ رؤوف عباس  
ت : نخبة من المترجمين  
ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال  
ت : منيرة كروان  
ت : أنور محمد إبراهيم  
ت : أحمد فؤاد بلع  
ت : سمح الخولى  
ت : عبد الوهاب علوب  
ت : بشير السباعى  
ت : أميرة حسن نورية  
ت : محمد أبو العطا وآخرون  
ت : شوقى جلال  
ت : لويس بقطر  
ت : عبد الوهاب علوب  
ت : طلعت الشايب  
ت : أحمد محمود  
ت : ماهر شفيق فريد  
ت : سحر توفيق  
ت : كاميليا صبحى  
ت : وجيه سمعان عبد المسيح  
ت : مصطفى ماهر  
ت : أمل الجبورى  
ت : نعيم عطية  
ت : حسن بيومى  
ت : عدلى السعوى  
ت : سلامة محمد سليمان

- ١٤٥ - موت أرتيميو كروث كارلوس فويتس
- ١٤٦ - الورقة الحمراء ميجيل دى ليبس
- ١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة تانكريد نورست
- ١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية) إنريكي أندرسون إمبرت
- ١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس عاطف فضول
- ١٥٠ - التجربة الإغريقية روبرت ج. ليتمان
- ١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١) فرنان برودل
- ١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى نخبة من الكتاب
- ١٥٣ - غرام الفراغة فيولين فاتويك
- ١٥٤ - مدرسة فرانكفورت فيل سليتر
- ١٥٥ - الشعر الأمريكي المعاصر نخبة من الشعراء
- ١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى جى أنبال والان وأوديت فيرمو
- ١٥٧ - خسرو وشيرين النظامى الكنوجى
- ١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ٢) فرنان برودل
- ١٥٩ - الإيديولوجية ديفيد هوكس
- ١٦٠ - آلة الطبيعة بول إيرليش
- ١٦١ - من المسرح الإسباني اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا
- ١٦٢ - تاريخ الكنيسة يوحنا الآسيوى
- ١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١ جوربون مارشال
- ١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور) جان لاکوتير
- ١٦٥ - حكايات الشعب أ. ن. أفانا سيفا
- ١٦٦ - العلاقات بين المثنيين والعمانيين في إسرائيل يشعيا هو ليفمان
- ١٦٧ - في عالم طاغور رابندراناث طاغور
- ١٦٨ - دراسات في الأدب والثقافة مجموعة من المؤلفين
- ١٦٩ - إبداعات أدبية مجموعة من المبدعين
- ١٧٠ - الطريق ميغيل ديليبس
- ١٧١ - وضع حد فرانك بيجو
- ١٧٢ - حجر الشمس مختارات
- ١٧٣ - معنى الجمال ولتر ت. ستيس
- ١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء ايليس كاشمور
- ١٧٥ - التلفزيون في الحياة اليومية لورينزو فيلشس
- ١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية توم تينتيرج
- ١٧٧ - أنطون تشيخوف هنرى تروايا
- ١٧٨ - مختارات من الشعر اليوناني الحديث نخبة من الشعراء
- ١٧٩ - حكايات أيسوب أيسوب
- ١٨٠ - قصة جاويد إسماعيل فصيح
- ١٨١ - النقد الأدبي الأمريكي فنسنت . ب . ليتش
- ت : أحمد حسان
- ت : على عبد الرؤوف البمبي
- ت : عبد الغفار مكاوى
- ت : على إبراهيم على منوفى
- ت : أسامة إسبر
- ت : منيرة كروان
- ت : بشير السباعى
- ت : محمد محمد الخطايبى
- ت : فاطمة عبد الله محمود
- ت : خليل كلفت
- ت : أحمد مرسى
- ت : مى التمساني
- ت : عبد العزيز يقوش
- ت : بشير السباعى
- ت : إبراهيم فتحى
- ت : حسين بيومى
- ت : زيدان عبد الحليم زيدان
- ت : صلاح عبد العزيز محبوب
- ت : بإشراف : محمد الجوهري
- ت : نبيل سعد
- ت : سهير المصادفة
- ت : محمد محمود أبو غدير
- ت : شكرى محمد عياد
- ت : شكرى محمد عياد
- ت : شكرى محمد عياد
- ت : بسام ياسين رشيد
- ت : هدى حسين
- ت : محمد محمد الخطايبى
- ت : إمام عبد الفتاح إمام
- ت : أحمد محمود
- ت : وجيه سمعان عبد المسيح
- ت : جلال البنا
- ت : حصة إبراهيم منيف
- ت : محمد حمدى إبراهيم
- ت : إمام عبد الفتاح إمام
- ت : سليم عبدالأمير حمدان
- ت : محمد يحيى

- ١٨٢ - العنف والنبوة و . ب . بيتس  
١٨٣ - جان كوكو على شاشة السينما رينيه جيلسون  
١٨٤ - القاهرة .. حالة لا تنام هانز إيندورفر  
١٨٥ - أسفار العهد القديم توماس تومسن  
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل ميخائيل أنوود  
١٨٧ - الأرضة بُزْدَج علوى  
١٨٨ - موت الأدب الفين كرنان  
١٨٩ - العى والبصيرة پول دى مان  
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس كونفوشيوس  
١٩١ - الكلام رأسمال الحاج أبو بكر إمام  
١٩٢ - سياحت نامه إبراهيم بك جـ١ زين العابدين المراغى  
١٩٣ - عامل المنجم بيتر أبراهامز  
١٩٤ - مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى مجموعة من النقاد  
١٩٥ - شتاء ٨٤ إسماعيل قصيحي  
١٩٦ - المهلة الأخيرة قالتين راسبوتين  
١٩٧ - الفارق شمس العلماء شبلى النعمانى  
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى إدوين إمري وآخرون  
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية يعقوب لاندوى  
٢٠٠ - ضحايا القنمية جيرمى سيبروك  
٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة جوزايا رويس  
٢٠٢ - تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤ رينيه ويليك  
٢٠٣ - الشعر والشاعرية الطاف حسين حالى  
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم زلمان شاراز  
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات لويجى لوقا كافالى - سفورزا  
٢٠٦ - الهبوية تصنع علماً جديداً جيعس جلايك  
٢٠٧ - ليل إفريقى رامون خوتاسنديز  
٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى دان أوريان  
٢٠٩ - السرد والمسرح مجموعة من المؤلفين  
٢١٠ - مثويات حكيم سنائى سنائى الغزنوى  
٢١١ - فردينان دوسوسير جوناثان كلر  
٢١٢ - قصص الأمير مرزيان مرزيان بن رستم بن شروين  
٢١٣ - مرملة قديم نابليون حتى رجل عبد الصمد ريمون فلور  
٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع أنتونى جيدنز  
٢١٥ - سياحت نامه إبراهيم بك جـ٢ زين العابدين المراغى  
٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم مجموعة من المؤلفين  
٢١٧ - مسرحيتان طليعتان صمويل بيكيت  
٢١٨ - وايولا خوليو كورتازان
- ت : ياسين طه حافظ  
ت : فتحى العشرى  
ت : دسوقي سعيد  
ت : عبد الوهاب علوب  
ت : إمام عبد الفتاح إمام  
ت : علاء منصور  
ت : بدر الديب  
ت : سعيد الغانمى  
ت : محسن سيد فرجاني  
ت : مصطفى حجازى السيد  
ت : محمود سلامة علاوى  
ت : محمد عبد الواحد محمد  
ت : ماهر شفيق فريد  
ت : محمد علاء الدين منصور  
ت : أشرف الصباغ  
ت : جلال السعيد الحفناوى  
ت : إبراهيم سلامة إبراهيم  
ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد  
ت : فخرى لبيب  
ت : أحمد الأنصارى  
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد  
ت : جلال السعيد الحفناوى  
ت : أحمد محمود هويدى  
ت : أحمد مستجير  
ت : على يوسف على  
ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف  
ت : محمد أحمد صالح  
ت : أشرف الصباغ  
ت : يوسف عبد الفتاح فرج  
ت : محمود حمدي عبد الغنى  
ت : يوسف عبد الفتاح فرج  
ت : سيد أحمد على الناصرى  
ت : محمد محمود محى الدين  
ت : محمود سلامة علاوى  
ت : أشرف الصباغ  
ت : نادى البنهاوى  
ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ - بقايا اليوم	كانزو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ - الهولوية في الكون	باري باركر	ت : علي يوسف علي
٢٢١ - شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ - فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ - العلم في مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ - دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : متى عبد الظاهر ابراهيم السيد
٢٢٥ - حكاية غريق	جابريل جارتيا ماركت	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هوبت لورانس	ت : طاهر محمد علي البربري
٢٢٧ - المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	موسى هارديا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : ماري تيريز عيد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ - مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمن	ت : أمير ابراهيم العمري
٢٣٠ - من الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى ابراهيم فهمي
٢٣١ - الدرافيل	خايمي سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ - ما بعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى ابراهيم فهمي
٢٣٣ - فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ - الإسلام في السودان	ج. سينسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ - ديوان شمس تبريزي ج ١	جلال الدين الرومي	ت : ابراهيم الدسوقي شتا
٢٣٦ - الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ - مصر أرض الوادي	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ - العولة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعيسى منبولى أحمد
٢٣٩ - العربي في الأدب الإسرائيلي	جيلرافر - رايوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامي حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ - في انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ - سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبي
٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١)	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ - الغليان	لورا إسكييل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ - نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق علي منصور
٢٤٦ - قصص مختارة	جابريل جرتيا ماركت	ت : على ابراهيم علي منوفى
٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والحداثة في مصر	ولتر أومبرست	ت : محمد الشرقاوي
٢٤٨ - حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ - لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ - علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباطة
٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردين مارشال	ت : بإشراف : محمد الجوهري
٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومي
٢٥٤ - الفلسفة	ديف روبنسون وجودي جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ - أفلاطون	ديف روبنسون وجودي جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ - ديكارت	ديف روينسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ - الفجر	سير أنجوس فريزر	ت : عبادة كحيلة
٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : فاروچان كازانچيان
٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج ٣	جوردون مارشال	ت : بإشراف : محمد الجوهري
٢٦١ - رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ - مدينة المعجزات	إدوارد مندوتا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن	جون جرين	ت : على يوسف على
٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ - روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ - مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ - فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين مروكى
٢٦٨ - ديوان شمس تبريزى ج ٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج ١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج ٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ - الحضارة الغربية	توماس سى ، باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ - الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ - الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ - السيدة بريارا	روموالو جلاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ - ت. س. إيليت شاعرًا وناقدًا وكاتبًا مسرحيًا	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ - فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ - الجينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ - البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ - من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ - الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ - السهل يحترق	خوان روافو	ت : على البمبى
٢٨٤ - هرقل مجنوناً	يوريبيدس	ت : أحمد عثمان
٢٨٥ - رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ - سياحت نامه إبراهيم بك ج ٣	زين العابدين المرائى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ - الثقافة والعولة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ - الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ - ديوان منجوهري الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ - علم اللغة والترجمة	جورج موناخ	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ - المسرح الإشبانى فى القرن العشرين ج ١	فرانشيسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ - المسرح الإشبانى فى القرن العشرين ج ٢	فرانشيسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٢ - مقدمة للأدب العربي	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ - فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ - سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ - مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوي
٢٩٧ - فن النحويين اليونانية والسوريانية	ديونيسيوس ثراكس - يوسف الأهواني	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ - مأساة العبيد	أبو بكر تقوالابليوه	ت : مصطفى حجازي السيد
٢٩٩ - ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد قواد
٣٠٠ - أسطورة برومثيروس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيري وبهاء جاهين
٣٠١ - أسطورة برومثيروس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيري ومحمد الجندي
٣٠٢ - فنجنشتين	جون هيتون وجودي جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ - بوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ - ماركس	ريوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ - الجلد	كرزيبو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ - الحماسة - النقد الكانطي للتاريخ	جان - فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ - الشعور	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ - علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ - الذهن والمخ	انجوس چيلائي	ت : جمال الجزيري
٣١٠ - يونج	ناجي هيد	ت : محيي الدين محمد حسن
٣١١ - مقال في المنهج الفلسفي	كونجورود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ - روح الشعب الأسود	وليم دي بوز	ت : أسعد حليم
٣١٣ - أمثال فلسطينية	خابير بيان	ت : عبد الله الجعدي
٣١٤ - الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعي
٣١٥ - جرامشي في العالم العربي	ميشيل بروندينو	ت : كاميليا صبحي
٣١٦ - محاكمة سقراط	أ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ - بلا غد	شير لايموفا - زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ - الأدب الروسي في الستات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ - صور دريدا	جايتز ياسبيفاك وكريستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ - لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ١)	ليفى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ - وجهات نظر حديثة في تاريخ الفن القديم	دبليو. إيوجين كلينباور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ - فن الساتورا	تراث يوناني قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ - اللعب بالنار	أشرف أسدي	ت : محمود سلامة علاوي
٣٢٥ - عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كريستين يوسف
٣٢٦ - المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ - مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ - يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ - رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

- ٢٢٠ - كل شيء عن التمثيل الصامت مارفن شبرد  
٢٢١ - عندما جاء السريدين ستيفن جراي  
٢٢٢ - رحلة شهر العسل وقصص أخرى نخبة  
٢٢٣ - الإسلام في بريطانيا نبيل مطر  
٢٢٤ - لقطات من المستقبل آرثر س. كلارك  
٢٢٥ - عصر الشك ناتالي ساروت  
٢٢٦ - متون الأهرام نصوص قديمة  
٢٢٧ - فلسفة الولاء جوزايا رويس  
٢٢٨ - نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند نخبة  
٢٢٩ - تاريخ الأدب في إيران ج٢ علي أصغر حكمت  
٢٤٠ - اضطراب في الشرق الأوسط بيرش بيربيروجلو  
٢٤١ - قصائد من رلكه راينر ماريا رلكه  
٢٤٢ - سلامان وأبسال نور الدين عبد الرحمن بن أحمد  
٢٤٣ - العالم البرجوازي الزائل نادين جورديمر  
٢٤٤ - الموت في الشمس بيتر بلانجوه  
٢٤٥ - الركض خلف الزمن بونه ندائي  
٢٤٦ - سحر مصر رشاد رشدي  
٢٤٧ - الصبية الطائشون جان كوكتو  
٢٤٨ - المتصورة الأولى في الأدب التركي ج١ محمد فؤاد كوبريلي  
٢٤٩ - دليل القارئ إلى الثقافة الجادة آرثر والدرون وآخرين  
٢٥٠ - بانوراما الحياة السياحية أقلام مختلفة  
٢٥١ - مبادئ المنطق جوزايا رويس  
٢٥٢ - قصائد من كفافييس قسطنطين كفافييس  
٢٥٣ - الفن الإسلامي في الأندلس (منسية) باسيليو بابون مالدونالد  
٢٥٤ - الفن الإسلامي في الأندلس (نباتية) باسيليو بابون مالدونالد  
٢٥٥ - التيارات السياسية في إيران حجت مرتضى  
٢٥٦ - الميراث المر بول سالم  
٢٥٧ - متون هيرميس نصوص قديمة  
٢٥٨ - أمثال الهوسا العامية نخبة  
٢٥٩ - محاورات بارمنيدس أفلاطون  
٢٦٠ - أنثروبولوجيا اللغة أندريه جاكوب ونويلا باركان  
٢٦١ - التصحر : التهديد والمواجهة آلان جرينجر  
٢٦٢ - تلميذ باينبرج هاينرش شبرال  
٢٦٣ - حركات التحرر الأفريقي ريتشارد جيبسون  
٢٦٤ - حادثة شكسبير إسماعيل سراج الدين  
٢٦٥ - سام باريس شارل بودلير  
٢٦٦ - نساء يركضن مع الذئب كلاريسا بنكولا
- ت : سامي صلاح  
ت : سامية دياب  
ت : علي إبراهيم علي منوفي  
ت : بكر عباس  
ت : مصطفى فهمي  
ت : فتحي العشري  
ت : حسن صابر  
ت : أحمد الأنصاري  
ت : جلال السعيد الحفناوي  
ت : محمد علاء الدين منصور  
ت : فخرى لييب  
ت : حسن حلمي  
ت : عبد العزيز بقوش  
ت : سمير عبد ربه  
ت : سمير عبد ربه  
ت : يوسف عبد الفتاح فرج  
ت : جمال الجزيري  
ت : بكر الحلو  
ت : عبد الله أحمد إبراهيم  
ت : أحمد عمر شاهين  
ت : عطية شحاتة  
ت : أحمد الأنصاري  
ت : نعيم عطية  
ت : علي إبراهيم علي منوفي  
ت : علي إبراهيم علي منوفي  
ت : محمود سلامة علاوي  
ت : بدر الرفاعي  
ت : عمر الفاروق عمر  
ت : مصطفى حجازي السيد  
ت : حبيب الشاروني  
ت : ليلى الشربيني  
ت : عاطف معتمد وآمال شاوور  
ت : سيد أحمد فتح الله  
ت : صبري محمد حسن  
ت : نجلاء أبو عجاج  
ت : محمد أحمد حمد  
ت : مصطفى محمود محمد

- ٣٦٧ - القلم الجريء نخبة  
٣٦٨ - المصطلح السردى جيرالد برونس  
٣٦٩ - المرأة فى أدب نجيب محفوظ فوزية العشماوى  
٣٧٠ - الفن والحياة فى مصر الفرعونية كليلا لويت  
٣٧١ - التصوف الأولون فى الأدب التركى ج٢ محمد فؤاد كوبريلى  
٣٧٢ - عاش الشباب وانغ مينغ  
٣٧٣ - كيف تعد رسالة دكتوراه أمبرتو إيكو  
٣٧٤ - اليوم السادس أندريه شديد  
٣٧٥ - الخلود ميلان كونديرا  
٣٧٦ - الغضب وأحلام السنين نخبة  
٣٧٧ - تاريخ الأدب فى إيران ج٢ على أصغر حكمت  
٣٧٨ - المسافر محمد إقبال  
٣٧٩ - ملك فى الحديقة سنيل ياث  
٣٨٠ - حديث عن الخسارة جونتر جراس  
٣٨١ - أساسيات اللغة ر. ل. تراسك  
٣٨٢ - تاريخ طبرستان بهاء الدين محمد إسفنديار  
٣٨٣ - هدية الحجاز محمد إقبال  
٣٨٤ - القصص التى يحكيها الأطفال سوزان إنجيل  
٣٨٥ - مشترى العشق محمد على بهزادراد  
٣٨٦ - نفاعاً عن التاريخ الألبى التسوى جانيت تود  
٣٨٧ - أغنيات وسوناتات چون دن  
٣٨٨ - مواعظ سعدى الشيرازى سعدى الشيرازى  
٣٨٩ - من الأدب الباكستانى المعاصر نخبة  
٣٩٠ - الأرشيقات والمدن الكبرى نخبة  
٣٩١ - الحافلة الليلية مايك بينشى  
٣٩٢ - مقامات ورسائل أندلسية فرناندو دى لاجرانخا  
٣٩٣ - فى قلب الشرق ندوة لويس ماسينيون  
٣٩٤ - القوى الأربع الأساسية فى الكون بول ديفيز  
٣٩٥ - آلام سياوش إسماعيل فصيح  
٣٩٦ - السافاك تقى نجارى راد  
٣٩٧ - نيتشه لورانس جين  
٣٩٨ - سارتر فيليب تودى  
٣٩٩ - كامى ديفيد ميروفتس  
٤٠٠ - موهو ميثائيل إنده  
٤٠١ - الرياضيات زيافون ساردر  
٤٠٢ - هوكنج ج. ب. ماك أيفوى  
٤٠٣ - رية المطر والملابس تصنع الناس توبور شتورم  
٤٠٤ - تعويذة الحسى ليفيد إبرام  
٤٠٥ - إيزابيل أندريه جيد  
٤٠٦ - المستعربون الإسبان فى القرن ١٩ مانويلا مانتاناريس
- ت : البراق عبد الهادى رضا  
ت : عابد خزندار  
ت : فوزية العشماوى  
ت : فاطمة عبد الله محمود  
ت : عبد الله أحمد إبراهيم  
ت : وحيد السعيد عبد الحميد  
ت : على إبراهيم على منوفى  
ت : حمادة إبراهيم  
ت : خالد أبو اليزيد  
ت : إدوار الخراط  
ت : محمد علاء الدين منصور  
ت : يوسف عبد الفتاح فرج  
ت : جمال عبد الرحمن  
ت : شيرين عبد السلام  
ت : رانيا إبراهيم يوسف  
ت : أحمد محمد نادى  
ت : سمير عبد الحميد إبراهيم  
ت : إيزابيل كمال  
ت : يوسف عبد الفتاح فرج  
ت : ريهام حسين إبراهيم  
ت : بهاء جاهين  
ت : محمد علاء الدين منصور  
ت : سمير عبد الحميد إبراهيم  
ت : عثمان مصطفى عثمان  
ت : منى الدروبي  
ت : عبد اللطيف عبد الحليم  
ت : نخبة  
ت : هاشم أحمد محمد  
ت : سليم حمدان  
ت : محمود سلامة علاوى  
ت : إمام عبد الفتاح إمام  
ت : إمام عبد الفتاح إمام  
ت : إمام عبد الفتاح إمام  
ت : باهر الجوهري  
ت : ممنوح عبد المنعم  
ت : ممنوح عبد المنعم  
ت : عماد حسن بكر  
ت : ظبية خميس  
ت : حمادة إبراهيم  
ت : جمال أحمد عبد الرحمن

- ٤٠٧ - الألب الإسباني المعاصر بقلم كاتبه أقلام مختلفة  
٤٠٨ - معجم تاريخ مصر جوان فوتشركنج  
٤٠٩ - انتصار السعادة برتراند راسل  
٤١٠ - خلاصة القرن كارل بوبر  
٤١١ - همس من الماضي جينيفر أكرمان  
٤١٢ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ٢) ليفي برونفيسال  
٤١٣ - أغنيات المنفى ناظم حكمت  
٤١٤ - الجمهورية العالمية للأدب باسكال كازانوف  
٤١٥ - صورة كوكب فريدريش دورنيمات  
٤١٦ - مبادئ النقد الأدبي والعلم والشعر أ. أ. رتشاردز  
٤١٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ه رينيه ويليك  
٤١٨ - سياسات الزمر الحاكمة في مصر العثمانية جين هاثواي  
٤١٩ - العصر الذهبي للإسكندرية جون ماريو  
٤٢٠ - مكرو ميجاس فولتير  
٤٢١ - الزلاء والقيادة في المجتمع الإسلامي روى متحدة
- ت : طلعت شاهين  
ت : عنان الشهاوى  
ت : إلهامى عمارة  
ت : الزواوى بغورة  
ت : أحمد مستجير  
ت : نخبة  
ت : محمد البخارى  
ت : أمل الصبان  
ت : أحمد كامل عبد الرحيم  
ت : مصطفى بدوى  
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد  
ت : عبد الرحمن الشيخ  
ت : نسيم مجلى  
ت : الطيب بن رجب  
ت : أشرف محمد كيلانى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية  
رقم الإيداع ٩١١٥ / ٢٠٠٢







# الولاء والقيادة

يحاول هذا الكتاب تقديم وصف للبناء الاجتماعي الذي كان قائما في غرب إيران وجنوب العراق في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، والسلوكيات والروابط الاجتماعية المختلفة التي أوجدت هذا البناء الاجتماعي، من خلال الأشكال المختلفة للولاء والالتزام والقيادة في فترة غلبت فيها الفوضوية على الشؤون العامة، وذلك في أعقاب سقوط الخلافة الإسلامية.

ويقوم تصنيف الجماعات، والروابط الاجتماعية المختلفة على الوصف الذاتي لهذا المجتمع وليس لغة العلوم الاجتماعية الحديثة؛ حتى يسهل على القارئ فهم طبيعة المجتمع الذي يتناوله هذا الكتاب.